

مُدارسات إيمانيَّةٌ أخلاقيَّةٌ
في ضوءِ علمِ البلاغةِ العربيِّ

الطبعة 2



الدكتور

محمود توفيق محمد سعد

الأستاذ في جامعةِ الأزهرِ الشَّريف



مكتبة وهبة

الدكتور

محمود توفيق محمد سعد

الأستاذ في جامعة الأزهر الشريف

الطبعة الثانية

الرجال قوامون على النساء

مدارسات إيمانية أخلاقية في ضوء علم البلاغة العربي

الطبعة الثانية

منقحة ومزيدة



الرجال قوامون على النساء
مدارسات إيمانية أخلاقية
في ضوء علم البلاغة العربي
الدكتور
محمود توفيق محمد سعد
الطبعة الثانية ١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م
(مزيدة ومنقحة)
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
٢٢٤ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٢٠١٧/٢٣٠٢٤
الترقيم الدولي : I.S.B.N.
978-977-225-465-1

جميع الآراء الواردة بالكتاب تعبر عن رأي المؤلف، وهو المسئول عنها وحده، وليست بالضرورة تعبر عن رأي المكتبة.



دار الكتب والوثائق القومية
دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

سعد، محمود توفيق محمد.
الرجال قوامون على النساء : مدارسات إيمانية أخلاقية في ضوء علم البلاغة العربية / محمود توفيق محمد سعد .- ط٢ .- القاهرة : مكتبة وهبة للطبع والنشر والتوزيع، ٢٠٢٠
٢٢٤ صفحة ؛ ٢٤ سم
تدمك ١ ٤٦٥ ٢٢٥ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - الاسلام والعلاقات الاسرية
٢ - المرآة
٣- الرجال
٤- البلاغة العربية

أ- العنوان

٢١٤,٣٠١٤٢٧



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثّانية

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (الفاتحة: ٢-٤)

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وعلى آل محمدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ وصحابته وأمّته، كَمَا صَلَّيْتَ على إبراهيم وعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وعلى آل محمدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ وصحابته وأمّته، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إبراهيم وعلى آلِ إِبْرَاهِيمَ في العالمين، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، عدد خلقك، ورضاء نفسك، وزنة عرشك، ومداد كلماتك، صلاة تَحلّ بها يا عليّ ياعظيم العقدَ، وتَفرّج بها ياذا الجلال والإكرام الكُرَبَ، وتقضِي بها يا حيّ ياقيوم الحوائج، وتنيل بها يا غَني يا حميد الرّغائبَ وحسن الخواتيم، وتسترنا بها في الدّنيا والآخرة سترًا لا ينكشف لأحدٍ أبدًا، وتجعلنا من النَّاصرين الحقّ بالحق، الماحقين الفساد والمفسدين، والصَّانعين الخير النَّاشرينه في الناس كلِّ النّاسِ إيمانًا واحتسابًا، إنّك ولي ذلك والقادر عليْه، ياذا الجلال والإكرام، يا عليّ العظيم، يا غنيّ الحميد.

أمّا بعدُ، فتتمثلُ القيمة العليا في علاقة العباد بعضِهم ببعضٍ في الإسلام في ثلاثةٍ: العَدلُ، والرَّحمة، والتّسامح.

هذه الثّلاثة الأركان هي عمود العلاقةِ الحُسْنَى بين العباد جميعًا أيًا كان جنسهم ومعتقدهم ومنازلهم الاجتماعية ، بها تزكو الحياة ، وتستقيم حركة العباد فيها إلى تحقيق ما خلقوا له .

« **الركن الأوّل** : العدلُ يبيّن حقّ كلِّ ذي حقّ ، و يقرّره ، ويلزم مَن عليْه به ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (النساء:١٣٥)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة:٨)

روى مسلم في كتاب « البِرِّ والصِّلَةِ والأدب» مِن صَحيحِه بسنـدِه عَـنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ أَنَّهُ قَالَ « يَا عِبَادِى إِنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِى وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا .....».

ولذا استعاذ سيّدنا رسول الله ـ صَلّى الله عَليـه وعَلَى آلِه وصحبِه وسلّم ـ مـن أن يظلِمَ أو يُظلم ، روى أبـو داود فـي كـتـاب « الـوتـر » بسنـده عَـنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلّى الله وسلم عَليْـهِ وعَلَى آلِه وَصحبـه ـ كَـانَ يَقُولُ « اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ وَالْقِلَّةِ وَالذِّلَّةِ وَأَعُوذُ بِـكَ مِـنْ أَنْ أَظْلِـمَ أَوْ أُظْلَمَ ».

وفي رواة له في كتاب « الأدب» بسنده عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : مَا خَرَجَ النَّبِيُّ ـ صَلّى الله وسلم عَليْـهِ وعَلَى آلِه وَصحبه ـ مِنْ بَيْتِى قَطُّ إِلاَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَـى السَّمَاءِ ، فَقَالَ : « اللَّهُـمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِـلَّ ، أَوْ أُضَـلَّ ، أَوْ أَزِلَّ ، أَوْ أُزَلَّ ، أَوْ أَظْلِمَ ، أَوْ أُظْلَمَ ، أَوْ أَجْهَلَ ، أَوْ يُجْهَلَ عَلَىَّ».

تبصر قوله ـ صَلّى الله عَليْهِ وعَلَى آلِه وَصحبه وَسَلّمَ ـ : «، أَوْ أَظْلِمَ ، أَوْ أُظْلَمَ»

استعاذ من أن يكون مظلومًا كمثل ما استعاذ بالله ـ تعالى ـ من أن يكون ظالمًا ، وكأن من رضِيَ أن يكون مظلومًا وهو قادرٌ على أن يرفعَ عَن نفسِه الظلم هو وظالمه سواء ، فهو بتركه الدّفع عن نفسِه ، ومنعه الظالم من ظلمه ، وهو قادرٌ على منعه قد أعان ذلك الظالم على الظلم ، وأغراه بأن يمضِي فيه ، وأن يكونَ من جندِ الشيطان ، وهذا ما نهى عنه الإسلام ، فأمر بأن ينصر المرءَ أخاه الظالم بالأخذ على يديه .

رَوَى البخاري! في كتاب «المظالم»

عَنْ أَنَسٍ ـ رضى الله عنه ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا». قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا ، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا ؟ قَالَ : «تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ».

وفي رواية للبخاري في كتاب «الإكراه» عَنْ أَنَسٍ ـ رضى الله عنه ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا». فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا ، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ ؟ قَالَ : «تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»

وفي رواية لمسلم في كتاب «البر والصّلة والأدب» بسنده عَنْ جَابِرٍ قَالَ اقْتَتَلَ غُلاَمَانِ غُلاَمٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَغُلاَمٌ مِنَ الأَنْصَارِ ، فَنَادَى الْمُهَاجِرُ أَوِ الْمُهَاجِرُونَ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ ، وَنَادَى الأَنْصَارِىُّ يَا لَلأَنْصَارِ ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : «مَا هَذَا دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ». قَالُوا : لاَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِلاَّ أَنَّ غُلاَمَيْنِ اقْتَتَلاَ فَكَسَعَ أَحَدُهُمَا الآخَرَ ، قَالَ : «فَلاَ بَأْسَ وَلْيَنْصُرِ الرَّجُلُ

أَخَاهُ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا ، إِنْ كَانَ ظَالِمًا فَلْيَنْهَهُ فَإِنَّهُ لَهُ نَصْرٌ ، وَإِنْ كَانَ مَظْلُومًا فَلْيَنْصُرْهُ».

فللظلمِ حقٌّ على مظلومه القادر على منعه من ظلمِه : حقه على المظلوم أن يمنعه من الظلم ، وإلا كان ظالمًا مثلَه ، فكل مستكين مستعذب أن يستنعج «هو كمثل من ظلمه أو استنعجه» ، وفي هذا حثٌّ بالغ على أن لايرضَى أحدٌ بأن يكون مظلومًا

وقديمًا قالها الشاعر :

لا ترْضَ صفعًا وَلَوْ مِنْ كَفٍّ وَالدةٍ	ما قال ربّك أن يستعبَدَ الولدُ
ما أبعدَ العِزَّ عَن بيتٍ وعَن وطنٍ	بالذلّ فيه تربِّي الأمُّ مَنْ تلِدُ
إذا استمرَّ علَى حملِ الأذَى أسدٌ	تنسَى الكلابُ ، وينسَى أنَّه الأسدُ

أي تنسَى الكلاب أنها كلابٌ وليست أسدًا ، وينسَى الأسد أنَّه أسدٌ ، فيرضَى بالذلّ ، كما هوحال كثيرٍ مِن الشّعوب ، ولا سِيّما في عالمنا الإسلاميّ .

والإسلام لا يفرق بيْن أن يكونَ المظلومُ مسلمًا أو غير مسلم ، كلُّ خلق الله ـ تعالى ـ من إنسان وغيرِه سواءٌ في استحقاقِ ألاَّ يظلموا .

روَى أبو داود فِي كتابِ «الخَراج» مِن سننه بسندِه عَن أبي صَخْرٍ الْمَدِينِيُّ ، أَنَّ صَفْوَانَ بْنَ سُلَيْمٍ أَخْبَرَهُ عَنْ عِدَّةٍ مِنْ أَبْنَاءِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلّى الله وسلم عَليْهِ وعَلَى آلِه وَصحبه ـ عَنْ آبَائِهِمْ دِنْيَةً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «أَلاَ مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوِ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». (صحَّحه الألباني) [1]

---

(١) قولُه : «دنية» بكسر الدال وسكون النون وفتح الياء على زنة «فتية» جمع فتًى ، من الدنو ، وهو منصوبٌ على الحال آباؤهم لاصقو النَّسب متصلوه

وفي هذا الحديث تهديدٌ بالغ لمَن ظلم معاهدًا ، فكيف بغيره ؟ فكيف بصاحبه وأخيه في الإسلام والجوار ، فكيف بمن تولّى أمره وكلّف برعايته وحمايته والشّفقةِ عليْهِ ؟

وتأمّل قوله ـ صَلّى الله عَليْهِ وعَلَى آلِه وَصحبه وَسَلّمَ ـ : « أَوِ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ » تجد فيه تقريرًا مكينًا لتحقيق السَّلام الاجتماعيّ لكلٍّ مَن يقيم معك مسلمًا أو غيرَ مسلم ، مواطنًا أوغير مواطن ، فكلُّ مَن دخل البلاد بإذن نظامِيّ من الحاكم ـ وإنْ كان الحاكم ظلومًا ـ فهو معاهدٌ ، لا تخفر ذمّة الحاكم .

رَوَى أبو داود في كِتاب « الجهاد » مِن سننِه بِسَنَدِه عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلّى الله وسلم عَليْهِ وعَلَى آلِه وَصحبه ـ : « الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ ، يَرُدُّ مُشِدُّهُمْ عَلَى مُضْعِفِهِمْ ، وَمُتَسَرِّعُهُمْ عَلَى قَاعِدِهِمْ ، لاَ يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ وَلاَ ذُو عَهْدٍ فِى عَهْدِهِ ».

روى الشّيخان البخاري في كتاب « الصلاة » و« الجزية » و« الأدب » ، ومسلم في كتاب « صَلاةِ المستفِرين » بسندهما عَنْ أَبِى النَّضْرِ مَوْلَى عُمَرَ ابْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ ، أَنَّ أَبَا مُرَّةَ مَوْلَى أُمِّ هَانِئٍ بِنْتِ أَبِى طَالِبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ أُمَّ هَانِئٍ بِنْتَ أَبِى طَالِبٍ تَقُولُ : ذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ ، فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسِلُ ، وَفَاطِمَةُ ابْنَتُهُ تَسْتُرُهُ ، قَالَتْ : فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : « مَنْ هَذِهِ ؟ ». فَقُلْتُ : أَنَا أُمُّ هَانِئٍ بِنْتُ أَبِى طَالِبٍ . فَقَالَ : « مَرْحَبًا بِأُمِّ هَانِئٍ ». فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ غُسْلِهِ ، قَامَ ، فَصَلَّى ثَمَانِىَ رَكَعَاتٍ ، مُلْتَحِفًا فِى ثَوْبٍ وَاحِدٍ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، زَعَمَ ابْنُ أُمِّى أَنَّهُ قَاتِلٌ رَجُلاً قَدْ أَجَرْتُهُ فُلاَنَ ابْنَ هُبَيْرَةَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ ». قَالَتْ أُمُّ هَانِئٍ : وَذَاكَ ضُحًى . .



وروى أبو داود في كتاب «الجهاد» من سننه بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَر قَالَ: أَرْدَفَنِى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لاَ أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِحَاجَتِهِ هَدَفًا أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ. قَالَ: فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ، فَإِذَا جَمَلٌ فَلَمَّا رَأَى النَّبِىَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِىُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ فَقَالَ: «مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ». فَجَاءَ فَتًى مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: لِى يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: «أَفَلاَ تَتَّقِى اللَّهَ فِى هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِى مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ شَكَى إِلَىَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ».

فإذا ما كان هذا حقّ الحيوان، فكيف بحق الإنسان ؟، فكيف بحق المسلم ؟، فكيفَ بالصاحبة «الزوج» ؟!!!

بسطت القول في هذا لما أراه من استفحال الظلم بين الناسِ على ما بينهم من صلة رحم خاصّة وعامة، ولما رأيت من استعذاب أناس أن يكونوا ظالمين، بل أن يكونوا مظلومين، ويرضون بالحياة مظلومين مستذلين مستتعجين على أن يدفعوا عن أنفسِهم معرَّة الاستذلال والاستعاج.

«**الركن الثّاني**: الرّحمة تمثّل منهاجَ استيفاء الحقّ لصاحبِه ممَّن هو عليْه، فهو لا يُكرهُهُ، ولا يلاحقه ولا يذلّه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ (البقرة:١٧٨)

روى الشَّيخان البخاريّ مَن كتاب «الأدب» وغيره، ومسلم من كتاب «الفضائل» بسندهما بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلّى الله وسلم عَلَيْهِ وعَلَى آلِه وَصحبه ـ قَالَ «مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ».

وفي طلاقة الفعل «يَرحَمْ» دعوةٌ وسيعةٌ لوجوبِ شُمولُ هذه الرَّحمةِ كلّ ما في الحياةِ منْ كونٍ وإنسانٍ ، فكما أنَّ رسالة رسول الله ـ صَلّى الله عَليْهِ وعَلَى آلِه وَصحبه وَسَلّمَ ـ رحمة للعالمين ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧) ، فحقٌّ على الَّذين آمنوا به أن يكونَ وجودهم رَحمةً للعالَمين .

وفي قوله :«لا يُرْحَم» من التّهديد والتَّرعيب ما تنخلع له قلوب الفاقهين.

وروَى التّرمذيّ في كتاب «البرّ والصلة» من جامعه بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عَمْرو قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلّى الله وسلم عَليْهِ وعَلَى آلِه وَصحبه ـ : «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ، ارْحَمُوا مَنْ فِى الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ ، الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ».

تبصّر قوله ـ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحبه الصّلاة والسّلام ـ : «من فِي الأرض» أرأيت إلى هذا الشّمول المحيط بمن في الأرض ، وقوله : «من» يشمل غير الإنسان على جهةِ التغليب ، إشارةً إلى أنّ لهم الحقَّ في الرَّحمة كمثل حقِّ الإنسان ، فمَن وجب عليه أن يَرحم مَن هو قادرٌ على أن يدفعَ عَن نفسِه هو الواجبُ عليْه أن يرحمَ مَا لا يقدر على أن يدفعَ عن نفسِه مِن حيوانٍ ونحوِه ، وكلّ ذلك يقيمنا مقامًا لو فقناه ، لأدركنا مبلغ السّوء لِما نحنُ فيه من استعذابٍ لمشاقّة الآخرين والتَّعسيرِ عليْهم وإرهاقِهم وتكليفهم بما لايطاق ، انتصارًا لهوًى أو رغبةً في المغالبة ... وأنكَى ما يكون ذلك حين يكون مِن ولي أمرٍ مِن والدٍ ووالدة ، ومعلِّمٍ ، وأمير ، ورئيسٍ ، ومليك ...

إنَّ الأمرَ جد فظيع .

روى مسلمٌ في كتاب «الإمارة» منْ صَحيحِه بِسندِه : «عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ شُمَاسَةَ قَالَ : أَتَيْتُ عَائِشَةَ أَسْأَلُهَا عَنْ شَيْءٍ ، فَقَالَتْ : مِمَّنْ أَنْتَ فَقُلْتُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ ، فَقَالَتْ : كَيْفَ كَانَ صَاحِبُكُمْ لَكُمْ فِى غَزَاتِكُمْ هَذِهِ ؟ فَقَالَ : مَا نَقَمْنَا مِنْهُ شَيْئًا إِنْ كَانَ لَيَمُوتُ لِلرَّجُلِ مِنَّا الْبَعِيرُ فَيُعْطِيهِ الْبَعِيرَ وَالْعَبْدُ فَيُعْطِيهِ الْعَبْدَ وَيَحْتَاجُ إِلَى النَّفَقَةِ فَيُعْطِيهِ النَّفَقَةَ ؛ فَقَالَتْ : أَمَا إِنَّهُ لاَ يَمْنَعُنِى الَّذِى فَعَلَ فِى مُحَمَّدِ بْنِ أَبِى بَكْرٍ أَخِى أَنْ أُخْبِرَكَ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِى بَيْتِى هَذَا : «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِىَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِى شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ وَمَنْ وَلِىَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِى شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ».[1]

وما جاء من هدي سيّدنا رسول الله ـ صَلّى الله عَليـه وعَلَى آلِه وصحبِه وسلّم ـ في باب الرحمة بالغٌ لا طاقة لي في هذه المقدمة أن أشير إلى نزير منه ، فحقٌّ عليك أن تطعم فؤادك من ذلك ، فإنَّك أن أدمنت استطعامه كان لك من ذلك الخلق في تعاملك مع العالمين نصيبٌ موفورٌ من ذلك الخلق الكريم ، وحقٌّ على كل من ولي أمر غيرِه أن يكون له اعتناء بالغ ببيان ذلك الخلق بلسان حاله ومقاله، ليقيم فيه أن ذلك عمودٌ رئيس من أعمدة شخصيته مسلمًا .

«**الركن الثّالث** : التّسامح يمثلُ سمو صاحبِ الحقّ في علاقته بمن له عليه حقًّا . ﴿ **فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (البقرة:١٠٩) ، ﴿ **فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ** ﴾ (الحجر:٨٥) ، ﴿ **وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي**

---

(١) كم يكون حسينًا أن تقيم نفسَك مستبصرًا ما كتبه شيخنا أبوموسى أعزه الله بطاعته ، وأعزنا ببره ، في فقه هذا الحديث في كتابه «شرح أحاديث من صَحيح مسلم» فإن لك فيه ماليس لك من غيرِه .

سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النور:٢٢) ، ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (الجاثية:١٤)

هذا التسامح يتمثل في أمور عدة منها : العفو عما لك عند الآخرين رحمةً بهم ، ودعوة لهم بلسان الحال إلى ما يحبه الله ـ تعالى ـ ، فتصفح عمن لك عليْه حقّ وثيق ، وقد أمر الله ـ سبْحانه وبحمده ـ سيّدنا رسول الله ـ صلّى الله عَليه وعَلَى آلِه وصحبِه وسلّم ـ بأن يصفح صفحًا جميلا :

يَقُول الله ـ جَلَّ جلاله ـ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ (الحجر:٨٥-٨٧)

في تصدير الآية بالحقيقة الكونيّة : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ ، وبالحقيقةِ العقدية ﴿ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ﴾ من قبل التكليفِ بالصّفح الجميل ، ثُم بالحقيقة العقديّة أيضًا ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ثُم بالمِنَّة العُظمى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ في كلِّ ذلك تثقيف للنَّفس لتتلقَى هذا التَّكليفَ الثقيلَ ﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ تلقّيَ أولي العزم مِن الرّسلِ .

ذلك أنَّ الصَّفحَ الجميلَ ، لايتأتّى إلا بعظيمٍ مِن اليقينِ ، وبعظيمٍ من المُثابرةِ ، ومن الصَّبرِ الجميلِ أيضًا ، فالنفسُ البشريّةُ مَفطورةٌ على أن تَنتقمَ لنفسِها إن كانت من نفوسِ الدَّهماءِ ، أو تنتصرَ للحقّ الذي هي عليْه إن كانت مِن نُفوسِ الأنبياءِ والعلماءِ والأولياءِ ، وكلّ تقِيّ وليٍّ لله ـ تعالى ـ .

وجمالُ الصَّفحِ المأمور به ، هو الصّفح الآتِي مِن قوّة نفسِيّة وقوّة واقعيّة ، وليس صَفحُ العَجزةِ والضُّعفاء ، هو الصّفحُ الذي كان مِن النبيّ ﷺ يومَ



الفتح : حين أطلقهم ، ولم يعاقبهم ، وكان بِمَلكِه ـ صَلّى الله عَليْهِ وعَلَى آلِه وَصحبه وَسَلّمَ ـ أن يقطعَ الأعناقَ ولا ملامةَ عليْه ، ولكنّه الحكيمُ ، والنّازلُ على ما أمرَه به الله ـ تعالى ـ ، والعليمُ بأنَّ فعلَ الصَّفحِ فيهم وفيمن يأتِي مِن بعدُ أعظمُ وأنجعُ مِن فعلِ الانتصارِ في كلِّ منازلةٍ من منازلاتِ الحربِ .

هُو صَفحٌ جميلٌ من أنَّه خارجٌ مِن فتوَّة نفسِيَّةٍ وقوةٍ عمليّةٍ ، وهُو صَفحٌ جميلٌ من أنّ أثرَه الجليلُ الجميلُ لا يُطاولُ .

والصّفحُ الجميلُ سجيّةٌ مِن سجاياه ﷺ ، روَى البُخاريُّ في كتاب (التَّفسير) مِن صَحيحِه بسندِه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ الَّتِى فِى الْقُرْآنِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (الأحزاب:٤٥) قَالَ فِى التَّوْرَاةِ : « يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَحِرْزًا لِلأُمِّيِّينَ ، أَنْتَ عَبْدِى وَرَسُولِى سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ وَلاَ سَخَّابٍ بِالأَسْوَاقِ وَلاَ يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا ». (حديث رقم : ٤٨٣٨)

وقد جعل الصفح عمن أساء من أفضلِ الفضائل ، لأن في هذا دفعٌ للسيئة بالحسنة كما أمر كتابُ الله ﷻ :﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ (فصلت:٣٤)

روى أحمدُ بن حنبلٍ في مسنده من حديث معاذ بن سهلٍ رضي الله عنه بسنده عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « أَفْضَلُ الْفَضَائِلِ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ وَتُعْطِىَ مَنْ مَنَعَكَ وَتَصْفَحَ عَمَّنْ شَتَمَكَ ». (حديث : ١٦٠٢٣)

فالصَّفحُ عَن مَنْ أَسَاءِ ، ودفعُ السَّيئةِ بالحَسنةِ عاملٌ عظيمُ الأثرِ فِي تَحقيقِ مُجتمَعٍ متماسِكٍ متراحِمٍ ، عمود العلاقة فيه بين الناس الصفح والتسامح واتساع الصدور .

روى البخاريّ في كتاب (البيوع) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى الله وسلم عَلَيْهِ وعَلَى آلِه وَصحبه - قَالَ: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى».

وروى مسلم في كتاب «المساقاة» بسنده عَنْ أَبِى مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى الله وسلم عَلَيْهِ وعَلَى آلِه وَصحبه -: «حُوسِبَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ شَىْءٌ إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَكَانَ مُوسِرًا، فَكَانَ يَأْمُرُ غِلْمَانَهُ أَنْ يَتَجَاوَزُوا عَنِ الْمُعْسِرِ؛ قَالَ: قَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ تَجَاوَزُوا عَنْهُ».

وروى مسلم في كتاب «الذكر والدّعاء والتوبة» من صَحيحه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى الله وسلم عَلَيْهِ وعَلَى آلِه وَصحبه -: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِى عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِى عَوْنِ أَخِيهِ ...».

وروى أحمد في مسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى الله وسلم عَلَيْهِ وعَلَى آلِه وَصحبه -: «اسْمَحْ يُسْمَحْ لَكَ».

ونحن في زماننا أحوج ما نكون إلى خُلُقِ التّسامح عند الاقتدار والعلوّ، نجتهد فتيًّا في الإمساك بحقوقنا، فإن حلتْ في أيماننا كميلة بذلنا للآخرين رحمةً وتسامحًا، وما بذلنا جُهدنا واجتهادنا في تحصِيل حقوقنا، والإمساك بها كيما لا نهوِي في درك الاستضعاف، والاستذلال.

ولسان حال المسلم يجهر في وجه الآخرين:

وَلِينَا فَكَانَ العَفْوُ مِنَّا سَجِيَّةً   فلمَّا وَلِيتُمْ سَالَ بالدَّمِ أَبطَحُ



فَحَسْبُكُمْ هَـذَا التَّفَـاوُتُ بَيْنَنَـا ... وَكُـلُّ إِنَـاءٍ بِالَّـذِي فِيـهِ يَنْضَـحُ

إنَّ شأنَ النّبلاء ـ وكلُّ مسلم حقًّا نبيلٌ ـ ألا يستوفِي حقه ممّن عليْه له متى قدر على الاستيفاءِ ، فالعفو عند المقدرة هو عمود الأمر في كلِّ حياةِ النّبلاء .

ويجمع ذلك كلّه ما دعا إليْه الإسلام من «الإحسان» في الكتاب والسنةِ :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (البقرة:٨٣) ، ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (النساء:٣٦-٣٧)، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل:٩٠)

روى مسلم في كتاب «الصّيد والذّبائح» من صَحيحه بسنده عَـنْ شَدَّادِ ابْنِ أَوْسٍ قَالَ : ثِنْتَـان حَفِظْتهمَـا عَـنْ رَسُول اللَّـهِ ﷺ قَـالَ : «إِنَّ اللَّـهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الـذَّبْحَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ».

وقـد جـاء فـي خمسـة مواضـع تقرير أنّ الله ـ تعالى ـ يحب المحسنين :

﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة:١٩٤-١٩٥) ، ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ

عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٣-١٣٤) ، ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران:١٤٨) ، ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة:١٣)، ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة:٩٣)

والإعراب بقوله : (إن الله يحبّ ...) فيه من التّرغيب في الإحسان ما يستفز المرْء إلى المسارعة إلى محبوب الله ـ سُبْحانَه وتَعالَى ـ ، فذلك شأن المحبين : الإسراع إلى ما يحبه المحبوبُ ، فمن رغب فيما يحبُّ الله ـ تعالى ـ كان له من الله ـ تعالى ـ مثل ما كان منه معه جَلَّ جلاله .

ألا ترى إلى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (البقرة:١٥٢) جعل جزاء ذكرالعبد ربّه ـ تعالى ـ ذكره جَلَّ جلاله له ، فتبصَّر ما بين الفعل والجزاء عليه ، لترَى بَوْن ما بينهما ، وكذلك الإحسان محبوب الله ـ تعالى ـ من اقترفه مرضاة لله ـ تعالى ـ كان له منه النَّصيب الأوفَى .

فالإحسان يتجاوز فيه المرء تحقيق العدل المتمثل في الوفاءِ بالحقوق إلى مستوى أن تبذل فوق ما يتصوّر المرء أن يكون له منك إفضالا عليْه .

فأوّل درجات الإحسان أنْ يتجاوز المرْء مستوى أن يعامل النّاس بما يستحقّون إلى أن يعاملهم بما يحب أن يعاملوه به ، كما جاء في ما رواه مسلم في كتاب الإمارة بسند من حديث عَبْد اللّهِ بْن عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما أن رسول الله ـ صَلَّى الله وسلم عَلَيْهِ وعَلَى آلِه وَصحبه ـ قال : «... مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِى يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ ...».

وشرفُ الإحسانِ أن يعامل الناسَ بما يحب أن يعامله الله ـ تعالى ـ به ، وكل يحب أن يعامله الله ـ تعالى ـ بفضله وإحسانه لا بعدله ، فالأصل المكين في الإسلام ما رواه الترمذي في كتاب « الزهد » في جامعه بسنده من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا ... ».

وروى أحمد في مسنده بسنده من حديث خَالِد بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ قال حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ جَدِّي أَنَّهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَتُحِبُّ الْجَنَّةَ ؟ ». قَالَ : قُلْتُ : نَعَمْ . قَالَ : « فَأَحِبَّ لأَخِيكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ ».

وروى أحمد في مسنده بسنده عَنْ زَبَّانَ عَنْ سَهْلٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ أَفْضَلِ الإِيمَانِ قَالَ : « أَنْ تُحِبَّ لِلَّهِ وَتُبْغِضَ لِلَّهِ وَتُعْمِلَ لِسَانَكَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ ». قَالَ : وَمَاذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « وَأَنْ تُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ ، وَتَكْرَهَ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ ».

فكيف بالذي يعامل الناسَ بما يحبّ أن يعامله الله ـ تعالى ـ بِهِ ؟

روى البخاري في كتاب « البيوع » من صَحيحه بسنده عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « كَانَ تَاجِرٌ يُدَايِنُ النَّاسَ ، فَإِذَا رَأَى مُعْسِرًا قَالَ لِفِتْيَانِهِ تَجَاوَزُوا عَنْهُ ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا ، فَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُ ».

وروى أبو داود في كتاب « الأدب » بسنده عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَجْلاَنَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ أَبِي ضَمْضَمٍ ». قَالُوا : وَمَنْ أَبُو ضَمْضَمٍ ؟ قَالَ : « رَجُلٌ فِيمَنْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ ». بِمَعْنَاهُ قَالَ « عِرْضِي لِمَنْ شَتَمَنِي ». (قال الألباني : « ضعيف مرسل »)

وهو وإن كان ضعيفًا مرسلاً فإنَّ معناه نبيلٌ فعيلٌ في توثيق الحُسنى بين النّاسِ

هذه القيمة العليا : «العدل ، والرّحمة ، والتّسامح» إذا ما بينت للناس وعملت بلسان الحال والمقال ، وجعلت أساس العلاقة بينهم على تعدّدها وتنوعها ، ولا سيما العلاقة بين الزوجين ، وبين ولي الأمر بدءًا من الأب ، والمعلم إلى رئيس الدولة ومن ابتلي بالولاية عليْهم ، فإنَّ هذه الأمّة تكون مؤهلةً لأن تكون خيرَ أمّة أخرجت للنّاس .

أما إذا قامت العلاقة بين النّاس على أساسٍ من الظّلم والتفّنن فيه ، والتّفاخر بِه ، والمشاقّة على ما تراه عينك ، وتسمع أذنك ، والفتنة بينهم وتصنيفهم سياسيًا شرفاء وأشرار ، وطنيين وخونة عملاء ، فإنّ الفناء هو العقبى لها.

روَى مسلمٌ في كتاب «الفتن وأشراط السّاعة» من صَحيحه بسندِه عَن عَامِر بْن سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِى مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ وَصَلَّيْنَا مَعَهُ ، وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلاً ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا فَقَالَ ﷺ : «سَأَلْتُ رَبِّى ثَلاَثًا فَأَعْطَانِى ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِى وَاحِدَةً سَأَلْتُ رَبِّى أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِى بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِى بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا».

ولاَ يكون البأس شديدًا بيْن أبناء القوم إلاّ إذا كان عمود أمرهم النّفاقَ ، يقول الله ـ سُبْحانَه وَتَعالَى ـ في شأن المنافقين ﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (الحشر:١٤)

هدَى سيّدنا رسول الله ـ صَلّى الله عَليه وعَلَى آلِه وصحبِه وسلّم ـ إلى ما تُؤتَى الأمّة من قبله ، وفي هذا من تحذيرها ممّا يستذلها رأفة منه ﷺ بها ، وكان حرًى بالأمة أن تجعل ذلك نصب عينيها ، فلا يكون أبناؤها في كلّ تجمعاتهم بدءًا بالأسرة وما فوقها بأسهم بينهم شديد .

وكـأنّي بأعداء هذه الأمة هم أكثر يقينًا بصدق ما أنبأ به رسُول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلّم ـ ، فاجتهدوا في تحقيق أن يكـون بـأس هـذه الأمّـة بينها شديدًا مديدًا ، فأعانوا عليها من أبنائها من اتخذ الفتنة بين الناسِ منهاج حياةٍ ورسالة وجـود ، فمـا يُحسـن في الحيـاة كمثـل مـا يُحسـن الخديعـة ، والفتنة ، والتفريق ، فلا يبقِي واحدًا إلى واحد إلا في الشّرّ ، فنزع من النّـاسِ نعمة الأمن النّفسيّ ، وبات الزوجان متوجّسًا كلٌّ من الآخر إلا إذا جمعتْهمـا صناعة الشّر ، ومناصرة الباطل ، وبـات الأب والأبنـاء يتـوجس بعضـهم مـن بعضٍ ، لا يأمن أحدهم بوائق الآخر ، وبمثل هـذا تتهـاوَى الأمـم ، وتمحـق الحضارات .

روى مسلمٌ في كتاب (الإيمان) من صَحيحه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ».

وفـي روايـة لأحـمـد فـي مسـنـده بسـنـده عَـنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «لاَ وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ لاَ وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ لاَ وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ». قَالُوا وَمَنْ ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : «جَارٌ لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِـقَـهُ». قِـيـلَ : وَمَا بَوَائِقُهُ ؟ قَالَ : «شَرُّهُ».

أوَ ليس ذلك هو الذي أنت وقومك قائمون فيه صباح مساء ؟

أو أنت ممّن قال فيه رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذي في كتاب «الزّهد» من جامعه بسنده عَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْـدِ اللَّـهِ بْـنِ مِحْصَـنٍ الْخَطْمِـىِّ عَـنْ أَبِيـهِ ، وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ : «مَـنْ أَصْبَحَ مِـنْكُمْ آمِنًـا فِـى سِرْبِهِ مُعَافًى فِى جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّـمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا».

أآمِنٌ أنـت في سـربك لا تخشـى بوائـق جـارك ، وأهلـك ورئيسـك في عملك ، وصاحبك في طريقك ؟

أأنت معافًى في بدنك وعقلك وقلبك ؟ أعندك قوت يومك حلالاً طيبًا؟

إذا ما تبين لك الدّاء فقهت الأمر ، فإنّ تعيّنّ الدّواء وتحقيق الشفاء بإذن الله ـ تعالى ـ عليك يسيرٍ ، فهل لنا أن نعمل على أن نقيم علاقتنا ببعضنا على اختلاف عقائدنا ومواقعنا الاجتماعية في هذه الحياة على تحقيق القيمة العليا في الإسلام : العدل ، والرّحمة ، والتسامح ، وهل لنا أن نبدأ بتحقيق ذلك على مستوَى العلاقة بين الزّوجين والوالدين والأبناء ، ثمّ ننشر ذلك في الإنسانية جمعاء .

ليس ذلك أمرًا عصيًّا تحقيقه إذا ما كان القصد صفيًّا والعزم فتيًّا ، وإن كان تركه أو التقصير فيه جدَّ مبيرٍ . ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور:٦٣)

هذا الكتاب في طبعته الثّانية المزيدة المنقّحة يسعَى إلى أن تقوم الحياة بين الرّجل والمرأة زوجين في مبدإ الأمر على هذه القيمة العليا في الإسلام : العدل ، والرّحمة ، والتّسامح ، وأن يكون ذلك شأن الأمّة كلّها فيما بينها ، فيكون لِي ولِمن أعانني عليْه من المثوبة ما لا ينقطع أبدًا .

روى التّرمذيّ في كتاب « العلم » من جامعه بسنده عَنْ أَبِى أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ ﷺ قَالَ : ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالآخَرُ عَالِمٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِى عَلَى أَدْنَاكُمْ ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّى النَّمْلَةَ فِى جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ ».

وروى مسلمٌ في كتاب « الوصية » من صحيحه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ : إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ ».

تبصّر كيف جعل العلم النفيع نهرًا يدفقُ بالحسنات في صحائفك وأنت في مسيرك في هذه الحياةِ الدّنيا ، وأنت في مصيرك من بعد رحيلك عنها إلى الآخرة .

وإذا ما كان من هدي النبوّة ما رواه الشّيخان عَن سيّدنا رسول الله ـ صَلّى الله عَليـه وعَلَى آلِه وصحبِه وسلّم ـ بسندهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا ، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا». (البخاري : الجهاد ، ومسلم : الإمارة)

ولو فقه النّاس ذلك لما كان لأحدٍ إلا أن يكون واحدًا من اثنين ، أن يكون هو نفسه عالمًا ، أويكون معينًا من سيكون عالمًا .

والله ـ تعالى ـ أسأل أن يجعل عملي هذا نهرًا يدفق بالحسنات في صحائفي ،وصحائف من أعانني عليْه ولو بدعوةٍ بظهر الغيب إلى يوم الدين، إنه ولي ذلك والقادرُ عليْه .

اللهم صلّ وسلّم وبارك على عبدك ونبيّك ورسولك سيّدنا محمّد وعلى آلِ وذريته وأزواجه وأصحابه وورثته من أهل العلم وأمته كما تحب ربنا وترضى ، والحمدُ لله ربّ العالمين؟

الأحد : الثّاني من شهر الله المحرم عام : ١٤٤١هـ .
الأول من شهر سبتمر سنة ٢٠١٩م

وكتبه

محمود توفِيق محمد سعد

القاهرة : مدينة الشروق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾

(الفاتحة: ٢-٤)

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٨)

اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارك علَى سيِّدنا مُحَمَّدٍ وَعلى آلِه وأَزْوَاجِهِ وذُرِّيَّتهِ وأصحابِه وورثتِه من أهلِ العلم ومن تبعَه بإحسانٍ إلى يَومِ الدِّين ، كَمَا صَلَّيْتَ وسلَّمتَ وباركتَ عَلَى سيدنا إبراهيمَ وعلَى آل سيِّدنا إبْراهِيمَ عددَ خلقِك ، ورِضَاءَ نَفسِك ، وزِنةَ عرشِك ، ومِدادَ كلِماتِك ، كما تحبّ ربّنا وترضَى إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

أمَّا بعد ، فإنّ ممّا تموجُ به الحياةُ فِي عِصرِنا هذا ما يَعتري العلاقةَ بيْن الرِّجال والنِّساءِ مِن تَضليلٍ يستثمر لإيقاعِ داءِ الفُرقةِ البغيضةِ المُبيرةَ الحالقة ، وتثويرِها بيْن أبناءِ الأمّةِ الإسلاميّةِ في أضيقِ وحداتها التّكوينيّة (الأسرة) ، لما يعلمُ القائمون على استشراءِ هذا الدّاء فِي الأمّةِ منْ أنّه السَّبيلُ الأوحدُ

للإتيانِ على أمّة الإسلامِ من الثّغر الّذي لا سواه ، وكأنّهم آمنُوا أكثرَ مِن كثير من أبناءِ الأمّةِ أنفسِهم بما رواه مسلمٌ في كتابِ (الفتن وأشراط السّاعةِ) بسندِه عَنْ أَبِي قِلاَبَةَ عَنْ أَبِي أَسْمَاءَ عَنْ ثَوْبَانَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صلّى الله عليْه وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّمَ ـ : « إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِىَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِى سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِىَ لِي مِنْهَا وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لاَ يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ ، وَأَنْ لاَ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً ، فَإِنَّهُ لاَ يُرَدُّ ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لاَ أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ ، وَأَنْ لاَ أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا ـ أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا ـ حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا ، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا » .

وفي رِواية عند التّرمذي : « وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَمَنَعَنِيهَا » . وأخرى عند ابن ماجه « وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَرَدَّهَا عَلَيَّ » .

كأنّي بالذين كرهِوا ما أنزل الله سُبْحَانَه وبِحَمْدِهِ ، وما أسْداه من الهُدَى على لسانِ رسُوله سيّدنا مُحَمَّدٍ صلّى الله عليْه وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّمَ قد أيقنوا بهذا النّبأ النبويّ ، بَيْنا أبناءُ الأمَّة الإسلاميّة عامة والعربية خاصّة ، والمصريَّة على وجه أخصّ لم يلتفتوا إليْه ، وكأنَّه إنباءٌ لغيرِهم .

أيقن أعْدَاءُ الأمّة بأنَّ الثّغرة التي ينفذُون منها إلى سويداءِ قلبِ هذه الأمّةِ إنّما هي إقامَة داءِ البغضاءِ والتّفرقِ والتّناحر بيْن أبنائِها في أمورِ دنياهم ، لا في أمرٍ مِنْ أُمورِ دِينِهم ، لأنّهم يعلمُون عِلمَ يقينٍ أنَّ دينَهم « الإسلام »

يجمعُ ولا يفرّق ، يُوحّدُ ولا يشتِّتُ ، يُطهّرُ القلوبَ ولا يُدنّسها ، يُنير العقُولَ ولا يُظْلِمها ، يُصفّي النّفوسَ ولا يعكّرهـا ، ومـنْ ثَـمَّ تكـاثرت المُنظَّمـات المَدنيّة الّتي اتّخذَت ما أسمته حقوقَ «المرأة» و«اضطهاد النّساء» و«العنف ضدّ المـرأة» و«ذكوريّـة الحيـاة»... إلخ مجـالاً تعيثُ فيـه بعوامـل الفُرقـةِ والتَّعاند ، وبعوائقِ الاتحـاد والتحابـب ، علـى نحـو مـا أنـت تبصـره عينـك وتسمعه أذنك ، ولا سيّما في هذا العقد من الزّمان ، وهي تنطلقُ في كلٍّ هذا مِن رصْدِها حركة الحياةِ الخارجَة عَمَّا هدَى إليه بيانُ الـوحي قُرآنًـا وسنّة ، رصدَتْ ما يجري في معترك الحياةِ بيْن الرِّجال والنّساءِ من اختلافٍ يشتدُّ ، فيبلغُ ذِروة الخِلاف ، ويشتدُّ الخلافُ فيبلـغُ ذِروَةَ الصّـراع ، وتكسِيرَ العِظـام وسحقَ الكرامةِ ، كلّ ذلك يَجري ، وكأننا أمّة خلَّى خالقُها بيْنها وبيْن عقلِها ، ولم يُرسِـل إليهـا رسُـولاً هـو أجـلّ خلقِـه قاطبـةً ورسلِه خاصّـة ، وأرأفُهـم وأرحمُهم ، وجعل إرسالَهُ رحمةً للعالمين ، وأنزلَ عليْه أعظمَ كتبِـه قاطبـةً ، وأقامَ فـي هـذا الكتاب النّور ، وفي سنة هذا النّبي العظيـم الـرّؤوف الـرّحيم صـلّى الله عليْــه وعلَــى آلِـه وصَـحبِه وسـلّمَ حَـلاً لكـلّ مُعضـلةٍ سياسيّةٍ أواجتماعيّةٍ أو اقتصاديّة أو أخلاقيّة . . . وأقام فيه منهاجَ الوقاية من الأضـرار الحسيّةِ أوالمعنويّة ، ومن ردّ ذلك أو تردّد في أنـه الحق المـبينُ ، أو توقـف فهو الظلوم الجهولُ ، فكيف بالّذي يقـتلُ أو يعتقلُ من يعتقدُ ذَلِك ويقُولُ بـه ويدعُو إليْه ؟!!!

ذلِك أنَّ الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ يقول عن كتابه : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقـرة:٢) ، ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝١٣٨ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٨،١٣٩) ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(يوسف:١٠٨)، ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ

مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ (الأنعام:١٠٤) ﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف:٢٠٣) ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

(الجاثية: ٢٠)

وسيّدنا رسولُ الله ـ صلّى الله عليْه وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّمَ ـ يقولُ فيما رواه مسلم في كتاب (الحجّ) بسنده عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ـ رضِيَ الله عنهما ـ « ... وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابَ اللَّهِ . ».

وفي رواية عند الدّارقطنيّ في سننِه والحاكمِ في المُستدركِ ، والبيهقيّ في السّنن الكُبرى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضِيَ الله عنه ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : « خَلَّفْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا : كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّتِي ، وَلَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ »

ومثله عند البيهقيّ في سننه بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ فِى حَجَّةِ الْوَدَاعِ فَقَالَ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ » . (وصحّحه الألبانيّ في صحيحِ الجامعِ الصّغير)

تجاهلتْ هذه المُنظمات المدنيّة في ديارنا أنَّ في الأمّةِ كتابًا وسنةً ، وسعَتْ هَذِهِ المنظّماتُ إلى ابتداعِ أساليب معالجة الأزمات المتفاقِمة بيْن الرّجال والنّساء في مجالات الحياة ووحداتِها التكوينيّة عامّة ، وفي وحدة « الأسرة » خاصة ، غير ناظرة إلى ما في كتابِ الله سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ، وسنة رسُولِه صلّى الله عليْه وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّمَ ، لِما تراه هذه المنظّماتُ من تاريخيّة ما في بيان الوحي ، وأنّه كان لحقبةٍ زمنيّة مضَت ، ولبيئةٍ صحراويّةٍ قاحلةٍ أرضًا وعقلاً ، لا تصلحُ لهذا العصر ، ولهذا المِصر ، فقد ذهب واحدٌ

من كبارهم إلى أنّ القرآن «لمْ يشرّع إلا التّشريعَ الّذِي يكفلُ حياةَ أمّةٍ واحدةٍ هِي أمّة العربِ فِي زمنٍ واحدٍ هو زمن الرّسولِ ـ عَلَيْهِ السلام ـ»[1]

ولو أنّ هذه المُنظّمات تجرّدت مما يتغورّها ، وما يتغلّفها ، وألقتْ ببصرِها في كتاب الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ لَوَجدت فيه سورتَيْن تنظّمان هذه العلاقة بيْن الرّجالِ والنّساءِ على نحْو لن يجلوا له شبيهًا البتَّة عدلاً ورحمةً ،

السّورةُ الأولَى : تُعنَى بتأسيسِ بناءِ الأسرةِ على مِنهاجٍ عمادُه العَدلُ والرّحمةُ ، وهذان : العدلُ والرَّحمةُ هما القِيمةُ العُليا للإسلام ، وما خَلا مُجتمعٌ منهما صغيرًا أو كبيرًا إلاّ كان إلى الزَّوالِ الحِسِّيِّ والمَعنويِّ أقربَ ، وما أقيم مجتمعٌ عليهما إلا كانت له العزّة في الدّنيا ، فإن كان مسلمًا كانَتْ له العزّة في الدّنيا والسّعادةُ في الآخرة .

والسّورةُ الأخرى : تعالجُ مُعضلة التّنازع والمشاقّة بيْن الزّوجين ، وتقيمُ الحلّ الأمثلَ لهذه المُعضلة مثلَما أقامت الأولى أصولَ منهاجِ بناءِ الأسرةِ على أساسٍ من العدلِ والرَّحمة فكان ما بيْن السّورتين تكاملاً ، ولذا سُمّيت السّورة الأولَى «سُورة النّساء الكبرَى» وسميتْ الأُخرى «سورة النّساءِ الصّغرَى» وهي الّتي تعرفُ بسورة «الطّلاق»

لَو أنّ هذه المُنظماتِ المدنيّة ، تدارسَتْ بوعي نافذٍ محيطٍ ومتجرّدٍ من العَصبيّة والهَوى والتّرصّد والولاءات السّياسيّة والمطامع الدّنيوية ، لرأتْ أنَّ في هاتين السّورتَين ما يقيمُ البيتَ المسلمَ على أساسٍ من العدلِ والرّحمةِ ، ولرأتْ ما يُعالج مُعضلاتِ العلاقة بيْن الرّجال والنِّساء في الحياة عامة ، وفي محيط الأُسرةِ خاصّةً ، هذا علاوة على ما في سائر سور القرآن ، ولاسيما سورة «البقرة» من آيات تعالجُ كثيرًا من قضايا العلاقةِ بيْن الرّجالِ والنّساءِ .

---

(١) نحو ثورة في الفكرالديني ، محمد النويهي ، سلسلة الفكر ـ مكتبة الأسرة . ٢٠١٠م الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ، ص١٢٧ .

لو أنّنا جعلنا مِن مؤهلاتِ الإقدامِ على تأسيس أسرة مسلمة أن يتدارسَ بعزمٍ مَنْ أرادا الزّاوج : الفتى والفتاة سورة «النّساءِ» وسُورةَ «النّور» وسُورة «الحجرات» وسورة «الطلاق» دراسة معمّقة واعية محكمة ـ ، لو أنّا فعلنا لكنّا قد قدّمنا لهما يدَ العونِ في تأسيس هذا البيتِ المُسْلِم ، ويدَ العَون في العرفانِ بعواملِ البناءِ والهدمِ للأسرةِ المُسلمةِ ، والعرفانِ بسبل استطبابِ ماينشبُ بينْهما في أيِّ جانبٍ من جوانبِ الحياة ، ولتيسَّرت سبلُ الزّواج ، وانقَشعت العنوسةُ عَن المجتمع .

ولَمَّا كان بيانُ هذا ضُرورةً في شِرعة تبيين الهُدى ، وكان المقامُ لا يتسعُ لِصناعةِ القولِ المُتبصّر المُحكِم في هذه السّور الأربع ، آثرت أن أستفتحَ القولَ في آياتٍ من سورة «النّساء» رأيت أنّها فاتحة تَمهيديّة للقولِ الأوسع في علاقة الرّجالِ بالنّساء في ضوءِ بيانِ الوحي .

وممّا يحسن أن ألفت إليه أن الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ جعل رأس المعنى في سورة «التغابن» قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (التغابن: ١٤-١٨)

وإيراد هذه الآياتِ في رأسِ المعنَى القُرآنيٍّ وذروتِه وشرفِه في سورة سميتْ سورة «التّغابن» ، هادٍ إلى أنَّ في هذه الآياتِ معالجةً لما قَد يَقعُ من

التّغابُن بيْن الرّجـالِ والنّسـاءِ في فسطاط «الأسـرة» ، ولعلّـي ـ إنْ شـاءَ الله تعالى ـ أُفردُ هذه الآيات من سورة «التغابن» بجزءٍ أنثُرُ فيه بعضَ مكنوزِهـا من معـاني الهـدى علـى ما يُعـين الله تعـالى عليـه ، فهـو سُبْحَانَه وَبِحَمْـدِهِ المستعان على طاعته .

والّذي هو بيّنٌ عند كلِّ طالبِ علـمٍ جـادٍّ أنَّ نصـوص بيـان الـوحي قرآنًـا وسنةٍ لم تَعرِض عرضًا تفصِيليًا لكلِّ حالةٍ جزئيةٍ تقـعُ في حيـاةِ العِبـادِ إلى قيامِ السَّاعةِ ، وإنّما قام فيها ما يمكن لأهلِ العلمِ ذوِي الحِكمَة وسياسةِ العلمِ أنْ يبصِروا بنورِ ما جاءَ نصّه في بيانِ الـوحـيِ ، فيقضُوا فـي كـلِّ حـال بـما لا يناقض ما جـاءَ فـي بيانِ الوحْي ، فبيـانُ الـوحْـي قُرآنًا وسنةً بيـانٌ ثابتٌ لا مزيدَ فيه ولا تغييرَ بعدَ انقطـاعِ الـوحي ، والحيـاةُ تَتغيَّـرُ وتتجـدَّد بتنـوّع الأمصارِ وتجدُّد الأعصارِ والأحوالِ ، فكان للأعيانِ مـن أهـلِ العلـمِ الأثبـاتِ الرَّاسِخِين فيه أن يُبصروا الحقَّ والخيرَ والعدلَ والرَّحمةَ لكلِّ حالةٍ جزئيةٍ في نُورِ ما جاء فِي بيانِ الوحْي ، ومِنْ ثمَّ كانتْ الحاجةُ بالغةً إلى الأخذِ بِما جاءَ به الخلفاءُ الرَّاشدون ، وفُقهاءِ الصّحابة ، وما جـاءَ بـه الأعيـانُ مـن التَّـابعين ، والأثباتُ الثقاتُ مِنْ علماءِ الأمّةِ ، ولكلِّ عصْرٍ ومصْـرٍ أعيـانٌ مِـن العلمـاءِ ، فليْس حسنًا أن يَقضِي عالمٌ فِي مصْر في قرنٍ مضَى في واقعةٍ تقعُ اليـومَ في أرضِ العراق ، وإنما يسترشـدُ بمنهجِـه في النّظـر والتلقّـى ، فـإنَّ لكـلِّ قطـرٍ أعيانًا من العلماء أعرف بواقعِ حياتِهم ، ولكلِّ زمان أعيانٌ من العلمـاءِ ذلـك الزّمانِ ، وهُم جميعًا على اختلاف أعصارِهم وأمصارِهم لا يَخـرجـون فـي ما يعالجون به شؤون العبادِ وأحوالهم ، وما استحدِث لهم عن ما جاء بِه بيانُ الوحي ، فلا يصدُر منهم ما يعـارِضُ الوحْي في شـيْءٍ ، ولا سيَّما مـا كـان قطعيّ الدَّلالةِ ، أوْ كانت دلالته عليّةً راجحة ، وقد كان الإمامُ مالك بن أنـسٍ

إمامُ أهلِ المدينة النَّبويّةِ لا يفتِي أهل المغربِ فِي حوادثَ وقعتْ فِي ديارِهم ، وكانَ يُحيلُهم إلى علماءِ مِصرِهِمْ ، وكذلِك يُنسبُ إلى الإمام أَحمد بن حنبل أنّه لمْ يكُن يتكلّمُ في ما لمْ يقع ، ويُرجِئ القولَ فيه إلَى وقوعِه ، لِيسترْشد بحالِ زمانِ وقوعِه ، ومكانِه ، وظروفِ أهلِه ، وهذا من جليل فقه الأئمة . وكذلك فعل الإمام مُحمّد بن إدريس الشافعيّ لمَّا جاء إلى « مصرَ » عام (١٩٩هـ) لم يحملْ أهلَه على ما كان قد أنتجَه نظرُه في بيانِ الوحْي في سياقِ الحياة في « العراقِ » على أهلِ « مصر » ، بل أعادَ النَّظر في بيان الوحْي في ضَوءِ سياقِ حركة الحياةِ في « مصرَ » ، وهو ما يُعرف بيْن طلابِ العلمِ بـ« المذْهبِ الجديد » وهو حتمًا لمْ يذهبْ في الجديدِ إلى تحريمِ ما كان قالَ بحلِّهِ في « العراق » ، ولابحرمة ما كان قد حرّمه هناك ، فهذه القطعيات ثابتةٌ ، وإنّما نظر فيما استحدثته الحياة في مصرَ ، في سياقات اجتماعيّة مخْتلفة عنْ تلك التي كانتْ في سياقِ حركةِ الحَياةِ في « العراقِ » ، فلا يستقيمُ البتة أن نأخذ تشريعات ما يُعرف بالأحوال الشَّخصية في العلاقات الزّوجيةِ والأسريّة التي تجرِي في قطر إسلامي لنُنزلها حرفيًّا على أهلِ قطرٍ آخر ، بل لنا أن نسترشد بصنيعهم ، وأنْ نتعلّم منهم في مراعاة ظروفِ الحياة زمانا ومكانًا ، بل إنّك لو نظرت في واقِع العلاقةِ بيْن الزَّوجين في أقصَى صَعِيد مصر ولاسيّما في القبائل العربية فيه ، لوجَدت فيه ما يختلفُ اختلافًا بيّنًا عمَّا يجرِي بيْن الزّوجين في الإسكندرية مثلاً إذا كانا من أصولٍ غير قبيلّية مع اتفاق العصْر والمصر .

فليس من حكمةِ المُفتِي أن يفتي ، ولا القاضِي أن يقضِي في واقعةٍ بين زوجيْن من أقْصى الصعيدِ بما يقضِي به بيْن زوجيْن في « القاهرة » وهما من طبقة اجتماعية « متحررة » ، فلكلّ طبقة اجتماعيّة أعرافُها الّتي قد تَكون فيها

الأحداث ممّا لا تطاقُ ، بينْما هي في أعرافِ طبقة أُخرى ممًا لا يلتفتُ إليْهِ . فالحكمَةُ تقضِي مراعاة ذلك إلاّ في ما هو مقطوعٌ بِحرمتِه . ذلك هو جوهرُ هذا الدّين العدل والرّحمة .

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ (البقرة:١٨٥)، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾

(النساء:٢٦-٢٨)

وهذا يبيّن لك أنَّ الذين قالوا إنَّ حاجة الأمّة إلى أقوال الصّحابة ، والأخذ بالقياس والإجماعِ والاستحسان دليلٌ على أنّ الوحي لم يأتِ بكلّ الشرع ، إنما هو قولٌ لايخلو من واحد من أمرين :

إمّا أن قائله موغلٌ في الجهالةِ ، أو هو عالمٌ بأنّه من مستنقع «التّدليس» ويريد أن يهوّشَ به على العامةِ ، وأشباه العامة من الذين يقرؤون بنصفِ عين ولا يتعدّى ما يقرَؤون عيونهم ، فهو حرامٌ على عقولِهم أن يلامسها ما نظرته نصف العين فضلاً عن أن تعملَ فيها ، وأولئك في الدّيار كثير ، ولهم الصّوتُ الأعلى ضَجيجًا في وسائل «الإعلان والتّوصيل».

لم يقلْ أحدٌ من أهل العلمِ وطلبتِه إنّ بيانَ الوحْي قرآنًا وسنَّة فيه نصٌّ قطعي الثبوتِ قطعي الدّلالة في كلِّ نازلةٍ من نوازل الحياة في كلّ عصرٍ ومِصر ، لم يقل أحدٌ إنّ فيه نصًّا قطعيَّ الثبوت ، والدلالة على حكمِ «التّأمين التّجاري»، أو «استئجار الأرحام»، أو «التبرع بالأعضاء»، أو «التّورق»، أو «الإيجار التمليكي» ، أو إبرام العقود التّجارية المستحدثة ، أو بيع الذهب والفضة ، أو النكاح ، أو الطلاق عبر ما يعرف بالشبكة

العنكبوتية ، أو الهاتف المرئيّ أو نحو ذلك ممّا استجد في هذه العقود ، لم يقلْ أحدٌ ذاق طعم العلمِ إنّ بيانَ الوحي قرآنًا وسنة قد قطعَ القول في هذا ، وكذلك الأمرُ فيما يتعلق بالعَلاقاتِ بيْن الزّوجين ، قد استحدثت وقائع للأعيان الأثباتِ الثقاتِ من أهلِ العلمِ ذوي الحكمةِ والبصيرةِ والرّسوخ أن يسْتحدثوا النّظر فيها في ضوء ما جاء في بيانِ الوحي قُرآنًا وسنة ، وتلك رسالة ورثة الأنبياء .

مُحصَّلُ القولِ إنَّ كثيرًا مِن مُحدثاتِ العلاقةِ بيْن الرّجلِ والمرأةِ عامّة ، وبيْن الزَّوجيْن خاصّة قد كثرَ اللّغط والغلتُ فيها ، ودسَّ أنفه كثيرٌ مِمَّن ليس له قدمُ صدقٍ في العلم ببيان الوحي قرآنًا وسنة ، وفي العلم بأصولِ استنباط المعاني من البيانِ وضوابطه ، ولا قدم صدق في علم الاجتماع ، وعلم النفس . . . واتخذوا في القولِ في هذا مجالاً لغيرِ قليلٍ من إثارة الفتنة والتّحريشِ على استفحال التّخالفِ والمشاقّةِ بيْن الرّجل والمرأة ، بدعوى انتهاك حقوقِ المرأة ، وذكوريّة التّشريعات والقوانين ، وسلطة العقلية الرّجعية المتحجّرة المولودة منذ خمس عشرة قرنًا . . . إلى آخر ما يتصايحون به في محافلهم ومنتدياتِهم جهارًا نهارًا لِما هم واثقون به من أنّ القائمين على شؤون البلاد والعباد لن يحركوا إزاءهم ساكنا ما لم يَمسّوا كراسيهم ومقدراتهم الاقتصاديّة ، والسّلطويّة .

القاعدةُ الكليّة عند أولئك في هذا « أنت في مَأمَنٍ من المساءلة إذا لم تحمْ حول حِمَى القيصر ، فإن حدثتك نفسُك أن تحوم حولَه ، فَلا تَلُومنّ إلا نفسَك إنْ وجدتَها بَيْن جنبيْك »

جعلت عنوانَ هذه الكليْماتِ الَّتي رقنتُها في هذِهِ القراطيس (الرِّجالُ قوَّامُون على النِّساءِ : مدارسات إيمانية أخلاقية في ضوءِ علمِ البلاغةِ العربيّ) وهو عنوانٌ حرصتُ على أن يتضمَّن خمسةَ أمور رئيسة :

موضوعُ القول (الرّجالُ قوّامون على النّساء)

نوع القول (مدارسة)

غاية القول (إيمانية أخلاقِيّة)

منهج القولِ، وأدواته: (في ضوء علم البلاغة العربي)

رغبتُ في هذا على الرّغم من طول العُنوان لألفتَ طلابَ العلمِ، ولا سيّما طلابُ الدّراساتِ العليا الّذين أنا مهمومٌ بتربيتِهم نفسيًّا وعقليًّا وقلبيًّا ورُوحِيًّا في المقام الأوّل، ثمّ بكلّ طالبِ علم، ثم بِكلّ قارئ ـ أردتُ أن ألفتَ إلى أمرٍ مُهمٍ جدًّا هو أَن عنوانَ كلّ قولِ علميٍّ يجبُ أن يكونَ متضمِّنًا هذه الأركانَ الخمسَةَ الّتي أشرتُ إليها، لِيس بالمُسْتحقِّ أن يكون «عُنوانًا» علميًّا إلاَّ لأنَّه يعنّ (يظهر) أو يعلنُ عَن شأن ما هو عنوان له موضوعًا ونوعًا وغاية، ومنهاجًا وأدواتٍ، وقديمًا كانت العامّة عندنا يقولون (الكتابُ يِنْقرِي مِن عنوانِه) يعنون بالكتاب (الخطاب/ الرّسالة) أو الكلام عمومًا، ويقولون: (ليالي الهنا تِبان منْ عصاريها)[1] فأوّل الكلام عنوانُه، وهوما يسميه البلاغيون «براعة الاستهلالِ» وهو أخصُّ ممَّا يُسمّى «حسن الابتداء».

وقد حرصتُ على أن أُبيّن نوع العمل، وأعربْت عن ذلكَ بأنّه «مدارسة» وهي كلمة قرآنيّة نبويّة، كلمةٌ تبينُ عن الجُهد المبذول في هذا الفعلِ، ففِي المدارسة ترويضٌ وتذليلٌ وتليين، وتعبيدٌ.

قَالَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْر:

وَفِي الحِلم إِدْهانٌ وَفِي العَفْوِ دُرْسَةٌ ... وَفِي الصِّدْقِ مَنْجاةٌ مِنَ الشَّرِّ فاصْدُقِ

---

(١) كتبتها كما ينطقها قومي في صعيد مصر. ومن المعهود أن الأمثال والطرف تروى بلهجتها كما علمنا الجاحظ.

أي في العفو ترويض ، وتعبيد لمنْ تعفو عنه ، فإنَّك بعفوك عنه قد أخذْتَ بناصيته إليْك ، فتَسوقُه إلى ما تريدُه له من الخير ، وذلك حق عليْكَ مُسلِمًا لِكلٍّ من كان لك أخًا في الآدمِيّة أوَّلاً ، وفي الإسلامِ ثانيًا .

وحرصْتُ على أن أُبين أنّ هذه المُدارسة ترمِي إلى تبيين القيم الإيمانيّة والأخلاقيّة التي تؤسسُ علَيْها العلاقة بيْن الرّجلِ والمرْأة عامة ، والزَّوجين خاصة ، وهذه القيمُ إذا ما تحقَّق حضورُها وفتوتُها في القلوبِ إيمانًا واحتسابًا تحقَّق السّلامُ الاجتماعيّ بيْن النَّاس على مستوى الأسرةِ أولاً ، ثمّ على مستوى الوجودِ الآدميّ أجمعه ثانيًا في كلّ عصْرٍ ومِصْر ، وذلك ما يسْعَى أحفادُ أبي لهبٍ - إلى وأدِه من الحياة جمعاء ، فليْس لهم هَمٌّ كِمثل وأد هذا السّلام الاجتمَاعِي ، إنّهم على يقينٍ أنّه إذا ما تحقّق هذا السّلامُ بيْن قوم فلن تستَطيعَ كلّ أسلحةِ العالمِ ، وكلّ فُنون التّخابر وكلُّ الأذرعة الإعلامية ، وكلّ المنصَّات الإلكترونية أن تنفذَ في ما بيْن أولئك الّذين استفحلَ فيهم السّلام الاجتماعِيّ ، فأنتجَ اعتصامًا بالحقّ ، ونصرةً له ، وَصناعةً للخيرِ ونشره في الناسِ كلّ الناسِ . .

ورغِبْتُ فِي أن أبيّن أنّي أتخِذ « علم البلاغة العربيّ » منهجًا أو أداة في هذه المُدارسة ، فذلِك هو العلمُ الّذي أحملُ رسالة خدمتِه وخدمةِ طلابِه إبرازًا للقيمةِ الوظيفِيّة لهذا العلم « المفتاح » ، العِلم « النّور » ، وإني لحريصٌ علَى أنْ أغْرِسَ في سمْع طلابِ العلم وفِي عقلِهم وفِي قلوبِهمْ نعتَ هذا العلمِ بأنّه عربيّ على غيْر ما يتداولُون من نعت « البلاغة » بأنّها عربية فيُقال: « علم البلاغةِ العربية » أنا حريصٌ على أن يكونَ المَنهجُ عربيًا ، فعروبة المنهجِ روحًا ، ولحمة وسداة هو الّذي يحقّق لطالبِ العلم البصرَ النّافذَ لما هو مكنونٌ في كلٍّ بيان .

عروبةُ العلمِ هِيَ عروبة النّفسِ والعقل والقلبِ والرُّوح واللسان ، وهـذِهِ العروبة هي المبدأُ المكينُ الّذِي يعصمُ المَرْء مِن أن تتلوث نفسُه وعقلُه وقلبُه وروحُه ولسانُه بعجمةٍ ، فتكونُ حجازًا عن فهم كتابِ الله سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ وسنّة رسُوله صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ، فإنّ الله تَعَالَى جَدُّهُ إنّما خاطب الناسَ على مَعْهود العربِ في الإفهامِ والفهم ، فمن سلك غير هذا سبيلاً إلى فهم بيانِ الوحي قُرآنًا وسنة فقد ضل السبيلَ .

إنَّ هذه العجمة : عجمة النفسِ والعقل والقلبِ والرُّوحِ واللسان هي الدَّاء الوبيل الذي تتولد منه الأدواء الفاتكة بالمرءِ في دراسته لكل ما هو عربيّ الهمّ والفكر والّلسان ، فلا يَصدُر من هذه العجمةِ إلاَّ ما لا يليقُ بشأن صَاحِبِها (المسْتعجِم) عربيًا مسلمًا ، فعلى كلّ مُسلمٍ أن يعتدَّ بمقومات شخصيته المائزة له عن سائر الشخصيات التي يراد لها أن تذوب في سائر الشخصيات الأُخر .[1]

---

(١) من جعله الله تَعالى عربيّ النسب أو الحسب ، فتلك نعمة يجب عليه أن يحسن شكر الله تَعَالَى جَدُّهُ عليها بأن يُرى أثرها عليْه في سلوكه : قولاً وفعلاً وحالاً ، فالعروبة نسبًا ، وحسبًا شرفٌ جد عظيم ، ومن كان عربيًا النسب فحسبُ فهو لامحالة من أحفادِ أبي لهب ، ومنْ حرم عروبة النسب ، فإن من إمامه اكتساب عروبة الحسب .
روى الترمِذي في كتاب (البر والصلة) من جامعه بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ قَالَ : «تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِى الأَهْلِ مَثْرَاةٌ فِى الْمَالِ مَنْسَأَةٌ فِى الأَثَرِ» .
فليحرص كلّ مسلِم على أن يكون له من عروبة النسب والحسب نصيب ، فإن لم يكن عربيّ النسب ، فله أن يستمسك بعروبة الحسب ، فإنّها التي جعلت سيدنا بلالاً رَضِيَ اللهُ عَنْه يقول عنه الفارق عمر رضي الله عَنه : أبو بكرٍ سيدنا أعتق سيدنا : يقصد بلالاً . عمر يقولها ، جعل «بلالاً» الحبشي سيده ، فهو سيده حسبًا لا نسبًا ، فلتكن بلالاً إن لم تكن الفاروق عمر ، فكلاهما مبشرٌ بالجنة .

علمَ البلاغة العربيّ هو علمُ فَهْمٍ (تلقٍ) قبل أن يكونَ علم إفهام (إبانة)، هوعِلْمٌ لم يُخلق ليبني دارسَه متكلِمًا يُحسن الإفهام، إنّما خُلق ليكون طالبه وصاحبه ومخادنه آدميًّا يُحسن الفهم عنِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعالَى، وعن رَسُولِه صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ، فهمًا نفسيًّا يحقق له التَّوازن النفسيّ، وعقْليًّا يحقّق له انضباطَ الحركةِ والسّلوكِ، وقلبيًّا يّحقّق له كمالَ الإيمانِ وصَفاءَ اليقين بالله سُبْحَانَهُ وَتَعالَى، ورُوحيًّا يحقّق له صدقَ الاتصالِ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ومتانتَه، وهذا إذا ما تحقّق لك هذا الفهم النفسي والعقليّ والقلبيّ تحقَّق لك بالضّرورةِ أن تكون المقتدرَ على حسنِ الإفهام.

قدْ كان من أوّلِ ماحملتْ عن أستاذي الجليلِ الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ـ رحمَه الله رحمةً واسعة ـ، وجزاه عني خيرَ الجزاء ـ وقد كان يدرّس لي في كلية اللغة العربية بالقاهرة جامعة الأزهر الشريفِ علمًا ورسالة قولُه لنا: «إنَّ الكلامَ من الكلامِ» أَيْ كما تسمعُ وتقرأُ تتكلّم، فاختر لنفسِك وكنت أوّل مرّة أسمعها، فَعلِقَت بقلبي إلى يومِي هذا، ومن ثَمَّ أدمنْت قراءة بيانِ الأعيان مِن أهلِ العلم في عصرِنا ومصرِنا: عشقتُ بيان مصطفى صادقِ الرَّافعي، وبيان الأستاذ الأكبر (العقاب) أبي فهر محمود محمد شاكر، وبيان شيخ مشايخنا العلامة الدرّة الفريدة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز، وبيان شيخي المَجْد أبي أحمد محمد أبي موسَى ـ أعزه الله برضوانه، وأعزني الله بمحبّته وبرّه ـ قلتُ ذلك لألفت طلابَ العلم إلى أنّه لا يكفيك أَن تحملَ ما في كلام العالم من العلمِ، بل لا بدَّ أن تحرصَ على أن تكونَ بصيراً بكيفية تفكيره وتعبيرِه، فحِرْصُ طالبِ العلم على أن يبصرَ مَدْخل العالمِ إلى القضية والمسألة تفكيرًا، ومدْخَله في الإبانة عمّا أنتجه قلبُه من المَعرفة إنّما هُو أمْرٌ جليلٌ جدًّا، وهو منْ أَبرز ما يميّزُ

بيْن طلاب العلمِ ، فكم منْ طالبِ علم يتقاربُ في عقله ما في كلامِ العالم من علم مع قرينٍ له ، ولكن أحدَهما يفوقُ الآخرَ في علمه بمداخل هذا العالم إِلى القولِ في القضية أوْ المَسْألةِ تفكيرًا وتعبيرًا ، ولذا أرى أنَّ مِن مسؤوليةِ الدراسات العلميّة التي يقومُ لها طلابُ العلم ، ولا سيّما في جامعةِ الأزهرِ ، أن يُبيّن لنا في دراسَته منهجَ العَالمِ في التفكيرِ والتعبير ، ولا يرغبُ عن أنْ يقولَ لَنا كيف دخل هذا العالم إلى هذه المسألة تفكيرًا ، وكيفَ عبَّر عمّا قامَ في قلبِه من العلم فيها من اجتهاده في التفكير فيها .

أتحمَّلُ عُقبَى أن أرقنَ هذه الثّرثرة في فاتحة هـذه القراطيس كيْما ألفتك ـ طالبَ علم ـ إلى أهمية ذلك ، فإنْ ضاق صدرك ، فألق بالأوراق كلّها دبرَ أذنك ولا تُنفق نزيرًا من عُمُرك ولا جُهدك شيئًا فإنها أمانةٌ في قراءةِ هذه الأوراق ، واستغرقْ في تسبيحِ ربّك سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ، والاستغفار من غفلتك فذلك أنفع لك . .

كتبتُ هـذه الأوراق لعلّهـا تبسطُ شعاعًا ينيرُ الطَّريق أمـامَ مـن يـريـدونَ ألا تمضِي خطاهم إلى غيرِ بابِ الله سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ، وهـي لا تـزعمُ أنّـها تقولُ الكلمةَ الفصلَ ولا الحقّ المُطلق ، فتلك ليس في الأرضِ عاقلٌ يقولها ، ولكنّ هذه الأوراقَ تعرضُ بيْن يـدَيك نتاجَ مـا اعتكفـت متدبّرتـه مـن بيـان الوحي قرآنا وسنة مستنيرة ـ غـير مكبّلـة ـ بمـا جـاء في أسفارِ أهـل العلـم بكتابِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ، وسنّة رسوله ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ ، وقد قرأت في هذا كثيرًا منها ماهو الجـواد عطـاءً ، ومنهـا مـا هـو الغثّ ، وقد حملت من الجواد إليْك ، وتعلمتُ من الغثّ لم كان غثًّا ، وكيف حقق لنفسِه هذه المعرّة ، فليس ثَم كتابٌ عقيم لا ينفع ، إنّما العقيم عقل من يقرأ .

روى الشَّيخانِ : البُخاريّ في كتابي (المناقب) و(الفتن) ، ومسْلِمٌ في كتابِ (الإمارة) مِنْ صَحيحيْهما بِسنَدِهِمَا عَنْ أبي إدْرِيسَ الْخَوْلاَنِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ رَضِيَ اللهُ عَنْه يَقُولُ : كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ عَنِ الْخَيْرِ ، وكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ ، مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي . فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ ؟ قَالَ « نَعَمْ » . قُلْتُ : وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ : « نَعَمْ ، وَفِيهِ دَخَنٌ » . قُلْتُ : وَمَا دَخَنُهُ ؟ قَالَ : « قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ » . قُلْتُ : فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ : « نَعَمْ دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا » . قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، صِفْهُمْ لَنَا ، فَقَالَ : « هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا ، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا » قُلْتُ : فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ : « تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ » . قُلْتُ : فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ ؟ قَالَ : « فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا ، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ » .

والله عَزَّ وجلَّ هُو الهادِي إلى سواء الصّراط . وصَلّى اللهُ عَلى سيدنا ورسُولنا مُحمّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ والحمدُ لله ربّ العالمين .

وكتبه

محمود توفيق محمد سعد

almasry٤١١@gmail.com

أمَّـا قَبْلُ

يقول الله تَعَالَى جَدُّهُ : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٢٨) ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ (آل عمـــــران:١٩٥) بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء:١)

روَى الشَّيخانِ : البُخاريّ في كتاب (أحاديث الأنبياء) ، ومسْلِمٌ في كتابِ (الرّضاع) مِنْ صَحيحيْهما بِسنَدِهِمَا عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ـ رضى الله عنه ـ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « استَوْصُوا بالنِّسَاءِ ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَىْءٍ فِى الضِّلَعِ أَعْلاَهُ ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمهُ كَسرْتَهُ ، وَإِنْ تَركْتَهُ لَمْ يزَلْ أَعْوَجَ ، فَاستَوْصُوا بِالنِّسَاءِ» .

«مِن المُتَواتِر فِي أقوالِ أناس مِن المُؤرخينَ الغرْبِيين أنَّ الإسلامَ ينقِل شَريعتَه مِن الشّرائعِ الّتِي تَقدَّمتْهُ ، ولا سِيّما الشّريعةُ المُوسَوِيّةُ ، ولا يتّضح بُطلانُ هذِهِ الدَّعوَى مِنْ شَيْءٍ ، كمَا يَتَّضِحُ من المُقابلَةِ بَيْنَ مَرْكَزِ المرأةِ فِي

حقُوقِها الشّرعيةِ ، كمَا نصّتْ عَليْها كُتبُ «التّوراة» وَمركَز المَرأةِ فِي حقوقِها الشّرعِيةِ الّتي قرّرَها الإسلامُ بأحكامِ القُرآنِ»(١)

سَلك العقادُ ـ رَحمَهُ الله تعالَى ـ في عبارته هذه مسلك التّوطيد البالغ للمفارقةِ بيْن حالِ حقوقِ المرأةِ ومكانتها في المجتمع الإنسانيّ قبل «الإسلام» ، وحال حقوقِها ومكانتها في «الإسلام» ، وكأنّه يذهبُ إلى أنّ هذه المفارقة هي أقربُ الطّرق وأيسرها إلى نقضِ افتراء استلابِ «الإسلام» شريعته من الشرائعِ السابقتِه ، وإلَى أنّ هذه المفارقة أقوَى ما يظهرُ للعيان بيْن شريعة الإسلامِ وشريعة ما كانَ قبلَه ، لما بيْن الحالين من مباعدة لا سبيل إلى تقاربهما ، وهذا مسلكٌ في الحجاج فتيّ .

غيرُ قليلٍ من الّذين كتبُوا في شأن المرأة في الإسلام كان لهم تعريجٌ على حالها قبل الإسلامِ بيْن باسطٍ قوله ، ومقتصدٍ ، وكلّهم منتهٍ إلى أنّه لم يكنْ قطُّ في أيّ دينٍ أو فلسفة أو نظام حكم ما كان لِلمرأة في الإسلام كتابًا وسنة(٢).

---

(١) المرأةُ فِي القرآن ، عباس محمود العقّاد . مكتبة الأسرة ٢٠٠٠م عن طبعة نهضة مصر . الفجالة . ص : ٥٨

(٢) من الكتبِ التي عنيت بذلك كتاب : المرأةُ فِي شتّى العصور ، من لدن آدم عليه السلام حتى الآن ، ما لها وما عليها ، ابن الخطيب ، ط. أولى ١٣٩٩هـ ، وكتاب حقوق المرأة المسلمة في المجتمع الإسلامي ، مصطفَى إسماعيل بغدادي ، المنظمةِ الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة . الكويت ط . أولى ١٤١١هـ ، وكتاب المرأة المسلمة ، وفقه الدعوة إلى الله ، علي عبد الحليم محمود . دار الوفاء ، المنصورة ط . الثانية ١٤١٢هـ ، وكتاب المرأة بيْن الموروث والتحديث ، زينب رضوان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٤م .

كانت المرأةُ قبلَ الإسلامِ شيئًا،وكانت في الإسلام شيئًا آخر جليلاً جميلاً، لا يَغفلُ عن المفارقةِ الوسيعةِ العميقةِ بيْن الحاليْن إلا مكابرٌ أعمَاه الحَنَقُ والحِقد، أو عالمٌ بالحقِّ دافعُه لِيُضِلّ النّاسَ عن سبيلِ الله تَعالى، أوْ جاهلٌ يتكلّم بما لا يعلمُ، فحقّه على مجتمعِه أن يمنعه التكلم فيما لا يعلم؛ حتّى يتقن العلم فإن لم يفعلْ به مجتمعه، فقد ظلمه.

روَى الشَّيخانِ: البُخاريّ في كتاب (الإكراه)، و(المظالم)، ومسْلِمٌ في كتابِ (البرّ والصلة والأدب) مِنْ صَحيحيْهما بِسنَدِهِمَا عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رضى الله عنهما - أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ، وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِى حَاجَةِ أَخِيهِ، كَانَ اللَّهُ فِى حَاجَتِهِ».

ومن إسلامِه أن يدعَه ليقعَ فيما لا يحقّ له أن يقع فيه، وقد نهانا رسُول الله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ - عن أن نُعين الشيطان على أخينا، كما جاء في صَحيح البخاري في كتاب (الحدود) وأمرنا أن ننصر أخانا ظالما أو مظلومًا، ومن تكلم في ما لمْ يعلم إنما هو ظالمٌ نفسَه أولاً، ثم قومه ثانيًا، فعلينا نصره بأن نأخذ على يده، نمنعه من الظلم.

روى الشَّيخانِ: البُخاريّ في كتاب (المظالم) و(الإكراه)، ومسْلِمٌ في كتابِ (البر والصلة والأدب) مِنْ صَحيحيْهما بِسنَدِهِمَا عَنْ أَنَسٍ - رضى الله عنه - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا قَالَ: «تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ».

وفي روايـة للبخاري عَنْ أَنَسٍ ـ رضى الله عنه ـ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا». فَـقَـالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا ، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ قَالَ : «تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ».

وهذا الحقُّ هو مِن الحقوقِ المَظلومة من كثيرٍ والمَجهولة عند كثيرٍ ، قلَّما نسعَى إلى نصرة الظَّالم على نفسِه بمنعِه من أنْ يَظلم نفسَه بظلمِه الآخرين ، فيجمع على نفسِه ظلمين ، حتى أولئك الذين يتصدّون للظّالم ، فإنّما هم إلى نصرةِ المظلوم دون التفاتٍ إلى حقِّ الظّالمِ ، والحسْنَى الجمع بيْن القصْديْن : قصدِ نصرةِ المظلُومِ ، وقصْدِ نصرةِ الظّالمِ . ولذا وجب إذا كفَّ الظالم عن الظلم أن يثنَى عليْه ويشكرَ ، وألا يُعيّر بأنّـه كان ، وكان ، بلْ ولايُذكَر بما كان منه ، فَإنّ في تعييرِه من بعد توبته عونًا للشيطان عليْه ودفعًا به إلى العود إلى حزبِه ، فنكونُ بذلِك نحن الذين وقعنا في ظلْمِه ، وتردَّينا في مَا كنَّا نكرُه عَليْه ، ونحاجزه منه ، وتلك التي لا يُقدم عليها أولو النّهَى . .

* * *

لو أنّـنا أحسنَّا دراسة شأن المرأة في غيرِ الإسلامِ قديمًا وحديثًا ، وشأن المرأة في الإسلامِ لما كان لأحدٍ أن يقول قولاً يردّ عليْهِ في موقعِ المرأة في الإسلام قرآنًا وسنة ، سواء في ما لها من حقٍّ كفله الشَّرع ، وعاقبَ عليه من جارَ أوقصّر ، أو فيما لها مِن مكانةٍ عليَّةٍ تقدم فيها المرأة على الرَّجل في وجوب البرّ والرعايةِ من الأبناءِ ، وفي عناية رسول الله ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ بأمر الأمة بأن تستوصِي بهنّ خيرًا ، وكانت هذه من آخر

ما وَصّى به في حياتِه ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ ، وهوالقائلُ لأمته جمعاء : « خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي »[1].

ولو أنك أردت الإشارة إلى شيْءٍ واحدٍ جامعٍ بيان ما أنصفَ فيه الإسلام المرأة ممّا كانت به موصومة ، لأشرت إلى ما قرَّره الإسلام منْ أنَّ المرأة براءٌ مِن افتراء أنـَّها هي التي أغوتْ الرجلَ ليعصىَ الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ ، فيأكل من الشَّجرة ، فيطردا معًا إلى الأرض حيث الشّقاء .

ما عليه أهلِ الأرض من غيرِ المسلمين على أنّ خطيئة آدم ـ عليه السلام ـ هِي في رقبة « حواء» ـ عليْها السَّلامُ ـ لولاها ما خرجَ الإنسان مِن الجنة ، ولولاها ما كان للمسيحِ ليتحمَّل فداء الإنسانية ـ وكذبوا ـ بصلبِه .

إفكٌ يتعبَّدون به في كنسيهم وكنائسهم ، ومعابدهم ، وجاء القرآن ليقرِّر أنّ آدمَ وحوَّاء معًا ـ عليْهما السَّلام ـ شريكان فيما كان ، وأنَّ الشّيطان إنّما وسوس لهما معًا . لمْ يوسْوس لها هِي ، فوسْوَستْ هِي لآدم ـ عليْهِ السلام ـ ، يقولُ الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ

---

(١) رواه الترمذيّ في(المناقب) من جامعه من حديث عائشة ـ رَضِيَ اللهُ عَنْها ـ ، والدارمي في سُننهِ ، وابن حبان في صَحيحه ، وابن ماجه في كتاب (النكاح) من سُننه من حديث ابن عباس ـ رَضِيَ اللهُ عَنهما ـ ، وصححه الألباني في صَحيح وضعيف سنن الترمذي (حديث رقم : ٣٨٩٥) وفي صَحيح وضعيف سنن ابن ماجه (حديث رقم : ١٩٧٧) وفي صَحيح الجامعِ الصغير (حديث رقم : ٣٣١٤) وفي سلسلة الأحاديث الصَحيحة (حديث رقم : ٢٨٥ ، ١١٧٤)

عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ٣٥-٣٧)

ويقول : ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩-٢٣)

نسب إليهما معًا الفعل ، ولم ينسبْه البتة لحوَّاء ـ عليْها السلام ـ وحدها ، بل إنّه في موضع جاءت نسبة الفعل فيـهِ لآدم ـ عَلَيْه السلام ـ وحده ، يقول : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (طه: ١٢٠،١٢٢) نسبه إليْه مِنْ أنّـه هو المسؤولُ الرّئيس ، والقيّم على شأنِه وشأنِ حواء معًا ، فما هِي إلا وَزيرُه ، وسنِيدُه وعَضيدُه ، ولذا جاء هذا في سورة « الوزارة والمساندة » : سورة « طه » فلَوْ لَمْ يكنْ منه الإصغاءُ لوسوسَةِ الشيطانِ لَمَا كان لحواء ـ عَليْها السلام ـ أن تفعلَ .

هذا أظهر ما أنصف فيه الإسلام المرأة مما وَصَمَتْها به كل الكتب التي في أيدي غير المسلمين على تعددها ، وتنوعها ، وتفاوتها عُمرًا .

رفع عنها لعنةَ الإخراج الّتي وصمها بها كلّ ما عدا الإسلام ، أفي كتب بني صهيون وعبدة الصليب وغيرهم شيءٌ من إنصافِ المرأة كمثل الذي هو الحق المبين في كتاب الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ : القرآن الكريم ؟

فإذا ما أضفت إلى ذلك العديد من الحقائق الكليّة الّتي جاءت في بيان الوحي مقررة علو شأن المرأة ، وتقديمها في البرّ والإحسان على الرجل تبين لك عظيم علوّ شأن المرأة ومكانتها في الإسلام .

رَوَى الشَّيخانِ : البُخاريّ في كتاب (الأدب) ، ومسْلِمٌ في كتابِ (البرّ والصلة والأدب) مِنْ صَحيحيْهما بِسنَدِهِمَا عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ـ رضى الله عنه ـ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَنْ أَحَقُّ بِحُسْنِ صَحَابَتِى؟ قَالَ : « أُمُّكَ». قَالَ : ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ : « أُمُّكَ». قَالَ : ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ : « أُمُّكَ» . قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : « ثُمَّ أَبُوكَ» .

وفي رواية لمسلم في البابِ نفسِه عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَنْ أَحَقُّ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ ؟ قَالَ : « أُمُّكَ ثُمَّ أُمُّكَ ثُمَّ أُمُّكَ ثُمَّ أَبُوكَ ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ» .

تقديمُ الأمّ على الأبّ ثلاث مرّات إنباءٌ بعظيم حقّ الأمّ ، وهي عنوان المرأة ، وعلوّه على حقّ الأبِ ، وهو عنوان الرّجل ، لِما للأمّ من عظيم الفضل على الإنسان .

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ

أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (لقمان:١٤-١٥) [(١)]

هلا تلبثتَ عند قوله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ (لقمان:١٥) لِتستطعم جليل حثّ الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ عباده على حسنِ الوفاءِ بحقّ الوالدين ، وإنْ كانا يُحرّضانه على الكفـران بـه ـ جَلّ جَلالُهُ ـ ، لم يجعلْ تحريضَهما على الكفران بِه ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ مقتضيًا تركَ الإحسانِ إليهما ، بل أوجبَ مصاحبتهما في الدنيا معروفًا ، فكيف إذا ما كان يحُضّانك على الإيمان باللهِ ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ والقنوت له ، ويبذلان ما فـي وسعـهمـا لتكونَ مـن أهـلِ القـرآن ، إنّ الأمـر لجد عظيم لا سبيل لي إلى تصويرِه بما يليقُ بِه[(٢)].

* * *

(١) في الآية لفتٌ إلى ما لـلأمّ مـن علوّ حقٍّ على حقِّ الأب ، فهـي شـاركته في عمـوم الوصية ، وزادت عليْه حقّ الحمل وهنًا على وهن ، وحق الإرضاع ، فكان لهـا ثلاثـة ، (أمك ، ثمّ أمّك ، ثمّ أمك) وله واحـدٌ (ثـم أبـوك) وهـذا يهـديك إلى أن بيـان النبـوة السابق ذكره إنما هو تبيين هذه الآية .

ودراسة منهاج بيان النبوة في تبيين بيان القرآن من الفريضة التي قلّ الوفاء بحقّها ، لما في ذلك من لطف بالغٍ يفتقرُ المرءُ إلى بصيرةٍ نافـذة ، وفـراسـة بيانية فتـيـة ، وذلك لا يكاد يتحقق إلاّ لقليلٍ جدًّا من طلابِ العلم وأهلِه ، وهذا يستوجب اتقاء العمل الفردي في هذا الباب ، لَن يثمر فيه إلا عملٌ جماعيٌ مؤسسيٌ جادٌّ مخلصٌ لله ربّ العالمين .

(٢) في قوله : «صاحبهما» ما أفهم منه أنّ حسن الصّحبة لا يتمّ إذا لم يكن الوالدان في صحبة الولد وجواره ما استطاع إلى ذلك ، أما أن يقيم بعيدًا عنهما وهو مقتدر على أن يجاورهما فذلك ما يخدش في حسن الصحبة .

إنَّ على كلّ من يقول قولاً غيرَ حميدٍ في موقع المرأة ومكانتها في الإسلام أمران رئيسان :

الأول : أن يحسنَ أولاً العلم بكتابِ الله ـ تَعالى ـ وبسنة رسُولِه ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ .

والآخر : أن يفرِّق بين أمرين :

ما جاء به بيان الوحي قرآنًا وسنة ، في شأن المرأة حقًّا ومكانةً

ومُمارسات المسلمين في حياتهم وعلاقتهم بالمرأة في أعصارٍ وأمْصارٍ متعددة متنوعة .

ليست ممارسات المسلمين حجة على الإسلام ، ولا تمس كماله جلالاً وجمالا عقيدة وشريعة وأخلاقًا ، فَالإسلامُ هدْيٌ من عند الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ ، وهذه المُمارسات من قبل العباد ، وفرق بين ما هو إلَهي مقدسٌ ، وما هو بشريٌّ حليته النقصُ .

وأمرٌ آخرُ يجبُ على مَن جعل همّه في حياتِه أنْ يتكلَّم في شأنِ حقوقِ المرأةِ ، وكأنَّ كلَّ مفسدةٍ في الحياة آتيةٌ مِن نقصانِ الوفاءِ بحقّها ـ عليْهِ أن يتكلّم أولاً في حقّ الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ عليْه ، وأن يجاهد في الوفاء بذلِك الحقّ العظيم . .

لم لا نجدُ مجلسًا قوميًّا لحقوقِ الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ على العبادِ ، كما نجدُ مجلسًا قومِيًّا لِشؤون المرأة وحقُوقها ؟

لَوْ أنَّا عُنِينا بحقوق الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ على العبادِ ، فإنَّ حقوقَ المرأَةِ وغيرها ستحقَّق لزامًا طوعًا واحتسابًا ، لأنّ تَحقّقها إنّما هُو مِن طاعةِ الله

ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ يصطنِعه العبدُ مرضاةً له ، وطلبًا لاكتسابِ مثوبتِه الحُسْنى ، ومثلُ هذا يُحقّقُ للوفاءِ بحقِّ المرأةِ خاصَّةً وكلِّ العبادِ عامّةً الإتْقَانَ والدَّيمومَة ، وهذا ما تعجزُ كلُّ قَوَانينُ أَهلِ الأرضِ مهْما استفحلَ سلطانُ القائِمين على تحقيقِها أن يُحقِّق لها الإتقانَ والدَّيْمومَة .

لِمَ ندعُ الأصلَ (الوفاء بِحقوقِ الله تَعالى) الّذي منه تتحقَّقُ الأشياءُ كلُّها إذا تحقق ، ونمسك بالفرع ؟ أَثَمَّ مجيبٌ ، أم أنَّ حقوق المرأةِ عندهم أجلّ وأقدسُ وأوجبُ وفاءً مِن حقوقِ الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ على العبادِ ؟!!!

إنّ مِنْ حقّ الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ علينا أن نكونَ عبيدًا عابدينَ له قانِتين ، ومُوقِنين أنّـه ليس كمثلِه شَيْءٌ ، وأنّه لم يكنْ له كُفُوًا أحد ، وأنّه لا يظلمُ النّاسَ شيئًا ، وأنّه يُريدُ بِنا الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِنا الْعُسْر ، وأنّه يرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْنا ، وأنْ يُخَفِّفَ عَنّا وأنّه يدعونا إلى دارِ السلام ، وأنّ علينا إذا ما أمرَنا أو نهانا في كتابه ، أوْ فِي سُنّة رسُولِه ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ ، وتوثَّقنا مِن صحة نسبة البيان لرسولِ الله ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ أن يُعلن كلّ شيْءٍ فينا صدقًا واحتسابًا ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (البقرة:٢٨٥).

روَى الشَّيخانِ : البُخاريّ في كتاب (اللباس) ، وفي غيرِه ومسْلِمٌ في كتابِ (الإيمان) مِنْ صَحيحيْهما بِسنَدِهِمَا عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ـ رضى الله عنه ـ قَالَ : بيْنَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِىِّ ﷺ لَيسَ بَيْنِى وَبَيْنَهُ إِلاَّ آخِرَةُ الرَّحْلِ فَقَالَ : « يَا مُعَاذُ » ، قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ . ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ : « يَا مُعَاذُ ». قُلْتُ :

لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ . ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ : « يَا مُعَاذُ » . قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ . قَالَ :« هَلْ تَدْرِى مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ». قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : « حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » . ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ : « يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ » . قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ . فَقَالَ : « هَلْ تَدْرِى مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ » . قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : « حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ » .

وأن نُعمِلَ مِن بعدُ قلوبنا لا لتَقبلَ أو تردّ ، كلاّ ، وإنّما لتفهم ما به أمرتْ أو عنْه نهيت لتطيع الأمر والنّهي على الوجه الأتمّ ، فإن كمال الطّاعة لا يتحقّقُ إلاّ مِنْ بعدِ عِلمٍ محقّقٍ بما أمر ، وبما نهي ، أمّا مَن يُعملون عقولهم ليقبلوا أو يردوا ، من بعد أن توثقوا من كمال صحة نسبة البيانِ إلى الوحي فما هُم بمسْلمين أمرَهم لخالقهم بلْ إلى عقولهم ، فكان لسانُ حالِهم دالاً على أنّهم اتخذوا عقولهم حكمًا على ما يأتيهم به الوحي يقبلون ما تقبله عقولهم ، ويردّون ما تردّه ، وذلك من أحمق ضروبِ الشرك .

إنَّ عمل العقولِ والقلوبِ مع بيان الوحي قرآنًا وسنةً ليْس مجالُه القبولَ ، والرَّدَّ ، إنّما مجالُه الفقهُ والفهمُ ؛ ليكون ذلك الفقهُ والفهمُ عونًا على حسن القيام بطاعةِ الأمرِ والنّهي احتِسَابًا ، تلك هي حليةُ المسلم وجهَه لله ربّ العالمين .

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (النور: ٥١، ٥٢)

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (النساء:١٣، ١٤) ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ (النساء:٦٦-٧٠)

* * *

المدارسَة الأولى

سياق البيان

ممّا يحسنُ الالتفاتُ إليْه أنّ عطاءاتِ بيانِ الوَحي متكاثرة ومُتصاعِدة ، فهي ليستْ على درجةٍ واحدةٍ يَستوِى في تلقيها النّاسُ .

هُو بيانٌ يُعطي مَن ينظر فيه ولو نظرةً عَجْلى شيئًا على قـدرِ وعائـه (قلبه) ، إذا ما كانت النّظرةُ العَجلَى نظرةً مِن ذي تأهّل لأنْ ينظر ، وكـان الوعاءُ (القلبُ) حاضرًا طاهرًا مِن الشّبهات والهوَى .

فإذا ما مارَس العبدُ إدمانَ النّظر كان له من بيانِ الوحي عطاءٌ على قـدرِ ما يبذلُ من جُهد ، وعلى قدْرِ ما أعدّ وعاءَه (قلبه) لتلقّي العطاءِ .

﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾

(الإسراء: ٢٠، ٢١)

ومِن خصائصِ هذا البيان : بيان الوحي أنـك إذا نظرتَ في الآية أو الآيتين دون استصحابِ السّياقِ القريبِ (السّباق) و(اللّحاق) والسّياق المديد على مستوى المَعقِد (الفصل) والسّورة ، والقرآن كلّه ، فإنَّك لن تؤوبَ معدمًا من العطاءِ بلْ تحمـلُ ممّا نظرتَ شيئًا تتبلَّغ بـه ، فـإن أحسنت استقباله أغـراك ما يُوقعُه في قلبك بأن تهود إليْه ، فتعيد النّظرَ في صُحبة السّياقِ القريب ثم المديدِ ، فيتوافدُ عليك ما لن تجدَ في نفسِك يومًا رغبةً عنه أو استغناءً بغيرِه ،



وهذا ما يَحرصُ عليْه أولو الألباب ، فليس أظلم لنفسِه ممّن هو القادر على أن يحملَ عليْه من الخيرَ أفضلَه وأدوَمَه ثم لا يفعلُ .

يَقول الله سُبْحَانَه وبِحَمْدِهِ : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾

(النساء: ٣٤، ٣٥)

هاتان الآيتان أقيمتا في سياق سورة « النّساء » الرّابعة في نسق التلاوة ، وهذه السّورة أقيمت لبيانِ منهاج تأسيسِ المُجتمع المُسلم بدءًا من « الأسرة » على أساسٍ من العدلِ والرَّحمة[1].

وهذان « العدل » و « الرّحمة » هما القيمةُ العُليا للإسلام ، ولن تجدَ غيرَ الإسلام فيما يَدين به النّاس أو يتخذونه مذهبًا يتخذُ « العدلَ » و « الرَّحمة » معًا قيمةً عُليا له .

---

(١) سورة « النساء » في نسق التلاوة هي الرابعة من أول القرآن تعادلها سورة « المسد » الرابعة من آخر القرآن ، وهما سورتان متقابلتان موضوعًا :
سُورة النساء تُبين عن منهج الإسلام في إقامة مجتمع إسلامي مؤسّس على الرحمةِ والعدل ، فكل امرأة فيه مثلها الأعلى « خديجة » فهن ربائب « خديجة »
وسورة « تبت يدا أبي لهب » معقودة لبيان النموذج الفريد في قطيعة الرحم وأثرها في صانعها ، وما آل إليْه أبولهب من الخسة في عداء رسول الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلَّمَ ـ إنما هو صنيعة « أم جميل » فكل امرأة كانت وزيرة زوجها في حكومة الخسة والنذالة والفجور في الخصومة ، هي من ربائب « أم جميل »

لتنظرْ في «النّصرانيّة» ، و«اليهودية» والمعتقدات الأُخر ، وفي المذاهب الفلسفيّة . . . لن تجدَ شيئًا منها يتخذُ ما اتّحذه الإسلام قيمة عليا له ، أقامَها في جميع تشريعاتِه على تعدّدها ، وتنوّعها ، وحرى بكلّ ناظر في شأن من شؤون الإسلام كتابًا وسنة أن يبحث عن هَذِهِ القيمة «العدل» و«الرحمة» فيما هو ناظرٌ إليْهِ ، حتّى تلك التشريعات التي يبغضها غير قليلٍ ممّن امتلأ بِهم العَصْرُ والمِصْرُ ، وهو ما يعرفُ بـ«الحدود» ، ستجدُ في كل حدٍّ حضوراً مكينًا لقيمةِ العدلِ والرّحمةِ ، بل لو أَنَّهم تبصّروا الإعرابَ عنها باسم «الحدود» لعلموا ما فيها من «العدلِ» و«الرَّحمة» .

وكلُّ مجتمع كان مركزُ دائرة الحركة فيه ومُحيط فسطاطِها هو «العدل» المُطلق و«الرّحمة» السّابغَة هو مُجتمعٌ مُتكافِلٌ مُتماسِكٌ ، وبمِقدار تمسّكه بهذه القيمةِ العُليا إيمانًا وَسلوكًا بمقدارِ ما يكونُ هذا المجتمعُ مجتمعًا مثاليًّا يُحتذَى ، فَإذا مَا وجدْت في الأُمّة الإسلاميّة مجتمعًا لا يتحقَّقُ فيه التَّكافلُ والتَّسامحُ والتَّناصر ، فاعلمَنَّ أنَّه مجتمَعٌ قد أعرضَ ـ ضَلالة ـ عَن الأخذِ بهذه القيمةِ العُليا ، ومثلُ هذا تقولُه في الوحدةِ التَّكْوينيّةِ الصُّغرَي في المجتمع : «الأسرة»

سورة «النّساء» الآتية بعد «الزّهراوين : البقرة ، وآل عمران» سورةٌ «مدنية» بدأ نزولها بعد سُورة «الممتَحنة» ومفتتح هَذِهِ السورة يلتفت إلى قول الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ في سورة «البقرة» : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:٢١) فالعلاقة بين هذه الآية وفاتحة سُورة «النّساء» : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي

تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء:١) علاقة مكينة بيّنةٌ ، ولك أن تلحظ العلاقة بين (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) و (اتَّقُوا رَبَّكُمُ) و (واتَّقُوا اللَّهَ)

المقصودُ الأعظم والغرضُ العامّ «المحوريّ» للسورة هو بيان ضوابط بناء الأسرة المسلمة على دُعامتي العدلِ والرّحمة ؛ ليتحقّق للمجتمع المُسلم سلامُه الاجتماعِيّ .

ومن ثَم ترى عنايتها البالغةَ بالحثّ علَى الإحسان إلى الضعفاء ورِعايةِ حقوقِهم ولاسيّما اليتيم والمرأة ، وبِالحثِّ على العناية برعاية الأرحام واتقاء قطعها .

ذلك هو المعنى الأم الذي يتمثل في قوله تعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ (النساء:١) فهذه الجملة القرآنية هي مَعدِن «المعنى الأم» (المقصُود الأعظم) وهو يجْرِي في السّورة كلها معاقدها ، ونجومها وآياتها جميعًا على اختلافِ موضوعاتها ، فهو كالرّوح السَّاري فيها كلّها ، وهو كالعصارةِ الخضراء من الشجرة اليانِعةِ ، فكلُّ مكوّنٍ منها : السّاق والفروعُ والأفنانُ والأغصانُ والأوراقُ والأزهارُ والثّمارُ فيه من تلك العصارةِ .

وإذا ما كان للسّورة معنى مركزيٌّ هو المعنى الأمُّ (المقصُود الأعظم) فإنّها ذات موضوعات عدَّة ، وتعدد الموضوعات لا يعني أنَّها ليس ذات وحدة بيانية مقصدية ، بل موضوعاتُها تُمثلُ معاقدَ المعنى القرآنيّ فيها فهي موضوعات عدة ، وفي كلّ موضوعٍ غرضٌ مرحلي خاضع لغرض محوريّ (المعنى الأم) ، وهذه الموضوعاتُ جاءت من بعدِ آية الاستهلال الأولى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء: ١)

من أهم هذه ما يتعلّق بالعلاقاتِ الرّحميّة (حقوق الأقارب) وما يتعلق بعلاقات المصاهرةِ ، وأحكام النّكاح وما يترتب على ذلك من حسن المعاشرة ، وما يتعلق بحفظِ حقّ الضعفاء من اليتامَى والنّساء ، وما يتعلق بأحكام العلاقات الاجتماعية والمالية والأمنية في المجتمع المسلم، فتحدثت السّورة عن أحكام المال والدّماء والمناصرة ، كما أنّه عرض لأحكامِ معاملة غير المسلمين من اليهود والمنافقين ، وما يلزم من أحكامِ الجهاد ، وتكثير سواد المسلمين في المدينة النبوية بالهجرة من أرض الشرك «مكة» ، ذلك هُوَ رأسُ الأمرِ في السُّورة : معانٍ تشريعية ، وقد نسجت بها حينا ، ومزجت حينا آخر معان عقدية وتثقيفية (ترغيب وترهيب) ، ولكنّ المعاني التشريعيّة هي عمودُ الأمر في هذه السّورة .

والإحسان في تلقّي ما هو مكنوزٌ في هذه السّورةِ مِن معانِي الهُدَى هادٍ إلى حسنِ إقامة مجتمعٍ مُسلمٍ يَستعمِرُ الحياة أرضَها وفضاءها بتحقيق مراد الله ـ تعالى ـ الشرْعيّ أمرًا ونهيًا ، فيعمّ العدلُ والرَّحمةُ الحياةَ جميعًا .

* * *



موقعُ الآيتين مناطِ التّدبر من سياق المعنى القرآني في سورةِ «النساء»

أقيمت هاتان الآيتان لبيانِ العلاقةِ بيْن الرّجال والنِّساء في دائرة «الأسرة»، وكلمة «الأسرة» كلمة عليّة الدَّلالة على التماسك والتآذر؛ هِيَ من «الأسْر» الذي هو «الشدّ»، فكأنَّ كلّ واحدٍ من هذه «الأُسرة» يشدّ الآخر، ويقويّه ويؤازره، فلا يتساقطُ، وإن استفحلَ ضَعفُهُ، فكلٌّ يمدُّ الآخرَ من قوتِه وعزمِه، لا يسلمُه لأمرٍ يقومُ فيه من ضعف حسّيّ (جسديّ) أَو معنويّ (نفسيّ أوْ عقليّ) أو يُحيط به من هموم الحياة وعواديها، هذا هو المعنى الاجتماعيّ النَّبيل لمصطلح «الأسرة»، وهو ذو عطاء يتلاحظ مع مصطلح «العائلة»:

مُصطلح «العائلة» يُفُهِمُ أنَّ كلاً يَعُول الآخر، فما من أحدٍ إلا وهو في حاجةٍ إلى الآخر في دائرةِ «العائلة»، كلّ يفتقر إلى «عول» أي «عون» الآخر، ولاحظ العلاقة الصّوتية (اللفظية) بيْن «عَوْل» و«عون» و«عالَه» و«عانه»، هذه المعاني إذا استحضرت في قُلوبنا كان لها أثرٌ بالغٌ في علاقاتنا ببعضِنا على مستوى التكوين الأصغر (الأسرة)، الذي من تشابكِه وتناصرِه تتكون «القبيلة».

ومصطلح «القبيلة» يُعربُ لفظُه عَن أنّ كل أبناءِ هذا التجمّع والتّكتّل يقبلُ على الآخر، ويَقبلُه لا يُقصِيه، ولا يزدَريه ولا يحتقرُه، مهما ضعُف قدرُه النَّفسيّ والعقليّ والماليّ والوظيفيّ... ولا يستضعفُه، فلعلَّ دعوةَ منه تنفرجُ بها كُرباتٌ ومدلهمّاتٌ، ولا يسْتغني عنه البتةَ، هم لا يعرفون التّدابرَ

والإعراضَ ، بل هم دائمًا يقبلُ بعضُهم على بعض ، وهُم جميعًا مقبلون على كبيرهم « شيخ القبيلة » الّذي هو فيهم في الشؤون الاجتماعيّة كـ« الكعبة » في الأمّة في الصّلاة ، ممّا يرسمُ لك في بصيرتك عظيمَ فضل الاتحادِ والتَّقاربِ والتَّقبلِ والتّسامح والتَّصافح .

هذه المعانِي الاجتماعيّة الأخلاقية الجليلة نستمدُها من معاني الكلم في لسان العربية ، ممّا يُبينُ لك عن عظيم قدرِ هذا الّلسان المبين الذي اصطفاه الله ـ سُبْحانه وبِحمدِهِ ـ ليكونَ اللسانَ المُعبَّر بِه عن معاني الهدَى في كتابِه الكريم ، ولذا حرصَ الذين كرهوا الله ـ تعالى ـ ورسوله ـ صلّى الله عليْه وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّمَ ـ من أحفاد أبي لهبٍ في ديارنا على أن يُنفّروا المسلمين من هذا الّلسان ، فانساق أمامَهم والتّف حولَهم ، وجرَى خلفهم كثيرٌ .

المهم أنّ هاتين الآيتين تُبينَان عَن أسسِ العلاقة بيْن الرِّجال والنّساءِ ، وترسُم لكلّ برنامجه في هذه الأسرة « العائلة » ما يستوجب على كلّ رجلٍ وامرأةٍ أن يكون له شيءٌ من استطعام ما فيها من معاني الهُدَى .

* * *

سُبقت هاتان الآيتان مناط تدبّر بقول الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴾

(النساء: ٣٢-٣٣)

مناط هذا النهيّ إنما هو في ما فضل الله به الآخر تفضيلا وهبيًا ، كأن يكون هذا ذكرًا وهذا أنثى ، أو هذا عربيًا وهذا أعجميًا ، أوهذا طويلاً وهذا قصيرًا ، أمّا فيما هو كسبيّ اجتهادي فإنما هو حقٌّ وخير ، كأن يتمنّى أن يكون كمثل فلان عالمًا بكتاب الله ـ تعالَى ـ عاملاً به ، أو يكون له مالٌ طيب وفيرٌ يتصدق منه كما لفلان ، فهذا غيرُ منهي عنه ، بل هو مما يثاب العبد به إن صفت النية .

رَوَى الشَّيخانِ : البُخاريّ في كتاب (العلم وغيره) ، ومسْلِمٌ في كتابِ (صلاة المسافرين) مِنْ صَحيحيْهما بِسنَدِهِمَا عَن ابْنَ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ النَّبِىُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِى اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِى الْحَقِّ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ ، فَهْوَ يَقْضِى بِهَا وَيُعَلِّمُهَا »

ورَوَى الترمذيّ في كتاب (الزهد) منْ جامعِه بسَندِهِ عَن أبي كَبْشَةَ الأَنْمَارِىُّ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْه ـ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ يَقُولُ ... « إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ :

عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِى فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ

وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِى مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ

وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِى مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لاَ يَتَّقِى فِيهِ رَبَّهُ وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَلاَ يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ

وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالاً وَلاَ عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِى مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ» . قَالَ أَبُو عِيسَى : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . (صَحّحه الألباني)

في النّهي عن أَنْ يتمنّى العبدُ ما فضَّل الله ـ جَلّ جلالُهُ ـ به غيره عليْه ممّا هو وهبيٌّ شائبةَ عدم الرّضا بما قدَّره له الله عَزَّ وجلَّ ، واتهام الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ بنقصِ الحِكمةِ ، أوْ بالظّلم ، لأنَّ مَنْ يتمنَّى ما فضَّل الله ـ تعالى ـ به غيره عليْه كأنَّه يقولُ بلسانِ الحالِ إنَّ مثلَه لَجديرٌ بذلك الّذي فضَّل بِه غيرَه عليْهِ ، فلِمَ لَمْ تتفضلْ به عليّ كما تفضلت عليه ، ألستُ عبدك كما هو عبدك ؟ كذلك ينطقُ لسان حالِ مَن يَتمنّى ما فضّل الله بِه غيرِه عليْه .

وقد جعل الإيمان بالقدر الرّكن السادس منْ أركان الإيمان على ما جاء في حديث « جبريل » ـ عَلَيْه السّلامُ ـ الّذي رواه مسلمٌ في كتابِ (الإيمان) منْ صَحيْحه بّسندِهِ عَن عمر بن الخطابِ ـ رضِيَ اللهُ عنه ـ بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِىِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِى عَنِ الإِسْلاَمِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ وَتُؤْتِىَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً . قَالَ : صَدَقْتَ . قَالَ : فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ . قَالَ : فَأَخْبِرْنِى عَنِ الإِيمَانِ . قَالَ : «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» . قَالَ :

صَدَقْتَ . قَالَ : فَأَخْبِرْنِى عَنِ الإِحْسَانِ . قَالَ : « أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » . . . . (الحديث)

وإنَّ من أوْلَى ما يجبُ أن لا يتردّى فيه العبد أن تَتمنَّى المرأةُ أن تكونَ رجلاً ، أو تقومَ مقامه ، وأن تنازعه من المسؤوليات التي هو لها ، وتدع المسؤوليات التي هي لها ، فإن في ذلك فسادًا أي فساد ، فإذا وسد الأمر إلى غير أهلِه فهذا ضياع الأمانة التي يترتب عليها فساد الحياة :

روى البخاريّ في كتاب (العلمِ) من صَحيحه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ : بَيْنَمَا النَّبِىُّ - صلى الله عليه وسلم - فِى مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِىٌّ فَقَالَ : مَتَى السَّاعَةُ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ سَمِعَ مَا قَالَ ، فَكَرِهَ مَا قَالَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ لَمْ يَسْمَعْ ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ : « أَيْنَ - أُرَاهُ - السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ » . قَالَ : هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : « فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ ». قَالَ : كَيْفَ إِضَاعَتُهَا ؟ قَالَ : « إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ ».

وكَذلك أن يتمنّى الرّجلُ أن يكونَ امرأة أو يقُوم مقامِها ، فإنَّ لكلٍّ مِن المسؤوليَّات ما لا يستطيعُ الآخرُ القيامَ به ، ومنْها مسؤوليات مرتهنةٌ بالخصائصِ التكوينة للنَّفس والعقلِ والجسد .

لِسانُ غيرِ قليلٍ مِن النِّساءِ نَاطقٌ بأنّها تتمنّى أن تكونَ رجلاً ، كتلك التي تتكلمُ كما يتكلَّمُ الرِّجال ، وتخوض فيما يتكلمون ممَّا تستحيي العفيفاتُ من سماعِه فضلاً عنْ النّطقِ به جهرًا ، وكالتي تمارسُ من الأعمالِ ما هو بالرّجالِ أخصّ ، وتلبس كمثل ما يلبسون ، وتتزاحم في الأسواقِ كما

يتزاحمون ، ولم تحسن تلقي قول الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ في استهلال سورةِ النساء بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء:١)

هلاَّ تلبثتْ كلّ امرأةٍ مسلمةٍ تتدبّر وجه قوله ـ تعالى ـ (كثيرًا) في حقِّ الرّجال دون النّساءِ ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ (النساء:١) مَع أنّ الغالبَ أنّ النّساءَ فِي واقعِ الحياةِ إن لم يكنَّ أكثرَ مِن الرِّجالِ عددًا ، فإنّهن يَعدِلنهم عددًا ، لو تلبثت والتفت إلى قوله ـ عَزَّ وجلَّ ـ (بثّ) لتبين لها أنّ هذه الكثرة للرّجال ؛ إنّما هي في مرأى العينِ ، لا فِي الواقعِ ، هدايةً إلى أنَّ الأولَى والأعلَى والأنفع والأجدى والأسمى أن يكون الأكثر انتشارا في الحياةِ هم الرّجال لأنّهمْ هُم المكَلّفُون بالضربِ في الأرضِ طلبًا للرزقِ الذي قدّره الله سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ، بينا النّساءُ على كثرتهنّ في مَعاقِلهنّ لا معتقلاتِهن ـ كما يتوهمن ـ يقمْن بأشرفِ رسالة : رسَالةِ « صناعة الرجال » فرسان الصَّدع بالحق ونصرته ، وفرسان صِناعة الخير ونشره إيمانًا واحتسابًا ، أيُّ رسالةٍ أجلّ وأكرمُ وأشرفُ من هذه الرسالةِ يُمكنُ أن تتشوّف إليها مَن يكونُ في رأسِها ذرّة من عقلٍ ، لولاك أمًّا وزوجًا صَالحة قانتة حافظةً لغيبِهِ بما حفظَ اللهِ ـ تعالى ـ ما كان الرّجالُ الذين تتمنين أن تكونيهم ، ولَو علمَ الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ في تشبّهك بهِمْ خيراً لك وللإنسانيّة لما نهاك ـ جَلَّ جلالُه ـ عن تَمَنّي أن تكونيهم أوْ أن تتشبهي بهم ، إن الله العليم الحكيم لا يحرم على أحدٍ شيئا إلا إذا كان في ذلك ما يضره ، فهو برحمته يحميه منه ويدفع عنه ، ولكن الشيطان والنفس الأمارة بالسوء يدفعانه إليه ليهلك كما هلك الشيطان .

إذا رأيتَ أمَّة نساؤُها في طرقاتِها وفِي مواقعِ عملِها وفِي مواصلاتِها ، وفِي أَسواقِها أكثرَ مِنْ رِجالها ، فاعلمَنَّ عِلْمَ يقينٍ أنَّها أمَّةٌ منقلبٌ حالُها ومنتكُس شأنُها ، وأنّها إلى زوالٍ أقرب .

ولسانٌ غيرِ قليلٍ من الذّكور نَاطقٌ بأنّهم يتمنّون أن يكونوا إناثًا لما يرونَ في مجتمعهم المنتكس من تهافتٍ على الإناثِ اشْتهاءً ، وتلبيتًا لرغباتهنّ تزلّفًا لنوالِ ما عندهنّ ، كذلك الّذي يمشِي كما يمشِين ، ويلبس كما يلبسْن ، ويتزيّن كما يتزيين ، ويمارس أعمالاً هي بالنّساء أخصّ ، وهُم في عصرنا ومصرنا المنكوبِ يتكاثرون تكاثرَ الجّراد ، وقد جاء على لِسان نبى الرَّحمةِ لعن المتشبّهِين من الرجال بالنساء والمتشبّهاتِ من النسَاءِ بالرجال ، روى البخاريّ فِي كِتابِ (اللباس) مِن صحيحه بسَنَدِهِ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاس ـ رضى الله عنهما ـ قَالَ : «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ».

ولو نظرَ كلٌّ إلَى ما في يمينه من نِعم الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ وليست في يد الآخر ، لعلمَ أنّ الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ ما جعله قطُّ هو المفضَّل عليْهِ الآخرُ ، بل هُو المُفضّل على غيرْه في أشياءَ وأشياء لا تسْتحصَى ، وهو المفضَّلُ عليْهِ غيرُه في أشياءَ وأشياء لا تسْتحصَى ، والله الخالقنا رب العالمين المستحقّ كمال الحمدِ لذاتِه ولربوبيّته العالمين ولأسمائه الحسنى وأفعالِه المثلَى هو الذي اصطفَى لكلّ مِن العالمين ما هو أَنْفَعُ لَه ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ .

والوقايةُ مِن دّاء تمنّي ما فضل الله تَعَالَى جَدُّهُ به غيرَنا علينا يتمثّلُ فِي استفحالِ اليَقِينِ بأنَّ الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ هُو العليم الخبير الحكيم ، فهذه

الأسماءُ الثلاثة كثُر ورودُها في سياقاتٍ مُتعدّدةٍ متنوّعة فِي البيانِ القُرآنيّ ، وممّا يَفدُ إلى القلبِ عند سماعِها أَوْ تلاوتها أنّه لا يكونُ منه ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ لعبادِه إلاّ ما ينفعُهم إذا ما رضُوا بقدرِه ، فإن سخطوا ، أوْ حاك في صدرِ أحدِهم شيءٌ ممّا قدَّر الله ـ تعالى ـ له ، فإنَّ ما قُدّر له سيكونُ وبالاً عليْه في مسيرِه الدّنيوي : لا يُحسنُ استثمارَ ما قُدّر له ، لأنّه غيرُ راضٍ به .

ورأسُ الانتفاعِ بنعمِ الله ـ تعالى ـ عليْك محبّتك لها من أنها وافدة إليْك من ربّك ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ ، فحبّك لها ويقينك أنَّ هذا هوالأصلح لك من غيرِه ؛ لأنّه عطاء مِمّن عرفك بنفسِه في أولِ كتابِه قائلا : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (الفاتحة:١-٤) هذا التعريف الإلهي بنفسِه لنا يجبُ أن يكون حاضِرًا في قلوبنا فاعِلاً فِي وعينا في حالِ الابتلاء الربّانيّ بالسّراء وبالضّراء ، فهذا يجعلُك تحسنُ العلمَ بما هُو مكنونٌ في هذا الّذي أنعمَ الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ عليْك ، وتحسنُ استثماره فيما ينفعك وينفعُ الإنسانيةَ جمعاء في مسيركم الدّنيويّ ، وهذا الاستثمارُ النّفيع هو عينُ الشّكر العمليّ للنّعمةِ .

وقد وعَد الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ أن يكون الجزاءُ على شكر النعمة زيادتها ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم:٧) ويدخل في «الكفر» هنا ـ بمقتضى المقابلة ـ كفرُ النّعمة المتمثلُ في عدمِ الرّضا بما قدّر الله ـ تعالى ـ منها ، واستقلالِها ، وإهمالِها ، وفِي الجهلِ بما تستعملُ فيه ، وفِي استعمالها في غيرِ ما خُلقت له جهالة أو عن علمٍ .

لذلك جاء هذا النّهي الرَّبانيّ يحاجزُ بِه الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ عبادَه عَن أن يتردَّى أحدُهم في هذا ، فيهلك ، وشأنُ ما أُعرِب عنه نهيًا أنّ مقاربتَه فيها مِن الإضرارِ بمَن يُقاربُ أو يُقارف ما يُعيقُ مسيرتَه إلى ربّه ـ تَعالَى ـ عبدًا سليمَ القلبِ ، فالمَنهيَّات في بيان الوحي إنّما هِي مِن عوائقِ العبادِ عَن تحقيق ما خلقَهم اللهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ له ، ومثل هذا حَرًى بكلّ عاقلٍ أنْ يكونَ على وعْيٍ جامعٍ بهِ ؛ ليتَّخذَ عُدّته تَحاجُزًا ، وتجانُبًا ، فالعلمُ بالمنهيَّاتِ مقدمٌ عَلى العِلْمِ بالمَأموراتِ ، فالتَّخليةُ تسبِقُ دائمًا التَّحلية ، ألا ترَى أَنَّ كلَّ عبادةٍ لَهَا نِيَّةٌ تسبقُ الشّروعَ فِيها ، وليستْ النِّيَّةُ إلاَّ تَخلِيةً لِلقلبِ مِن كلّ ما يُخالِطُه مِنْ مُلاحظةِ غيرِ اللهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ ، فالنِّيةُ بِمثابةِ الاغتسالِ والوضوءِ للصلاةِ ، فهِي طهارةٌ وتزكيةٌ وتصفيةٌ ، فالنواهي تحقّقُ تَهدِيم عَوَائقِ القُربِ والزُّلفَى ، بيْنا الأوامرُ في بيانِ الوحي تُحقِّقُ تَدعِيمَ وتَرْسِيخَ عواملِ القُربِ والزُّلفَى مِن اللهِ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ .

وَجاء بعد هذا النّهي التّربوي الحكيم الرؤوف الرحيم ببيان أنّ لكلٍّ نصيبًا ممّا اكتسب ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ﴾ (النساء:٣٢) لم يجعل ذلك لأيّ دون الآخر ، بل جعل لكلٍّ نصيبًا ممّا اكتسبَ ، أيْ ممًّا اكتسب من إيمانِه بقدرِ الله ـ تعالى ـ وكاملِ عِلْمِه وحكمتِه والنزول على مقتضَى ذلك في ظاهرِه وباطنه ، وممّا اكتسبه مـن طاعتِه ونزوله على ما جاء بِه الشرعُ[1] .

---

(١) ذهب ابن جرير إلى إعلاء أن المعنى للرجال نصيب من ثواب الله ـ تَعالى ـ وعقابه مما اكتسبوا فعملوه من خير أو شر ، وللنساء نصيب مما اكتسبن من ذلك كما للرجال . ، واستضعف القول بأن المعنى للرجال نصيب من الميراث ، وللنساء نصيب منه ، لأن الله جل ثناؤه أخبر أن لكل فريق من الرجال والنساء نصيبًا مما اكتسب ، =

ولما كان من فطرة الإنسان أن يحبَّ أن يكون عندَه من الخير ما هو طريف ولطيفٌ وعظيم ، لم يأتِ البيان القرآني ليَحرم المرْء من هذه الفطرة ، بل دلّه على ما يحقق له الخيرَ ، ويلبي هذه الحاجةَ الفطرية ، فجاءَ بهذا الأمر الرّباني الرحمانيّ : ﴿ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ (النساء:٣٢)

تبصر هذه المقابلة التَّربوية العليّة :

« نَهْيٌ عن أن يتمنى أحدٌ ما فضل غيره به

« وأمرٌ بأن يسألَ المرْء ربّه سُبْحَانَه وبِحَمْدِهِ من فضلِه .

فِي طاعة النّهي إقرارٌ بكمال العلمِ والحكمةِ لله ربّ العالمين أن فضل كلا بشيْءٍ هو الأنفع له .

وفي طاعة الأمرِ إقرارٌ بتبرّؤ العبدِ من الحولِ والقوة ، وإقرارٌ بعظم العَوَزِ إلى فضلِ الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ . وإقرار بعظيم واسع عطاءه جلّ جلالُه .

= وليس الميراث مما اكتسبه الوارث ، وإنما هو مال أورثه الله عن ميّته بغير اكتساب ، وإنما «الكسب» العمل ، و«المكتسب» : المحترف ، فغير جائز أن يكون معنى الآية «وقد قال الله : «للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن» : للرجال نصيبٌ مما ورِثوا ، وللنساء نصيب مما ورثن ؛ لأن ذلك لو كان كذلك لقيل : «للرجال نصيب مما لم يكتسبوا ، وللنساء نصيب مما لم يكتسبن»!!»

(جامع البيان في تأويل القرآن . تأليف ابن جرير الطبري : محمد بن جرير بن يزيد ابن الآملي (ت : ٣١٠هـ) تحقيق : أحمد محمد شاكر . مؤسسة الرسالة . ط. الأولى ١٤٢٠هـ . ٨/ ٢٦٧) وهذا من ابن جرير نظر حميدٌ في النّظم وسياقِه ، وقد تقول أليس كل قد اكتسب الإيمان الذي جعله أهلا لأن يستحق الميراث ولولاه لما ورث ، فإن الكافر لا يرث المسلم ، هذا معنى صحيح لكنه بعيد الورود على القلب وجعله عامًّا أوفى فيدخل فيه اكتسابه ما يؤهله لأن يرث ، والتأويل بالأعم أولى مالم يكن عائق عن القول فيه».

جاء الأمر الرَّبانيّ مُحفزًا كلَّ سامعٍ أن يهيّئ نفسَه لتلقّي فضل الله ـ سُبْحانَهُ وتَعالَى ـ ، وكأنّ النّظم يقول لي ليسَ بلوغ فضل الله إليك متوقفًا عَلَى شيء سَوى أن تسأل الله ـ تعالى ـ صَادقًا من فضلِه ، وأن تكون قد هيّأت نفسَك للتلقّي ؛ لأنَّ فضلَ الله ـ سبْحانَه وبِحَمْدِهِ ـ على الله كريمٌ ، وهو لا ينزلُه إلا حيثُ يليقُ بِه ، الله ـ سُبْحانَه وبِحَمْدِهِ ـ لا يُنْزلُ نعمَه إلا في الموضِع الأليق بِها ، فإن أنزلَها على من لا يستحقّ ، فإنّما هِي نِقمة في حقيقتها يراها الترابيون ببصرهم نعمةً ، ويراها أهل البصِيرةِ نقمة على نحو ما هدَى إليه البيان القرآنيّ في قصة قارون . : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴾ (القصص:٧٩،٨٠)

الأمرُ في قوله (اسْألوا اللهَ مِنْ فضله) في هذا السّياق فيه إيجابٌ ممزوج بامتنانٍ وإرشادٍ ، أرأيت في العالمين جوادًا يُغرِي النّاس أن يسألوه من خيرِهِ؟ إن اللهَ ـ سُبْحانَه وبِحَمْدِهِ ـ من بعدِ أن حثك على أن لا يكونَ لك اختيارٌ مع اختيارِه لك ، أغراك بأن تتزلّف إليه بسؤاله من فضلِه ، وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ الأعلى أن (مِن) ليست للتبعيضِ بل للتَّبيين ، وإن كان للتبعيض فيما أفهمُ وجهٌ ليس بالمَرغوبِ عنْه :

في التبعيضِ معنى أنّه ليس بمَلْك أحدٍ أَن يَسْألَ الله ـ تعالى ـ فضلَه كلَّه ، فإنّ فضلَه لا يُحاطُ بِه ، فكَيفَ يتأتّى لأحدٍ أَن يسأل ما لا يُحاطُ به علمًا ؟

* * *

جاءتْ الآيةُ الأولى من هاتين الآيتين : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ... ﴾ (النساء:٣٤) غيرَ معطوفةٍ لأنّها ابتداءُ معنى جديدٍ يَنبتُ في ساق سورة

(النّساء) الّتي جذرُ معانيها (تأسيس المجتمع المسلم على العدلِ والرَّحمة) ، فهي فرعٌ ينبتُ من ساق السّورة ، وهو ما يسمونه (الاستئناف الابتدائيّ) ، وهذا الضربُ من البيانِ علاقتُه بسائر المعاني راجعةٌ إلى الغرضِ المحوريّ (المعنى الأمّ) السَّاري فِي ساقِ الشَّجرة ، وفروعها وأغصانها ، وأوراقها ، وأزهارها وثمارها .

هذه الآيةُ الممثّلة فرعًا جديدًا من فروعِ المعنَى القرآنيّ الأمّ في سورة «النّساءِ» ، جاءتْ عقيبَ نهي الله ذي الجلالِ والإكرامِ لنا أن يتمنَّى كلٌّ ما فضّل الله ـ تعالى ـ بِه بعضًا على بعضٍ ، فإنَّ في هذا التّمنِّي شائبة سوءِ أدبٍ مع الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ ؛ لأنّ المتمنى ما لم يُعطَ وكان لغيرِه لا يفعلُ ذلِكَ إلاّ لعلمِه بأنَّ ما يتمناه وقد حُرم منه ما هُو الأصلحُ له ، فكأنّه يريدُ من الله العليّ العظيمِ أن يؤتيَه ما لم يؤتِه ، فهو في زعمِه الأصلحُ له ، فحثّنا ـ جلَّ جلالُه ـ على ما هُو خيرٌ لنا دون تعيينِ ذلك الشّيْءِ ، حثّنا علَى أنْ نسألَه ـ جَلّ وعلا ـ من فضلِه ، لا ما فضّل به بعضَنا على بعضٍ ، فهُو العليمُ بكلٍّ شيْءٍ : العليمُ بما هُو صالحٌ لنا ، وما نحنُ صَالحون له وبه ، فمن أدبِ العُبوديّة لله ربّ العالمين أنّه إذا خيّر العبد أن يختار اختار ألاّ يختار ، وأن يفوِّضَ الأمرَ إلى سيّدِه ، لأن في اختيارِ العبد إيذانًا بأنَّ له من العلم بما هُو خيرٌ له ، فهُو المتكفل بنفسِه ، ومن وقع في ظنٍّ أنّه الْمتكفلُ بنفسِه ، فقدْ وقَعَ فِي مهلَكةٍ ، لمَّا كان ذلك أبان لنا وجهًا مِن وجوهِ تفضيلِ بعضٍ على بعضٍ ، وعَن أصولِ العلاقة بين الرجال والنساءِ .

* * *



المُـدارسَة الثَّـانِية
العلاقةُ بيْن الرجل والمرأة في حالِ المسَالَمة
أحكامٌ وآدابٌ

العلاقة بيْن الرجل والمرأة ضربان :

- علاقة في حال المسالمة والمساكنة والمساندة .
- وعلاقةٌ في حال المخالفة والمباعدة والمشاقة .

الضربُ الأوَّل جاء يُبِينُ عن أصولها قولُ الله ذو الْجلالِ والإِكرام :

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾

(النساء: ٣٤)

والضربُ الآخر جاء يُبِينُ عن أصولها قولُ الله العلي الكبير :

﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ (النساء: ٣٤، ٣٥)

وقد نسق البيان عن الحالين نسقًا تصاعديًا ، وكان لإبراز الوصل بـ« الواو » حضورٌ قويّ .

* * *

استهلّ ما يُبينُ عن أصُولِ العلاقةِ بين الرَّجلِ والمرأة في حال المُسالمة والمُساكنة والمساندة بجملة اسميّة الصَّدر والعجز ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ (النساء:٣٤) ، وهي خبرٌ يُفهِم الأمرَ الوُجوبيّ على «الرَّجلِ» و«المرأة» معًا ، فمن قصَّر من الرِّجَالِ في القيامِ على نسائِه رعايةً وحمايةً لا تسَلطًا ، فقد عصَى الله ـ جَلّ جلالُه ـ ، أوْ ردَّ الأمرَ عليْه ـ تعالى ـ ، ومن قصّرتْ من النّساءِ في قبول قيوّمية رجالها عليها فقد عصَت الله ـ تعالى ـ ، أوْ ردَّت الأمرَ عليْه ـ عَزَّ وجلَّ ـ .

الآيةُ لا تُخبرُ بواقِعٍ قائمٍ ، وإلاَّ فإنَّ عُظمَ ما يَجري في عصرِنا ومصرِنا يكذّبه ، فوجبَ أن يكونَ ذلك أمرًا في صُورة خبرٍ ، فالواقعُ قرينةٌ حاليّة صارفة لصورة الكلامِ عن ظاهرِها . وهذا من سنن العربية .

وجاء النَّبأ بأنَّ الرجال قوَّامون على النساء في أسلوب خبري ، لا أسلوب أمرٍ إفادة لأنَّ حقه أن يكون متحقّقًا يخبر عنه ، لا أن يؤمر به ليتحقق ، ذلك أنَّ في الفطرة البشرية السَّوية أنَّ المرء مفطورٌ على أن يكون قوَّامًا على بعضه ، والمرأة بعض الرجل ، ففطرته داعية فتية إلى تحقيق ذلك ، فما هو ـ إن كان سويًّا ـ بحاجة إلى ما يدعوه إلى ذلك من خارجه ، فمن لم يقم بذلك فقد خالف داعي الفطرة من قبل أن يخالف داعي الشرع ، وفي هذا من التعظيم لحقّ النساء في قوامة الرجال عليهن ما فيه .

دلالة الإعراب عنهم باسم الرجال :

والإعرابُ عن المُسند إليه (المبتدأ) باسم «الرّجال» هادٍ إلى إبراز صِفة نفسيّة لا صِفة جسديّة ، بخلاف ما تراه في قوله ـ سُبْحَانَه وبِحَمْدِهِ ـ : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ (النساء:١١)

فالاعتدادُ في أحكـامِ الميراثِ بالصّفة الجسديّة «الذّكورة» ، فللذّكر وإن كان مخنثًا نفسيًا ضعف حظّ الأنثى في بعض حالات التوريث ، وإن كانت قوتها النفسية أكثر فتاءً منه ، أو كانت ممّن يؤخذ عنها دقائق العلم والحكمةِ ، فليس للرّجولة دخل في أحكام الميراث ، الذي له دخلٌ في هذا هو الذكورة والأنوثة .

واستحضارُ الخصائصِ الدّلالية لما يُعربُ به البيان القرآنِيُّ عن المتحدث عنهـم أوعَليـهم أمرٌ مـهمٌّ جـدًا فـي السّعي الجادّ إلى حسنِ الفهم عن الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ ، الذي هو أس حسن العبوديةِ والعِباديّة القُنُوتِ للهِ ربّ العالمين .

والاعتدادُ في القوامة والولايةِ بالصّفة النَّفسيّة أوَّلاً ، لذا كان البيانُ بقوله : «الرّجال» ذلك النّعت «الرّجل» ليس بالمستمد من أنه يمشي علـى رجليـه كما يقول ابن فارس في «مقاييس اللغة» فالمرأة كذلك تمشِي على رجليْها ، بل هو مستمدٌ من قيام المنعوتِ به على رجليه للوفاءِ بما قام له ، وهذا دلالة على عظيم اعتنائه به وامتلاكه لأدواته وخبراته ، فلـيس كـلّ ذكـرٍ مـن البشـر برجلٍ ، بل الذُّكران فيهم جدّ كثير ، والرجال فيهم جدّ نزيرٍ .

وكان الإعـرابُ عـن المسـند (الخـبر) بقولـه (قوَّامُـون علـى النّسـاءِ) دون «قائمون» أوْ نحو ذلك ، للدّلالة على الإبـلاغِ في تحقيـق الفعـلِ (القوامـة : الرِّعاية والحماية حسًّا ومعنًى) ، فالقيامُ والقُوامة لا تكونُ إلاّ من عزمٍ فتيّ ، ووَعي مُحيطٍ ، وحكمةٍ ضابطة ، وحلمٍ حزام ، واتساع صدرٍ ، وتأْليف قلوب ، تلك هي مقوّمات قوامةِ الرّجال على النّساء ، وحسـنُ الوفـاء بحقهـا يحتـاجُ

المَرْءُ لتحقيقه إلى تعليمٍ صَفِيٍّ ، وتعلم فنِّيٍّ ، ودُربة مَليّة ، وخبرة متغورةٍ ، ومراقبة واعِية لصَنائع الأعيانِ من الرّجال الذين أحسنوا القوامة على نسائهم ، فالأمرُ ليس باليسير ، فإنّ رعايةَ النِّساءِ وحمايتهنّ حسًّا ومعنًى مِن أعسرِ ما يكونُ ، وإنَّ ترويضهنَّ جدّ عسِير على كثير لما لِغير قليلٍ مِنهن مِن عقولٍ ونفوسٍ تستْعذبُ التّمرّد والاعوجاجَ .

روَى الشَّيخان البخاري في باب : (أحاديث الأنبياء) ، ومسلم من كتاب «الرّضاع» بسندهما عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ـ رضى الله عنه ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صلّى الله عليْه وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّمَ ـ : «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَىْءٍ فِى الضِّلَعِ أَعْلاَهُ ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ»

هذا البيان النبويّ ذو نصِيحةٍ جليلةِ القدرة نافذة في أعماق المرأة لَو أحسنَ الرّجال فقهها ، وأخذوا بها لاستقامت الحياة ، ولتلاشتْ مُعضلات من حياتهم الأسرية ، وليس في الحديث شائبة مذمة للنساء بل هو بيان لما فطرن عليه ، ومن فطر على أمر لا يذم به لأنه ليس من كسبه .

في الحديث توجيه للرجال إلى إحسان استثمار ما فطرت النساء عليه ، وفي هذا رحمة بهن عظيمة ، ولذلك استفتح البيان بقوله استوصوا بالنساء حتى تكون علاقة الرجال بهن محاطة بهذا .

روى مسلم في باب (البرّ والصلة والأدب) في صحيحه بسنده عَنْ عَائِشَةَ ـ رضِيَ الله عنها ـ عَنِ النَّبِىِّ ـ صلّى الله عليْه وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّمَ ـ قَالَ : «إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِى شَىْءٍ إِلاَّ زَانَهُ وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَىْءٍ إِلاَّ شَانَهُ» .

وروى فيه بسنده عَنْ عَمْرَةَ ـ يَعْنِي بِنْتَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ـ عَنْ عَائِشَةَ ـ رضي الله عنها ـ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صلّى الله عليْه وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّمَ ـ قَالَ : « يَا عَائِشَةُ ، إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ » .

وروى فيه بسنده عَنْ جَرِيرٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْه ـ عَنِ النَّبِيِّ ـ صلّى الله عليْه وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّمَ ـ قَالَ : « مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ » .

وروى الشيخان : البخاري ومسلم بسندهما : عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْها ـ أنّ الرسول ـ صلّى الله عليْه وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّمَ ـ قال لها : « يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ ».

وروى مسلم في كتاب (الإمارة) في صَحيحه بسنده عن أم المؤمنين الصديقة سيّدتنا عائشة ـ رضِيَ الله عنها ـ أنّها قالتْ : سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، يَقُولُ فِي بَيْتِي هَذَا : « اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ ».

وهذا ليس بالمقصورعلى وَلِيِّ الأمر العام : « الرئيس والملك والأمير.... » وما شاكه ذلك ، بل يدخلُ فيه كلّ من ولي أمرًا للمسلمين أبًا أو زوجًا أو أخًا ، أوْ معلمًا . . . كلُّ ذي ولاية وإن صَغرتْ حجمًا ونوعًا وقيمةً هو نازلٌ عليْه ذلك إنْ رفقًا ، فرفق ، وإن مشاقة ، فمشاقة ، فليخترْ كلٌّ لنفسِه ، وليكن في وَعيه أنّ ذلك دعاءٌ ممّن أرسله الله ـ تعالى ـ رحمةً للعالمين

ـ صلّى الله عليْه وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّمَ ـ وجعله ربُّهُ ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا ، وهُو الّذي لا تردُّ دَعوته ، فاختر لنفسك .

واصطفاء «على» في قولِه : ﴿ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ لا يدلُّ على التَّسلّطِ ، هو دالٌّ على الإحاطةِ والتّمكّن والدَّيمومة ، فمن صدقتْ رجولته وزكتْ لا يتسلّط قطّ على امرأةٍ ، القويّ لا يخاف أن يُتمرّد عَليْه ، ويُغلب ، والقوي لا يسْتكبرُ على الضعفاء حسًّا ومعنًى ، ولا يتسلطون إذا مُلِّكوا .

والمرأةُ السّويّةُ لا تحتاجُ إلى أنْ يُتسلّط عليها لتستقيم على الجادة ، فبلحظِ العين تكفّ عن الخطأ ، فإن افتقرت إلى التّسلط عليْها لِتسْتقيم ، فما هي بامرأةٍ إنّما هي أنثى ، شأنُها شأنُ كلّ أُنثى في غير عالمِ الإنسان ، وما علمنا قطّ أنَّ سيّدَنا رسولَ الله ـ صلّى الله عليْه وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّمَ تسلط على امرأةٍ من نسائه أو بناته . وهو الأسوة الحسنةُ .

وإذا ما كان من هدي النّبوةِ في العلاقة العامَّةِ بيْن المسلمين قوله ـ صلّى الله عليْه وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّمَ ـ : **«الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»** فالمرأة عامّة والّتي للرَّجل عليها قوامةٌ مِن زوجٍ أو بنتٍ أو أمّ ... أحقُّ بأن لا تُظلمَ ، وأن لا تُسْلمَ لنفسِها وغيرها ، فحقها أن لا يُسلمها ولِيّها إلى ما يَعتلجُ في نفسِها من الشَّهواتِ والشُّبهاتِ ، وما يُحيطُ بها من أفاعيل الذين كرهوا ما أنزل الله جَلَّ جَلالُهُ ، فحرى ألا تُضّام امرأة ما مِن قبل وليها تقصيراً .

دلالة الإعراب عنهن بالنّساء :

والإعراب عنهنّ باسم (النّساء) وهو اسمُ جمعٍ لا مفردَ له مِن لفظِه ، مفردُه « امرأة » واسمُ « امرأة » من المروءة التي روحها « الحياء » ، وكلمة « نساء » إمَّا من « أنس » أو « نسأ ».

إنْ تكن من مادة « الأنس » فهذا فيه إنباء بأنّ عمودَ الأمر فيهنّ الأنس بهن ﴿ لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا ﴾ (الروم:٢١) ، فمَن لم تكن معدِنَ أنس أهلها من أبٍ وأخٍ وزوجٍ وولدٍ ، فما هِي مِن النّساء في شيْء ، مثل الّتي لمْ يكنْ فيها مِن المروءةِ ما يُحاجزها عن ما لا يَليقُ بِها وبقومِها ، فما هي بامرأةٍ ، بل هي الأُنثى .

وإنْ يكنْ اسم « النّساء » من النّسأ : التّأخير ، فهذا إعرابٌ عن أنّ شأنهن أن يكنّ غير مقدَّماتٍ على الرّجال ، بل هنّ في رعايتهم ، ولا يليق بالمرأة أن تكون المقدّمةَ على منْ هو ضريعها من الرّجال في العقل والخلق ، فكيف إذا ما فاقها [1]..

---

(١) من انتكاسِ الفطرة ما تراه في المجتمعات التي أسلمت قيادها لغيرها في عاداتها وأخلاقها أنهم يقدّمون النساء في السيرِ أمامهم ، وفي الدخول . وهُم يعدُّون ذلك من أصول التحَضّر ، ومن لم يفعل فقد تحجّر . .

روى الشَّيخانِ : البُخاريّ في كتاب (أحاديث الأنبياء) و(الاعتصام بالكتاب) ، ومسْلِمٌ في كتابِ (العلم) مِنْ صَحيحيْهما بِسنَدِهِمَا عَنْ أَبِى سَعِيدٍ ـ رضى الله عنه ـ أَنَّ النَّبِىَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ قَالَ : « لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ ». قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالَ : « فَمَنْ »

وما هذا من استنقاصِها - معاذ الله - وإنما هذا من الحفاظِ عليها ، فإنّما هي درة قومِها ، وعرضهم . أرأيت «دُرّة» لا تُحاط بما يحفظها من أنْ تلمسها يدٌ ، ومن بذلت نفسها لكل عين تغرس في جسدها ، فما هي بدرَّة ، بل هي «ضُرة» مكْنَزُ ضرٍ ومسْتودع إيذاء ، فكيف بالّتي تبذل نفسها لكلّ ناظرٍ أو لامِسٍ ؟!!

* * *

مفهومِ القوامةِ : تدورُ هذه المادة اللغويّة على محور معنوي يتمثّل في الانتصابِ في عزمٍ على فعل أمرٍ ما ، فالقائمُ على أمرٍ هو الحافظُ له والمصلِحُه ، والرَّاعيه ، والسائسُه ليَبلغ بِه ما ينفعه ، وقيّم القومِ : منْ يقوّمهم ويَرْعَى أمورهم ويسُوسُه ، والقوام (فعّال) صِيغة مبالغة : مُناط المبالغة في القوامةِ كيفيّةُ الفعلِ ، واستِمْراريتُه وإتقانُه وحفظه .

وهذا يؤسّس لمفهوم القوامة الاصطلاحيّ المتمثل في تفويض من يكون القيّمَ في أن يتخذَ من التدابير ما يحقق بِه رعايةَ ما يقومُ علَيْه واستثمارِه وحفظه من كلّ ما يُمكن أن يلحق بِه ضُرًا حسيًا أومعنويًا عاجلاً أو آجلا ، جليًا أو خفيًا .

وقد جاء هذا المصطلح في مدونة فقه الشريعة في أبوابٍ كليةٍ ثلاثة :

بابِ رعاية اليتيم ، وهو ما يعرف بكفالة اليتيم .

وباب رعايةَ الأوقافِ الخيرية ، وهوما يعرف بناظرِ الوقفِ .

وبابِ رعاية الزّوجِ امرأته وأهلَه .

والبابُ الثالثُ هو مناط القول هنا .

* * *



القوامة حقٌّ للمرأة على الرّجل

كان من حكمة اللهِ ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ أن خلقَ الرَّجلَ على نَحوٍ يُطيقُ به القيامَ بالقوامة على المرأة ، فهي قوامةُ تكليفٍ مسؤُول عنه ، لا يثمرُ تشريفًا يوم القيامةِ إلاَّ لِمن استوفاه حقَّه ، ولمَّا كانت القوامة ذات تكالِيفَ لا قبلَ للمرأة أن تؤديها لنفسِها ، فضلاً عن أدائها لغيرِها ، أظهرها قوامة الجهادِ والدّفاع عن الدِّين والعرضِ والنّفسِ والأرضِ وما أنعم الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ به ، فقوام كلّ شيْءٍ ما استْقامَ بِه ـ لمّا كان ذلك كان مِن الرَّأفة والرّحمةِ بالمرأةِ أن لم تجعل القوامةُ عليْها لنفسِها ، بل سخَّر الله ـ جَلّ جَلالُهُ ـ لها الرّجل ، ليكون راعِيها وحارسَها ، ومكرمَها ـ فَعلَى كلّ مسلمةٍ أنْ تفقهَ قولَ الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ (النساء:٣٤) في صُحبة قوله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية:١٣) وعلى أنّ هذا تكرِمَةً لها فتحمدَ الله ـ تعالى ـ على ذلك ، وتشكره على تلك النعمةِ شكرًا عمليًّا يتمثل في قول لسان حالها سمعنا وأطعنا في غَيْرِ معصِية الله ـ تعالى ـ ، فالرّجلُ مسخَّرٌ للقوامةِ على المرأةِ ، وهي مسَخرةٌ لتحقيق السَّكينة للرّجلِ ، فكلٌّ مسخَّر للآخرِ ومفضّلٌ عليْه في بابٍ ؛ ليكونَ في هذا ابتلاءٌ لكلٍّ ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ (الأنعام:١٦٥) ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ (الفرقان:٢٠)

المرأةُ مستحقةٌ لقوامةِ الرّجل عليها رعايةً وحمايةً ، وهذا حقّها على الرّجل ، وليس لها أن تتنازلَ عنه ، فتكونَ القيّمة على نفسِها ، لأنَّ في تنازلِها

عن حقّها مع وجُودِ من هُو أهلٌ للقوامَة عليها فسادًا وإفسادًا فادحينِ ، وحينئذٍ يكونُ حقُّ المُجتمعِ أن يكونَ الرّجلِ قيّمًا عليْها ، فليس كلُّ ذي حقٍّ له أن يتنازلَ عن حقّه إذا ما كان تنازلُه عنه يترتّبُ عليْه إضرارٌ بآخرين ، فثَمَّ أصلٌ محكَمٌ يضبطنا : « لاَ ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ » على ما جاء بِه البيان النّبويّ ، كما رواه ابن ماجه في سننه في كتاب « الأحكام » وأحمد في مسندِهِ ومالك في« الموطأ ». (صَحّحه الألباني في أكثر من سفرٍ) .

إن عَلى القائمين برعايةِ حقوقِ المرأة الحسّية والمعنوية في المنظمات المدنية أن يجعلوا هذا الحقّ للمرأة هو الأجدرُ بالعناية بدفع الاعتداء عليه ، والتقصِير في استيفائه ، فهو الذي يترتبُ على الوفاء بحقّه الوفاء بسائر حقوق المرأة حسّيها ومعنويّها صغيرِها وكبيرِها ، ذلك أنّه الحقُّ العُمدة ، وشأنُ الحكماءِ أن يُعنُوا أوّلاً بالكليّات الضّابطة ، وما هُو كلٌّ رئيسٌ محوريّ يَتّشِقُ به ما عداه ، ومَن شُغل بالجزئيّات عَنه لم تَتحقّق له الإحاطة ، وكان الّذي فاته أضعافَ الذي حصّله ، ومَن تمكّن مِن الكُليّات كان تمكّنه مِن كلّ الجُزئيّات مُحققًا ، تلك هِي سياسة الأمر وحِكْمَته ، وحَكَمَتُهُ .

إن علَيْنا أن نجعل تقصِير الرّجال في الوفاء بكَمالِ القوامة على النّساءِ مع القدرةِ على كمال الوفاءِ جريرةً لا تسقط بالتّقادم أوالتّصالح ، ذلك أن آثارَ هذا التّقصير ليست بالمقصُورة على تلك المرأة التي لم تسْتوفِ حقّها في قوامةِ زوجها أو وَلِيِّ أمرها عليها ، بل ذلك التقصيرُ ملحقٌ عظيم الضُّر بالأمّة كلّها ، جيلا بعد جيل .

إنّ امرأةً واحدةً لم تَسْتوفِ حقّها في قوامةِ زوجها أو ولي أمرها من أب أوأخ أو ما فوق ذلك عِند فقدهم ، وخُلّي بينها وبيْن نفسِها ، تفعلُ ما تشاءُ ، وتقولُ ما تشاء ، وتلبس ما تشاء ، وتخلع ما تشاء ، وتبذل ما تشاء لمن

تشاء ، وتأتي بما تشاء ، وتدعُ ما تشاء - إنّ امرأة واحدة كذلك لَهِيَ الوبال والوباء على الأمة جيلاً بعد جيلٍ .

* * *

مخرج استحقاقِ النساءِ قوامة الرّجال عليهن :

والبيان القرآني يُعرب عن مخرج هذا التكليف للرجال ، والاستحقاق للنّساءِ بقوله - تعالى - : ﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ (النساء:٣٤) أعرب عن أمرين أوجبا على الرّجال القوامة على النساء :

- **الأول** : وَهْبِيٌّ لا سبيل إلى انتزاعه مِن الرّجل ولا إلَى اكتساب المرأة له : يتمثل في قول الله - سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ - : ﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (النساء:٣٤) ، وهذا التفضيلُ بعضُه مجاله ما هو حسيّ كما في التَّكوين الجسدي للرجل ، وهذا لا يُمكنُ أن ينكره علماء الطبّ البشري من الرجالِ والنساء مسلمين وكافرين ، وبعضه مجاله ما هو معنويّ كما في القدراتِ النّفسية للرجال ، التي تتطلبها القوامة رعاية وحماية ، والتي لايُمكنُ أن ينكرها علماء الطبّ النّفسيّ من الرّجالِ والنّساء مسلمين وكافرين ، ولا تجد امرأة البتة تنكر تفضيل الرّجل بها عليْها ، فهذا التفضيلُ الوهبيّ تفضِيلٌ في القدرات والمهارات النّفسيّة والحسيّة ليس للمرأة مثلها ، وليس هذا عاملَ إنقاصٍ من قدْرِها ، فمَنْحُ اللهِ - تعالى - هذا الفضلِ للرّجال قابله تكليفٌ لهم لصالح المرأة ، فهُو من التّفضيل المثمر تكليفًا ، هو - سبحانَه وبِحمدِه - ما فضلهم إلاّ ليكلفهم[1]، وهو

---

(١) وكذلك ما فضل الله الإنسان بالعقل والتفكر والتدبر والاختيار بين الأشياء إلا ليكلفهم بعبادته وما كلفهم إلاّ ليجزيهم على الحسن إحسانا وعلى العصيان نيرانا .

ـ عَزَّ وجلَّ ـ ما كفَّ ذلك عن المرأة إلاَّ ليجعل الرّجل لها خادمًا وحارسًا ، وهي له سكنًا وحرثًا ، وبقدْرِ ما يبذلُ الرَّجل للمرأة مِن حقها رعايةً وحمايةً واسْتنصَاحًا بقدر ما تكونُ له سكنًا وسكونًا وسكينة ، ورَوحًا وريحانًا ، فكلٌّ يحدّد ما يكون له من الآخر بمقدار ما يكون للآخرِ منه ، فمَن رأى منْهما تقصيراً من الآخر ، فليبادر إلى نفسِه ليبصر مقدار تقصِيره هو من حقّ الآخر علَيْه ، ثمَّ لِيستعن بالله ـ تعالى ـ على أن يأخذ بيده إلى الوفاء لا أن يبادر باللوم والتأنيب والشَّكوى ، فليراجع كلٌّ حاله مع الآخر : أوفَّاه حقّــه عليه ؟ النبلاء يوفون ما عليهم ولا يسألون ما لهم .

ولم يأت البيان بنحو «بما فضل اللهُ الرّجال على النّسـاء» أو نحـو «بمـا فضل الله بعضهم على بعضهنّ»

- أمّا الأول : قولنا «بما فضل اللهُ الرّجال على النّساء» فلم يأتِ به البيانُ القرآني لفتًا إلى معنى البعضيّة القائم في العلاقة بين الرجل والمرأة ، فإن تكن المرأة في وجودها الأوّل (حوّاء) هي بعض الرّجل (آدم) ، فإن الرجل بعض المرأة ، فأنا بعضُ أمّي . ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ (الأحقاف:١٥) ، وهو مَعنًى مهمٌّ جدًّا في التّثقيف النّفسيّ لكلّ من الرّجل «راعيًا وحاميًا» وللمرأة مرعيّة محميّة ، مخدومةً .

كلّ يشعرُ أن بعضَه يقومُ علـى شـأنِ بعـضٍ ، فـلا يضـيقُ صـدرُ الرّجـل بتكليفه بالقوامةِ على النّسـاء ، ولا يضـيق صـدرُ النسـاءِ بـأن لم تجعـلَ لهـنّ القوامة على أنْفسِهنّ ، من ذا الذي يضيق ذرعا بأن يده اليمنى تغسل اليسـرى واليسرى تغسل اليمنى ، وأن عينه اليمنى وعينه اليسرى تتعاونان على الرؤية الصحيحة الكميلة للأشياء ، فالعلاقة علاقة تكامل لا علاقة تخاصم : ﴿ وَٱلَّيْلِ



إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ (الليل:١-٤) تبصر القسم وعلاقة مكوناته ببعضها والمقسم عليه : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ (الليل:١-٤) ففي هذا من التكامل ما تستقيم به الحياة .

- أمّا الآخر قولنا : (بما فضَّل بعضهم على بعضهنّ) فلم يأتِ به البيانُ القرآني ؛ لأنّ هذا لو جاء لَدلَّ على أنّ بعض الرّجالِ مفضَّلٌ على بعضِ النساء ، فيفهم أن بعضَ الرّجال غيرُ مفضلٍ على أحدٍ من النّساءِ ، وأنّ بعضَ النّساءِ غير مفضَّلٍ عليهن الرّجال ، وهذا غير صحيح ، فالبيانُ غيرُ مسوقٍ لهذا لا سوقًا أصليًا ، ولا سوقًا تبعيًا كما يقُول أشياخنا من علماء أصولِ فقه بيان الكتابِ والسّنة ، ولا سيما أصوليُّو الحنفية . . فالحقّ أنَّ كلَّ مَن اكتملت فيه مُقوماتُ الرُّجولة هو المفضّلُ على كلِّ امرأةٍ .

وعلينا ألا يغيبَ عنا الإعرابُ بكلمة «الرّجال» فمن تحققت فيه هذه الصِّفة هو لامحالةَ مُفَضَّلٌ على مَن تحقَّقت فيها صِفة «امرأة» ، أمّا مَن لم يفضّل على المرأةِ فما هو برجلٍ بل هو ذكرٌ ، ولذا لم يقل الذكور قوامون على الإناث .

المَعنى القويم إذن هو بما فضّل بعض الجنس الإنسانيّ وهُو الرّجال ، على بعضِ الجنسِ الإنسانيّ وهو النّساءِ ، فليس رجلٌ سَوِيٌّ إلاّ هو مفضلٌ ببعضِ المهاراتِ العمليةِ والقدراتِ النّفسية والحسيّة على النّساءِ ، وكلُّ امرأةٍ سويَّةِ النّفسِ والعقلِ توقِن أنَّ للرّجالِ الأسْوياءِ مِن هذه المهارات والقدراتِ ما ليس لواحدة من جنسِها ، وبعضُ هذه القدراتِ والمهاراتِ راجعٌ إلى التكوين الجسديّ لكلٍّ ، فليس للرّجال بذواتهم تميزٌ على النّساء ، بل ذلك بفضلٍ من الله ـ تعالى ـ ، وما كان من الله تعالى فحيّهل ، ومن ضاق صدرُه

بذلك فقد ظلم نفسَه ، وليس أحمق ممّن يَظلمُ نفسَـه ، فإنـه لغيرهـا أظلـمُ ، والظّلمُ ظلماتٌ يوم القيامة ، والله لا يحبُّ الظالمين .

كان ذلك قد انقدح أول ما تبصرت الآيات في نفسي من قبـلِ أن أقـرأ ما جاد به أهل العلم في تأويلها ، كما هو نهجي في التبصّر : أعيش مع الآيات مقيِّدًا ما يتوافدُ على قلبي من تبصّرها ، لأرقب حياة هذا القلبِ وضعفه ، وضلاله وصوابه ، فهذا حقّه عليّ فإنّه أمانة عندي ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء:٨٨،٨٩) ثمّ أسافر بَعْدُ في أسفار أهلِ العلم أقوّم عَوجي ، وأكمل نقصِي وأُسدّد خللي وأنفِي خبثي ... فكان ممّا قرأتُ ما جاد به الإمام العلامة « محمَّد عبده » ـ رحمه الله تعالى ـ ، (١٣٢٣هـ-١٩٠٥م) فرأيت أنّ ما انقدح في قلبي شيْءٌ قريبٌ مِن الذي قال ، ولمّا كانت بصيرتُه أنفذَ ، وعبارتُه ـ رحمه الله تعالى ـ أحكمَ وأجودَ وأنصح أثرتُ أن أرقنَها لتعلمَ كيف كان الأعيانُ من العلماءِ يُفكرون ويعبّرون .

يقول ـ رحمه الله ـ :

« وَالْمُرَادُ بِتَفْضِيلِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ تَفْضِيلُ الرِّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ ، وَلَوْ قَالَ : « بِمَا فَضَّلَهُمْ عَلَيْهِنَّ » ، أَوْ قَالَ : « بِتَفْضِيلِهِمْ عَلَيْهِنَّ » لَكَانَ أَخْصَرَ وَأَظْهَرَ فِيمَا قُلْنَا إِنَّهُ الْمُرَادُ ، وَإِنَّمَا الْحِكْمَةُ فِي هَذَا التَّعْبِيرِ هِيَ عَيْنُ الْحِكْمَةِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (النساء:٣٢) ، وَهِيَ إِفَادَةُ أَنَّ الْمَرْأَةَ مِنَ الرَّجُلِ ، وَالرَّجُلَ مِنَ الْمَرْأَةِ بِمَنْزِلَةِ الأَعْضَاءِ مِنْ بَدَنِ الشَّخْصِ الْوَاحِدِ ، فَالرَّجُلُ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ ، وَالْمَرْأَةُ بِمَنْزِلَةِ الْبَدَنِ ».

ثم يقول العلامة رشيد رضا ـ رحمه الله ـ (ت : ١٣٥٤ هـ ـ ١٩٣٥م) :

« (أَقُولُ) : يَعْنِي أَنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يَبْغِيَ بِفَضْلِ قُوَّتِهِ عَلَى الْمَرْأَةِ ، وَلاَ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَسْتَثْقِلَ فَضْلَهُ وَتَعُدَّهُ خَافِضًا لِقَدْرِهَا ، فَإِنَّهُ لاَ عَارَ عَلَى الشَّخْصِ أَنْ كَانَ رَأْسُهُ أَفْضَلَ مِنْ يَدِهِ ، وَقَلْبُهُ أَشْرَفَ مِنْ مَعِدَتِهِ مَثَلاً ؛ فَإِنَّ تَفَضُّلَ بَعْضِ أَعْضَاءِ الْبَدَنِ عَلَى بَعْضٍ بِجَعْلِ بَعْضِهَا رَئِيسًا دُونَ بَعْضٍ ، إِنَّمَا هُوَ لِمَصْلَحَةِ الْبَدَنِ كُلِّهِ لاَ ضَرَرَ فِي ذَلِكَ عَلَى عُضْوٍ مَا ، وَإِنَّمَا تَتَحَقَّقُ وَتَثْبُتُ مَنْفَعَةُ جَمِيعِ الأَعْضَاءِ بِذَلِكَ ، كَذَلِكَ مَضَتِ الحِكْمَةُ فِي فَضْلِ الرَّجُلِ عَلَى الْمَرْأَةِ فِي الْقُوَّةِ ، وَلِلْقُدْرَةِ عَلَى الْكَسْبِ وَالْحِمَايَةِ ، ذَلِكَ هُوَ الَّذِي يَتَيَسَّرُ لَهَا بِهِ الْقِيَامُ بِوَظِيفَتِهَا الْفِطْرِيَّةِ وَهِيَ الْحَمْلُ وَالْوِلاَدَةُ وَتَرْبِيَةُ الأَطْفَالِ وَهِيَ آمِنَةٌ فِي سِرْبِهَا ، مَكْفِيَّةُ مَا يُهِمُّهَا مِنْ أَمْرِ رِزْقِهَا ، وَفِي التَّعْبِيرِ حِكْمَةٌ أُخْرَى وَهِيَ الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ هَذَا التَّفْضِيلَ إِنَّمَا هُوَ لِلْجِنْسِ لاَ لِجَمِيعِ أَفْرَادِ الرِّجَالِ عَلَى جَمِيعِ أَفْرَادِ النِّسَاءِ ، فَكَمْ مِنِ امْرَأَةٍ تَفْضُلُ زَوْجَهَا فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ بَلْ فِي قُوَّةِ الْبِنْيَةِ ، وَالْقُدْرَةِ عَلَى الْكَسْبِ ، وَلَمْ يُنَبِّهِ الأُسْتَاذُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى عَلَى ظُهُورِهِ مِنَ الْعِبَارَةِ وَتَصْدِيقِ الْوَاقِعِ لَهُ وَإِنِ ادَّعَى بَعْضُهُمْ ضَعْفَهُ ، وَبِهَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ اللَّذَيْنِ أَفَادَتْهُمَا الْعِبَارَةُ ظَهَرَ أَنَّهَا فِي نِهَايَةِ الإِيجَازِ الَّذِي يَصِلُ إِلَى حَدِّ الإِعْجَازِ ؛ لأَنَّهَا أَفَادَتْ هَذِهِ الْمَعَانِيَ كُلَّهَا ، وَقَدْ قُلْنَا فِي تَفْسِيرِ : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ، إِنَّ التَّعْبِيرَ يَشْمَلُ مَا يَفْضُلُ بِهِ كُلٌّ مِنَ الْجِنْسِ الآخَرِ ، وَمَا يَفْضُلُ بِهِ أَفْرَادُ كُلٍّ مِنْهُمَا أَفْرَادَ جِنْسِهِ وَأَفْرَادَ الْجِنْسِ الآخَرِ ، وَلاَ تَأْتِي تِلْكَ الصُّوَرُ كُلُّهَا هُنَا ، وَإِنِ اتَّحَدَتِ

الْعِبَارَةُ ؛ لأَنَّ السِّيَاقَ هُنَاكَ غَيْرُهُ هُنَا ، عَلَى أَنَّنَا أَشَرْنَا ثَمَّةَ إِلَى ضَعْفِ صُورَةِ فَضْلِ النِّسَاءِ عَلَى الرِّجَالِ بِمَا هُوَ خَاصٌّ بِهِنَّ مِنَ الْحَمْلِ ، وَالْوِلاَدَةِ ، وَالرِّجَالُ لاَ يَتَمَنَّوْنَ ذَلِكَ»[1].

ويقول الأستاذ العلامة «سيد قطب» ـ رحمه الله تَعَالَى ـ (ت : ١٣٨٦ هـ -١٩٦٦ م) : «إنَّ الأسرةَ ـ كما قلنا ـ هي المؤسّسة الأولى في الحياةِ الإنسانيّةِ، الأولَى من ناحيةِ أنّها نقطة البدْءِ التي تؤثّر في كلّ مراحل الطّريق ، والأولى مِن ناحيةِ الأهميّة لأنَّها تزاولُ إنشاء وتنشئة العنصر الإنسانيّ ، وهو أكرمُ عناصر هذا الكون في التّصور الإسلامي .

وإذا كانت المؤسّساتُ الأخرى . . لا يُوكَلُ أمرُها ـ عادة ـ إلا لأكفأِ المرشّحين لها مِمّن تخصّصوا في هذا الفرع علميًّا ، ودرّبوا عليه عمليًّا ، فوق ما وهبوا من استعدادات طبيعية للإدارة والقوامة . . . فأولى أن تتبع هذه القاعدةَ في مؤسسةِ «الأسرة» الّتي تنشئ أثمنَ عناصرِ الكون . . العنصر الإنساني . .

والمنهجُ الرَّبانيّ يُراعي هذا ، ويُراعي به الفطرةَ ، والاستعدادات الموهوبة لشطريْ النَّفس لأداءِ الوظائفِ المنوطةِ بكلّ منهما وفق هذه الاستعدادات ، كما يُراعِي به العدالةَ في توزيعِ الأعباءِ على شطريْ النَّفس الواحدة .

والعدالةُ في اختصاص كلّ منهما بنوع الأعباء المُهيّأ لها ، المُعان عليها من فطرته واستعداداته المتميزة المتفردة . .

---

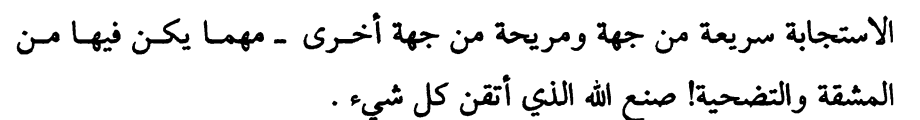
(١) تفسير المنار ، محمد رشيد رضا (ت : ١٣٥٤هـ) الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٩٠ م . ٥/٥٦

والمسلّم به ابتـداء أن الرجـل والمـرأة كلاهـمـا مـن خلـق الله ، وأن الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ لا يريدُ أن يظلـم أحـداً مـن خلقـه ، وهـو يهيئـه ويعـده لوظيفة خاصة ، ويمنحه الاستعدادات اللازمة لإحسـان هـذه الوظيفـة ! وقـد خلق الله النّاس ذكراً وأنثى .. زوجين على أساس القاعدة الكلية في بناء هـذا الكون . . وجعل من وظائف المرأة أن تحملَ وتضع وترضع وتكفـل ثمـرة الاتصال بينها وبين الرجـل . . وهـي وظـائف ضـخمة أولاً وخطـيرة ثانيـاً ، وليست هينة ولا يسيرة ، بحيث تؤدَّى بدون إعـداد عضـوي ونفسـي وعقلـي عميق غائر في كيان الأنثى !

فكان عدلاً كذلك أن ينـوطَ بالشـطر الثـاني ـ الرجـل ـ تـوفير الحاجـات الضرورية ، وتوفير الحماية كذلك للأنثى كي تتفـرغ لوظيفتـها الخطـيرة ، ولا يحمل عليها أن تحمل وتضع وترضع وتكفل . . ثم تعمل وتكد وتسهر لحماية نفسها وطفلها في آن واحد!

وكان عدلاً كذلك أن يمنح الرّجل مـن الخصـائص في تكوينـه العضـوي والعصبي والعقلي والنفسي ما يعينه على أداء وظائفه هذه ، وأن تمنح المرأة في تكوينها العضوي والعصبي والعقلي والنفسي ما يعينها على أداء وظيفتها تلك ، وكان هذا فعلاً . . ولا يظلم ربك أحداً . .

ومن ثَمَّ زودت المرأة ـ فيما زودت به من الخصائص ـ بالرقة والعطـف ، وسرعة الانفعال والاستجابة العاجلة لمطالب الطفولة ـ بغير وعي ولا سـابق تفكير ـ لأن الضرورات الإنسانية العميقة كلها ـ حتـى في الفـرد الواحـد ـ لم تترك لأرجحة الوعي والتفكير وبطئه ، بل جعلت الاستجابة لها غـير إراديـة! لتسهل تلبيتها فوراً وفيمـا يشـبه أن يكـون قسـراً ، ولكنـه قسـر داخلـي غـير مفروض من الخارج ولذيـذ ومستحب في معظـم الأحيـان كـذلك ، لتكـون



الاستجابة سريعة من جهة ومريحة من جهة أخرى ـ مهما يكن فيها من المشقة والتضحية! صنع الله الذي أتقن كل شيء .

وهذه الخصائص ليست سطحية ، بل هي غائرة في التكوين العضوي والعصبي والعقلي والنفسي للمرأة . .

بل يقول كبار العلماء المختصين : إنها غائرة في تكوين كل خلية ؛ لأنها عميقة في تكوين الخلية الأولى ، التي يكون من انقسامها وتكاثرها الجنين ، بكل خصائصه الأساسية! وكذلك زود الرجل ـ فيما زود به من الخصائص ـ بالخشونة والصلابة ، وبطء الانفعال والاستجابة واستخدام الوعي والتفكير قبل الحركة والاستجابة ؛ لأن وظائفه كلها من أول الصيد الذي كان يمارسه في أول عهده بالحياة إلى القتال الذي يمارسه دائماً لحماية الزوج والأطفال ، إلى تدبير المعاش . . إلى سائر تكاليفه في الحياة . . لأن وظائفه كلها تحتاج إلى قدر من التروي قبل الإقدام وإلى إعمال الفكر ، والبطء في الاستجابة بوجه عام! . . وكلها عميقة في تكوينه عمق خصائص المرأة في تكوينها . .

وهذه الخصائص تجعله أقدر على القوامة ، وأفضل في مجالها . . كما أن تكليفه بالإنفاق ـ وهو فرع من توزيع الاختصاصات ـ يجعله بدوره أولى بالقوامة ، لأنَّ تدبيرَ المعاش للمؤسّسة ومَن فيها داخل في هذه القوامة ، والإشراف على تصريف المال فيها أقرب إلى طبيعة وظيفته فيها . .

وهذان هما العنصران اللذان أبرزهما النّص القرآنيّ ، وهو يقرّر قوامة الرّجال على النّساء في المجتمع الإسلامي .

قوامة لها أسبابُها من التّكوين والاستعداد ، ولها أسبابها من توزيع الوظائف والاختصاصات ، ولها أسبابها من العدالة في التوزيع من ناحية وتكليف كل شطر ـ في هذا التوزيع ـ بالجانب الميسر له ، والذي هو معان عليه من الفطرة .

وأفضليته في مكانها . . في الاستعداد للقوامة والدربة عليها . . والنهوض بها بأسبابها . . لأن المؤسسة لا تسير بلا قوامة ـ كسائر المؤسسات الأقل شأناً والأرخص سعراً ـ ولأن أحد شطري النّفس البشريّة مهيّأٌ لها ، معانٌ عليها ، مكلّفٌ تكاليفها ، وأحد الشطرين غيرُ مهيّأ لها ، ولا معانٌ عليها . . ومن الظّلم أن يحملها ويحمل تكاليفها إلى جانب أعبائه الأخرى . . وإذا هو هيّئ لها بالاستعدادات الكامنة ، ودرب عليها بالتدريب العلمي والعملي ، فسد استعداده للقيام بالوظيفة الأخرى . . وظيفة الأمومة . . لأن لها هي الأخرى مقتضياتها واستعداداتها ، وفي مقدمتها سرعة الانفعال ، وقرب الاستجابة ، فوق الاستعدادات الغائرة في التكوين العضوي والعصبي ، وآثارها في السلوك والاستجابة! إنها مسائل خطيرة ..... إنّ هذه القوامة ليس من شأنها إلغاء شخصية المرأة في البيت ، ولا في المجتمع الإنساني ، ولا إلغاء وضعها «المدني» ـ كما بينا ذلك من قبل ـ وإنما هي وظيفة ـ داخل كيان الأسرة ـ لإدارة هذه المؤسسة الخطيرة ، وصيانتها وحمايتها ، ووجود القيم في مؤسسة ما ، لا يُلغي وجودَ ولا شخصية ولا حقوق الشّركاء فيها ، والعاملين في وظائفها ، فقد حدد الإسلام في مواضع أخرى صفة قوامة الرّجل وما يصاحبها من عطف ورعاية ، وصيانة وحماية ، وتكاليف في نفسه وماله ، وآداب في سلوكه مع زوجه وعياله»[(١)]

حملتُ إليْك كلام «العلامة» سيد قطب على طولِه لتملأ قلبك بما أجراه الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ إليك على لِسانه ، فلا تسدّنّ سمعك وقلبك عمّا أسداه الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ إليك على لسانه فتخضع لأفاعيل مُبغضيه ، فليس أحمق ممن يعرض عن نور في يد من يبغضه في أمرٍ من أمور الدنيا ، ويرضَى

(١) في ظلال القرآن . سيد قطب إبراهيم (ت : ١٣٨٥هـ) دار الشروق ـ بيروت ـ القاهرة . ط . السابعة عشر ١٤١٢ هـ . ٢/٦٥٠

بأن يتعثر في الظّلمة ، فمن مأثور عبد الله بن مسعود ـ رَضِيَ اللهُ عَنْه ـ قوله : (لا يكن أحدكم إمعة) [1]

والإمّعة هو الذي يجري فيما يجري فيه الناس إن خيراً وإن شراً ، يقول سمعت الناس يقولون فقلت ، رأيت النّاس يفعلون ففعلتُ ، على الرّغم من أن الله سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ يقُول : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (الإسراء:٣٦)

فالإمَّعَةُ هو ذلك الذي يقفو ما ليس له به علم لأن وليه قال له : لا تسمع لغيري ، اسمع كلامي أنا .

والإمعيّة هي حلية « المسْتنعجين » ولا يدخلُ المجد مستنعج ، إنّما مآل « النعاج » المجازر .

- **والآخر : كسبيّ : ﴿ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾** (النساء:٣٤)

تبصر الإعراب بالفعل (ينفق) ودلالة (منْ) وإضافة (المال إليْهم) .

في الإعراب بالفعل (ينفق) معنى جدّ نبيل كثيراً ما يُغفل عنه من كثرة استعمالِه ، وكثيرًا ما يتسبب ابتذال الكلمة ، وجريانها في ألسنة الدّهماء في الغفلة عمّا تحمله من معانٍ لطيفة استحضارها ذو أهمية بالغة ، وشأن أهل العلم وطلبته أن يجدّدوا الإحساس بما في هذه الكلمات التى ابتذلها استعمال الدّهماء ، فيكون هذا بمثابة إحياء الكلم وإحياء ولائد اللسان كمثل إحياء ولائد الإنسان .

---

(١) ورد في جامع الترمذي من كتاب (البر والصلة) بسنده عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « لاَ تَكُونُوا إِمَّعَةً تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا فَلاَ تَظْلِمُوا». قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ . (الحديث في سنده ضعف) ولذا أعرضت عن ذكره في متن القولِ مرفوعًا .

مادة «نفق» عمود المعنى القائم في ما يتولد منها من الكَلِمِ هو النفاذ والنفاد والمضاء.[1]. فالإنفاقُ هو أن يخرج المنفق المالَ من محله الذي هو فيه إلى ما يرى أنه يَجِبُ أن يكونَ فيه، وأشرفُ الإنفاق هو إخراجُ المال من النّفسِ واليدِ إلى ما يرضَى الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ أن يكون فيه، فخروجه من «النفسِ» يتمثل فِي أن لا تتعلّق به، فيكون خروجه منْها أسبقَ وقوعًا ومكانة من خروجه من اليدِ. وبهذا يتبين لك وجه من معنى قوله ﷺ: «تعس عبد الدّرهم ...» فاستعباد الدراهم نفوس العباد من أكثرها شرًّا على المستعبد وعلى الكون والحياة والإنسان، فأولى ما يجاهد المرء لتحقيقه هو تحرير نفسه من استعباد المال لها، وسيطرته على توجهها وحركتها في الحياة، مَن أخرجَ المال من يده، وبقيتْ نفسُه متعلقة به، تتبعه حيث ارتحل، فما هو بالمنفق؛ فَإنّه ما يزال المالُ قائمًا في النفس، وإن خرجَ من اليدِ فكيف نقول إنه أنفق والإنفاق في اللغة: الخروج بالكلية، كما يقضي به سنن اللغة، والإنفاقُ في الإسلام هو: إخراج المالِ من النّفسِ واليد إلى ما يُحب الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ أن يكون فيه، فإن الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ إنّما خاطب النّاسَ في كتابه «النور» بما هو معهود العربِ في الفهمِ والإفهام، كما أكّد ذلك سيدنا محمد بن إدريس الشافعي ـ رَضِيَ اللهُ عَنْه ـ (ت:٢٠٤هـ)، ولذا كان مِن السنة البيانيّة للقرآن الكريمِ اصطفاء فعل «الإنفاق» في بذلِ المالِ؛ حثًا على خروجِه مِن النّفسِ واليد، فلا يبقَى في النفسِ منه شيءٌ.

---

(١) ينظر «المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني كتاب (النون) فصل (الفاء) ومعجم لسان العرب لابن منظور: باب القاف، فصل (النون).

وهـذا معنًـى نبيـلٌ جـدًّا يجـبُ علينـا أنْ نثـوّره في النّفـوسِ حتّـى يكـون مستحضرًا احتسابًا لمرضَاةِ الله سُبْحَانَهُ وتَعالَى عند بذله ، ولا يُعين على هذا كمثل اليقين بأن ما يبذل لله احتسابا هـو الأبقـى (إلاّ كتفهـا) (١) المسـلم إذا أنفق نفقةً احتسابًا هـو يراها فـي يـد الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ وديعة ، وهـو الـذي لا تضيع ودائعه ، هو يربّها له كما هدى إلى ذلك بيان النبوة .

روى الشيخانِ في كتاب (الزكاة) من صحيحيْهما بسندهما عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ـ رضى الله عنه ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ ـ وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ ـ وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّى أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ».

وليس إنفاق الرّجل من مالِه على مـن هـو المكلـف بالقوامة علـيهم مـن النساء عوضًا عن ما له من القوامـةِ عليْهـا ، بـل الإنفـاقُ عليهـا لـه عليـه مـن

---

(١) روى الترمذيّ في كتاب (صِفة القيامةِ) من جامعه بسنده عَنْ أَبِى مَيْسَرَةَ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّـهُمْ ذَبَحُوا شَاةً فَقَالَ النَّبِىُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ « مَا بَقِىَ مِنْهَا ». قَالَتْ مَا بَقِىَ مِنْهَا إِلاَّ كَتِفُهَا . قَالَ « بَقِىَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا ». قَالَ أَبُـو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ . رواه أحمد في مسنده ، والحاكم في المستدرك ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة . حديث (رقم : ٢٥٤٤) وصَحيح وضعيف سنن الترمذي ـ حديث رقم : (٢٤٧٠) وصَحيح الترغيب والترهيب . حديث رقم (٨٥٩)

وفـي صحيـح مسلم من كتـاب (الزهد والرقائق) بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ قَالَ « يَقُولُ الْعَبْدُ مَالِى مَالِى إِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلاَثٌ : مَا أَكَلَ فَأَفْنَى أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى أَوْ أَعْطَى فَاقْتَنَى وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ». تأمل قوله ﷺ (أو أعطى فاقتنى) أرأيت إلى قوله (اقتنى) هو ادَّخره عند ربه تعالى الذي جاد به عليه ، فجاد هو على المال فأرجعه إلى ربه تعالى .

الجزاءِ بقدر احتسابه ، كما جاء به البيان النّبوي : « إِنَّكَ مَهْمَا أَنْفَقْتَ مِنْ نَفَقَةٍ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ ، حَتَّى اللُّقْمَةُ الَّتِي تَرْفَعُهَا إِلَى فِي امْرَأَتِكَ»[1] تدبر قوله ﷺ : « ترفعها إلى فيّ امراتك» قوله (ترفعها) تفهمنا أن من حسن الصحبة أن يطعم الزوج امرأته شيئًا في فيها يستزرع بذلك مودتها ؛ فإن له من ذلك ما يجعل حياتهما أكثر رحابة وتسامحًا .

وهذا الجزاء الحسن على الإنفاق من الرّزق الطيّب ليس بخاص بالمرأة الزّوجِ ، بل هو جامعٌ كلّ من كانت لك عليه ولاية ، من الوالدين والصَاحبة والأخ والأخت والأولاد . . . فأنفقت عليهم ، ولو أنّ الرّجالَ استحضروا هذا

---

(١) روى الشَّيخانِ : البُخاريّ في كتاب (الوصايا) ، ومسْلِمٌ في كتابِ (الوصية) مِنْ صَحيحيْهما بِسنَدِهِمَا عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِى وَقَّاصٍ ـ رضى الله عنه ـ قَالَ جَاءَ النَّبِىُّ ﷺ يَعُودُنِى وَأَنَا بِمكَّةَ ، وَهْوَ يَكْرَهُ أَنْ يَمُوتَ بِالأَرْضِ الَّتِى هَاجَرَ مِنْهَا قَالَ « يَرْحَمُ اللَّهُ ابْنَ عَفْرَاءَ » . قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أُوصِى بِمَالِى كُلِّهِ قَالَ « لاَ » . قُلْتُ فَالشَّطْرُ قَالَ « لاَ » . قُلْتُ الثُّلُثُ . قَالَ « فَالثُّلُثُ ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ ، إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ فِى أَيْدِيهِمْ ، وَإِنَّكَ مَهْمَا أَنْفَقْتَ مِنْ نَفَقَةٍ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ ، حَتَّى اللُّقْمَةُ الَّتِى تَرْفَعُهَا إِلَى فِيِّ امْرَأَتِكَ ، وَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَكَ فَيَنْتَفِعَ بِكَ نَاسٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ » . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَوْمَئِذٍ إِلاَّ ابْنَةٌ .

وفي رواية «مسلم» : « .... وَلَسْتَ تُنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِى بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلاَّ أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى اللُّقْمَةُ تَجْعَلُهَا فِى فِيِّ امْرَأَتِكَ » . قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أُخَلَّفُ بَعْدَ أَصْحَابِى قَالَ : « إِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ فَتَعْمَلَ عَمَلاً تَبْتَغِى بِهِ وَجْهَ اللَّهِ إِلاَّ ازْدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً وَلَعَلَّكَ تُخَلَّفُ حَتَّى يُنْفَعَ بِكَ أَقْوَامٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ اللَّهُمَّ أَمْضِ لأَصْحَابِى هِجْرَتَهُمْ وَلاَ تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ لَكِنِ الْبَائِسُ سَعْدُ بْنُ خَوْلَةَ » . قَالَ رَثَى لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَنْ تُوُفِّىَ بِمَكَّةَ» .

لعلموا عظيمَ إكرامِ الله ـ سُبْحانَه وبِحمْدِه ـ لهم ، ولو أنَّ المرأة استحضرت كيف أن الله ـ تعالى ـ يُغرى الرجال بإنفاق الرزق الطيب عليها لعلمت عظيم قدرها عند خالقها ، إذا ما تحققت فيها صفة «المروءة» التى عمادها «الحياء» وهو الذي لا يأتي إلاّ بخير .

ويدخل في هذا ما ينفقه الرّجل من مهرٍ لزوجه ، فهذا المهر لا تستحقه الزوج لاستمتاع زوجها بها ، فهي به مستمتعة كمثلِه ، إنّما المهور من الرّجال لأزواجهم صدُقات نِحلة (بضم الدال) لا صدَقَات (بفتح الدّال) ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾(النساء:٤)

وفرقٌ بين الصَّدُقة (بضم الدّال : عين الكلمة) والصَّدَقة (بفتح الدال) : الصّدُقة (بضمّ الدّال) آية الصدق في طلبِ الصحبة والإحسانِ فيها ، ولذا قال (نحلة) أي عطيّة بطيب نفسٍ لا عن عوضٍ ، تقول نحلت فلانًا كذا أي أعطيته بلا عوضٍ ، وفيه معنى الدّيانة والتزلف والتقربِ ، ومنه يسمى الدِّين نِحْلة ، وفيه مَعنى الإيجاب على الرّجل ، ولا يليقنّ بالزوجِ أن يبذل الصّداق لمن أراد زواجها ، وهو ضائق الصّدر بما يبذل لها ، ألا تراها قد بذلت له نفسَها ، فرضيت بأن تقيمه مقام أبيها ، بل تجعل طاعته مقدمةً على طاعة أبيها ، ولا يليقنّ بالمرأة أن تطلب قدرًا من الصداق ، لأنه ليس عوضًا ، فما هي التي تبيع شيئًا له لتطلب ، إنّما هو نحلة عطية طيبة إلا أنّها واجبةٌ عليه شريعةً وتزلفًا إلى الله ذي الجَلالِ والإكرامِ ، وتطيبًا لها ، ولا يلِيقنَّ بمن يُهدَى إليه أن يشترط ما يهدَى إليه ، إلاّ إذا رأت هى أو أبوها أو وليها أن هذا المهر هو ثمنها ، وأننا فى سوق «النعاج»نساوم في الأسعار ، وتلك معرة الدّهر التي يتردّى فيها كثير وهم غافلون .

المهمُّ أنّ إيجاب الصّداق على الزّوج نحلةً للمرأةِ إنّما هو إكرامٌ من الله العليّ العظيم للمرأة جعلها مطلوبةً لا طالبة ، يتزلف إليها بالعطيّة انتحالا ، ولو علمت النّساء هذا لأدركن عظيم تفضّل الله سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ عليهنّ .

ومِمّا يَجبُ أن يكون حاضرًا في وعينا أنَّ الغلو فِي الإنفاق على الزوج والأهلين في غيرِ ما هو ضرورة أو حاجةٍ ، على نحو ما نراه من بذل كثير من الأموال ، لتشتري الزوج ثوبًا تلبسه مرات قليلة في عمرها ، أو مرة واحدة بثمن يكفي إعاشة أسرة شهورًا أو تشتري حذاء (نعلاً) بعدة مئات بل آلاف ، ونحو ذلك إنّما هو من الإسراف والتبذير المقيت .

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾[1] (الإسراء:٢٦،٢٧) ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٣١-٣٣)

* * *

---

(١) تدبر قوله تعالى « إخوان الشياطين » فهذا بالغ التنفير من التبذير الذي بات سمة كثير من النساء في بيوتهن ، وتدبر الإعراب بكلمة « تبذير » فالبذر هو إلقاء الشّيْء على غير نسق ، تتناثر الأشياء في كل اتجاه بغير ضابط ، وكذلك من ينفق الأموال بغير ضابط .

وإذا ما نظرنا في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعالَى : (مِن أموالِهم) رأينا أن (مِنْ) قد يفهم منها معنى التبعيض ، مما يتواجب مع هدي الإسلام في النهي عن أن يخرج المرء من كل مالِه ، على ما هدى إليه سيدنا رسول الله ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ سيدنا سَعْدِ بْنِ أَبِى وَقَّاصٍ ـ رضى الله عنه ـ .

وفي إضافة «المال» إلى الضمير الراجع إلى «الرّجال» (أموالهم) معنى حثّ الرّجال على أنْ يكونوا حريصين على أن يكون لهم أموالٌ طيبة من عملٍ طيبٍ ، يبذلونه لأزواجهم ومن تجب نفقتهم عليهم ، وألا يهمل في اكتساب هذا المال الطيب ، « إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ فِى أَيْدِيهِمْ » ، ففي هذه الإضافةِ معنى الحثّ على الاجتهادِ في كسبِ المال الطيبِ كما في هدى النبوة : «نعم المال الصالح للرجل الصالح» ، ولا يستحقُّ المال أن يكون مالَك إلا إذا كان من عمل يدك ، أمَّا ما جاءك من غيركِ ولو هديةً ، فليس أهلاً لأن يكون جديرًا بالإضافة إليك ، فأنت لم تكن سببًا في وجوده في يدك ، فكيف يضاف إليك ؟ ، إنها إضافة على سبيل التوسع لا على سبيلِ الحقيقةِ ، تلك شرعة الرّجالِ ، وما رأيتَ رجلاً يفرحِ بما لم يكنْ من عمل يده ، وإن كان مباحًا له أخذه ، الرِّجال يصنعون ، ولا يُصْنع لهم ، وينتجون ولا ينتج له ، وينفقون من طيب يَمينهم ولا يُنْفق عليهم .

رَوَى البخاري في كتاب (البيوع) من صَحيحِه بِسندِه عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ عَنِ الْمِقْدَامِ ـ رضى الله عنه ـ عَنْ رَسُول اللَّهِ ﷺ قَالَ : «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِىَّ اللَّهِ دَاوُدَ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ» .

يأكل من عمل يده ، وهوالنبيّ الملك ، فكيف بالرعيةِ ، بهذا تعلم قدر أولئك الذين يستجدون لشعوبهم غذاءهم وكساءهم ، وتعلم قدر أولئك

الذين يقومون طيلة اليوم استجداء فحق على ولى الأمر ـ إن كان يفقه معنى الولاية العامة ـ أن يصدهم عن هذا العار والشنار ، فإن تركهم فهو الأولى بذلك العار وهو القادر على أن يمنع هذا المنكر المدمر قيم الآدمية فيهم ، فحقهم عليه ـ وليّ أمرهم ـ ألا يتركهم نهب أهوائهم ، وكم من حقوق على ولي الأمر الخاص والعام هو تاركٌ لها ، أو مقصّرٌ في الوفاء بها ، أو غافلٌ عنها ، أو جاهلٌ بأنها حقوق لرعيته عليها .

وعجيبٌ أن يصدّر عاقلٌ نفسه لولاية هو جاهلٌ حقوق من سيتولى أمرهم!!!

* * *

ضربا القــوامة :

القوامةُ الّتي هي حقّ للمرأة على وليّ أمرِها بدءًا من الزوج ، وانتهاءً بولي الأمرِ العام إن لم يكن لها وليّ غيره ، لا يجوزُ لها أن تَتنازَلَ عنْه لِما يترتَّبُ على التنازل عنه مِن المَفاسدِ العاجِلة الآجِلة ، فليس كلّ حقٍّ لصاحبه أن يتنازل عنه ، فثمَّ حقوقٌ يجب الوفاء بها وإن لم يطالب صاحب الحقّ به ، فمن حق الوالدين أن يَبرَّ بهما أولادُهما ولا يجوز التنازل عنه ، ومن حق الشعب على ولي أمره أن يحكمه بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، وليس من حق الشعب أن يتنازل عن هذا الحق ، ففي التنازل عنه فساد عظيم .

هذه القوامة ضربان : قوامة رعاية ، وقوامة حماية .

الضَّربُ الأوَّل : قوامة الرّعايَةِ :

الرِّعايةُ عَمَلٌ عميقٌ وسيع يبدأُ ولا ينتهِي ، وهو يتنوعُ بتَنوع حاجات المَرْعِيّ ، كما أنَّه يتحقّق وفقَ طاقاتِ الرّاعِي ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة:٢٨٦) ، ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ (الطلاق:٧)

ولمّا كان عملاً يتنوعُ بتنوّعِ حاجاتِ الْمَرْعِيّ كان هذا مستوجبًا أن يكونَ الرّاعِي عليمًا خبيرًا بحاجاتِ المَرْعِيّ ، وبطرائقِ إيفائهِ حاجاتِه علَى الوجهِ الَّذي تؤتِي الرِّعاية أُكلَها ، ومثلُ هذا أمرٌ ليْس يَجرِي على عَواهِنِهِ ، بلْ هُو وليدُ تبصّرٍ ومراجعةٍ وتفرّسٍ ومراقبةٍ وتجريبٍ ممّا يستلزمُ اتساعَ رؤيةٍ وانشراحَ صدرٍ ، مثلما يستلزِمُ صبرًا جميلاً وحكمةً سابِغةً بالغةً .

ولمّا كان الشّأن في الرّاعِي أن يعرِفَ مواطن الأمن النفسيّ ، والأمن الغذائي : كلأً رغيدًا ، وظلاً ظليلاً ، وماءً نَميرًا ، كان الرّاعي في شأن القوامة على النّساءِ عَليْه فريضة عيْنٍ أن يكونَ العليمَ بما هُو أساسُ التّكوين السَّليم للنفسِ والعقلِ والقلبِ والرّوحِ للمرأة ، قبل أن يكونَ العليمَ بغذاءِ جسدها وشفائه ، فهذه القوى الأربعُ السَّاكنةُ في جسدِ المرأةِ هي الأوْلى بالرِّعاية ، والأجدرُ أنْ يبذلَ في رِعايتها ، وتزكيتها ، نماءً وطُهرًا أضعافَ ما يُبذل في رِعايةِ الأجسادِ غذاءً وشفاءً ولباسًا ، ولو أنفقَ الرّجالُ على رعايةِ هذه القُوَى الأربعِ : النّفسِ ، والعقلِ والقلبِ والرّوح معشار ما يُنفِقُون على غذاء الأجسادِ وشفائها ولباسِها لكان لنا من النّسَاء غيرَ ما هو كائنٌ لنا مِنهنّ .

الرّعايةُ لا تكونُ منحصرةٌ في الرّعايةِ الحسّيّة للمكونات الحسّيّة للنسَاءِ ، وإلاَّ كان هذا ضربًا من الإهانة لهنّ ، والمرأةُ الّتي ترضَى مِن زوجِها خاصّة ، ومِن وليّ أمرِها عامَّةً احتفاءَه برعايتِها الحِسيَّة لِما هُو حسيّ مِنها ، إنّما هِي الَّتي لا تعرفُ قدرَ نفسِها ، ولا ترَى فرْقًا بيْنها وبيْن ما يشاركُها في الأنوثة مِن العوالم الأخرَى ، وتلك الّتي لا تَرضاها امرأةٌ على ظهرِ الأرضِ .

وكلُّ ما يبذلُه وليّ المرأة زوجًا وأمـا وأختـا وبنتًـا في قوامـة رعايتهـا إذا احتسبه عند الله تعالى ، يقيمُه في مقام عبادة هي أنفعُ له ولأُمّتـه مـن الصَّلاة النافلة ، لما لِهذهِ القوامة الرّعوية من جليل الأثر الطيـبِ علـى المـرأة نفسِـها وما يحيطُ بها ، وعلى المجتمع الإنسانيّ أجمعِهِ .

إنَّ يقين وليِّ الأمر بأن هذا العمل إذا أخلصَ لله سُبْحَانَهُ وَتَعالَى فيه واتخذت له عُدده ، واكتسبتْ مهاراته ، فأتقنَ كان عبادة بالغُ الأثر في جعل صدره منشرحًا لما قد يلقاه من صُعوباتٍ وكدًى ، فإن أكثر الأعمالِ ثوبًا أحمزها وأتقنها .

* * *

إن مبتدأَ القوامةِ رعايةً هو رعايةُ النفسِ ؛ لأنها تبدأ مع ميلاد الطفلِ وتمتد امتداد حياتِه ، هذه الرّعاية ربّما كانت في حقّ المرأةِ من أهمّ ما هي مفتقرةٌ إليه ، ومِن أصعبِ جوانبِ الرِّعاية لها وفاءً بحقّها ؛ لِما تحتاجُه هذه الرّعايةُ مِن امتلاكِ القائمِ لها كثيراً من العُدَدِ والمهاراتِ ، والدُّربةِ ، والحِكمةِ .

إنَّ مِن حقّ المرأة على مَن يقومُ برعايتها أن يحقّق لها كلّ ما يكسِبها التوازنَ النفسيّ في أحوالها المتنوعة ، والمتناقضةِ أيضًا ، فلا تبتلى باضطرابٍ نفسيّ ، فضلا عن الانهيارِ إذا ما واجههَا ضربٌ مِن الابتلاء بالضّراءِ ، كما هو شأن المؤمنِ مجالَ ابتلاءٍ بسراءَ يلقاه بالشّكر العملي المثمر ، ومَجالَ ابتلاءٍ بضراءَ يلقاهُ بالصبر الجميل .

ولعلَّ الجانبَ النفسيّ لدَى المرأة هو أكثر جوانبها تقلبًا وتناقضًا ، ممَّا يجعلُ رعايته رعايةَ تزكية وتنميةٍ ورسوخٍ حملا ثقيلاً .

وهذا يستوجبُ أن يكُون القيّمُ عليها رعاية عليمًا بالفروق النَّفسيّة بيْن الرَّجل والمرأةِ في كلّ أطوارهما العُمريّة ، فلوْ أنّه عاملَ المرأةَ كَمثلِ ما يُعامل الرّجلَ لَترتَّبَ على ذَلك مِن الضُّرِّ ما لا يُطاق .

وقد هدَى سيُّدُنا محمّدٌ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ - إلى الطَبيعةِ النّفسيّة للمرأة ، وحثَّ على الحكمةِ فِي التَّعاملِ معَها على ما جبلتْ عليه . روى الشّيخان البُخاريّ في كتاب (أحاديثِ الأنبياءِ) مِن صَحِيحِه ،

ومسلمٌ في كتاب (الرّضاع) من صَحِيحِه بسندِهما عَنْ مَيْسَرَةَ الأَشْجَعِيِّ عَنْ أَبِى حَازِمٍ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - قَالَ قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَىْءٍ فِى الضِّلَعِ أَعْلاَهُ ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ» .

وفي روايةٍ لمُسلمٍ في كتاب (الرّضاع) بسَنَدِه عَنْ أَبِى الزِّنَادِ عَنِ الأَعْرَجِ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - «إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ فَإِنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَبِهَا عِوَجٌ وَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا وَكَسْرُهَا طَلاَقُهَا» .

في رواية البخاريّ تقريرُ أن استقامةَ المرأةِ على طريقٍ أمْرٌ لا يكونُ لأنَّ ذلك لَيس مِن فطرتها ، فما هِي بالملومة على ذلك ، وما هذا بالمذمة لها منه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ - ، وإنما هو هدي للرجال لأن يحرصُوا على تدبير نهج يستثمرون به هذه الفطرة التي فطرت عليْها ، فلا يضيقُ صدره بها ، ولا ينفق جهده في إقامة ماكان فطرة معوجًا .

في رواية (مسلم) تصريح ببيان الهُدَى في القيام برعايتها والانتفاع بها ، والانتفاع بك ، وتحقيق السَّلام الاجتماعيّ ، تبصَّر قوله (فَإِنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَبِهَا عِوَجٌ) جعل اعوجاجها غير مانع من الاستمتاع بها ، ذلك أن اعوجاجها أمرٌ فطري غير مصطنع ، وكلَّ ما هو فطريّ ينتفعُ ويسْتمتعُ بِه إذا ما استبقِي على فطرته ، فإن مارسْتَ فيه تغييراً كان ذلك وبالاً ، ولذا قال

ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ «فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ» أي إن تركته على فطرته ، لم يزل أعوج ، يثمر ما خلق لإثمارِه على اعوجاجِه .

هذا مبدأٌ كليّ في التّعاملِ مع الأشياءِ : استَبْقِها على فطرتِها ، وانتفعْ بها على ما هِي عليْه ، ولا تتدخّل زعمًا منْكَ أنّك تُصْلِحُ ، فإنَّ صَلاحَها في ما فُطرتْ عليْهِ .

وجميلٌ أن كان الإعرابُ بقولِه ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ (اسْتَمْتَعْتَ) دون «انْتفعْتَ» ذلك أنّه لا يكونُ اسْتمتاعٌ آدميٌّ بشيءٍ إلاَّ كانَ مَمْزُوجًا بمِنفعةٍ حسيّةٍ أو معنويةٍ ، وقد تكونُ مَنفعَةٌ بغيرِ استمتاعٍ ظاهرٍ ، وإنْ كنتُ أَرَى أنّ أهلَ البَصيرةِ يرَون فِي كلِّ منفعةٍ مُتعةً ، وإن كانتْ غيرَ مُحبَّبةً لظاهرِ النّفسِ ، فالاستمتاعُ حينئذٍ مخرجُه الفكرُ والعقلُ ، ولاتظننّ أنَّ أداةَ الاستمتاعِ منحصرةٌ في الإدراكِ النّفسيّ ، ذلك شَأْنُ الدّهماء ، أمَّا أهلُ الحِجَى ، فإنَّ لَهم بعقولِهم استمتاعًا هو الأمجَدُ والأحمَدُ ، أولو الألبابِ يستمتعون بكلِّ نافعٍ ، ويهجُرونَ كلَّ ما كان خلاءً مِن المَنفعةِ

وأهلُ العِلم بالنّفسِ الإنسانيّة على أنَّ ثَمّ فروقًا غير قَليلة بيْن التكْوين النّفسيّ للمرأة ، والتّكوين النّفسيّ للرّجلِ ، ممَّا يجعلُ فريضةً ملاحظة هذه الفُروق في التَّعامل مع كلّ ، فحقّ المرأة علَى الرّجل أن يلاحظ ذلك فِي شأنِها ، وحقّ الرّجل أن تلاحظَ المرأة ذلك في شأنه أيضًا .

وإذا لمْ يرْعَ القوّامُ على المرأة ذلك ، ولم يسعَ إلى العِرفان بتلك الفروق ـ إذا ما كان قادرًا على ذلك السّعي ـ فإنّه يكونُ المُقصّر في الوفاءِ بحقِّها ،

ويكونُ الجاعلَها في سياق التمزّق النّفسيّ الّذي لا يُثمر للأمّةِ إلاّ ما هو شرٌّ مُطبق، ومبدأ هذا الشرّ، القلقُ الّذي يُخيّم على بيْت الزّوجية حين تكونُ فيه، فعُظم ما يقعُ مِن شِقَاقٍ بيْن الزّوجيْن في باكرِ تأسيسَ الأسرةِ يكادُ يكونُ مخرجُه مِن هذا الجهلِ بالواقعِ النّفسيّ لكلٍّ، فالمرأةُ تريدُ من زَوجها أن يكونَ لها كما كان لها أبوها، وهو يريدُ منها أَنْ تعاملُه كما كانتْ أمّه تفعل، ونسِيَ كلّ أنّ الآخر لمّا يملكْ بعدُ ما يريدُ الآخرُ منْه، فَمَا هِيَ ذاقتْ شيئًا مِن نعمةِ الأُمومة، ولا هو ذاق شيئًا من نعمةِ الأبوة، فكلف كلٌّ الآخر ما لا يُطيقُ، والله ـ تعالى ـ يقُول: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (الطلاق:٧)(١)

ولو أبصرَ كلٌّ لعلمَ أنَّ الآخرَ لم يبْخلْ عليْه بما يريدُ منه، نعم. لم يبخل، لأنّـه لا يملكُ ما يريد الآخرُ منْه، ولو ملك لبذل كما بذلت الأمّ وبذل الأبُ.

لو عَرَف كلّ ملكاتِ الآخر، وتكوينَه النّفسيَّ لكان لكلّ ما يجعله متسعَ الصّدر للآخر، تجولُ أفاعيلُه فيه دون أنْ تحتكَّ قطُّ بجدارِ هذا الصّدرِ، فيغفرُ كلّ ويعفو، ولذا إذا وفّق الزوجانِ إلى المصابرة والمثابرة وتواصَيا بالمرْحمة ومضت أعوامٌ، وكان بنينٌ، فإن صرْحَ الزَّوجيّة يرسخُ ويسمُق، لِما حصَّله كلّ مِن العرفان بحالِ كلّ، والعرفان بالتجاوب والاستثمارِ لكلٍّ حالٍ يتوافد.

---

(١) إيراد هذه الآية في سياق سورة «الطّلاق» هادٍ إلى أنّ الزوجين خاصة إذا ما تأدّبا بها على مستوى العلاقة الحِسيّة والمعنويّة منحًا ومنعًا كان لهما من استجابتهما لِما فيها مِنْ جليل الهدْيِ وجميله ما يكون حِصْنًا حصينًا لعلاقتهما الحَميمِيَّة الرَّحيمة الّتي تتهاوي كل الأعاصير الزّوجية تحت أقدامها.

مِن ثمَّ كان العلمُ بالبُعد النَّفسيّ للمرأة مهمًّا جدًّا للرَّجل ، لأنّ زمامَ الأمرِ بيده ، يُمكنُه أن يصبر ويثابر ويتحمّلَ ، وأنْ يحتسبَ إلى أن تمضي السّنون ، ويتعمق ما بينهما ، لهذا كان هذا العلمُ واستثمارُه محَققًا للأمن الأسريّ ، واستمرار الحياةِ ، وتحقيق السَّكينة والمودَّةِ والرَّحمة .

والقوامةُ رعايةٌ نفسية إن كانتْ هي المبتدأ الذي ليس له منتهَى ، فإنّ الاكتفاء بها لايحقق الثمرة المرجوة ، بل لابُدّ لها من الرعاية العقلية ، ليتحقق التوازن النفسيّ والعقليّ ، فغلبةُ الجانبِ النفسيّ على العقلِيّ قد يُفضِي إلى ما لا يُستْحمَد ، كما أن استفحال الجانب العقلي على النفسيّ قد يفضِي إلى التحجر أو الجمود أو التبلدِ في العلاقة بيْن الرجل والمرأة ، وهذا داء وبيل ، قلما ينتهي إلا إلى المباعدة أو المشاقة ، أو المفاصَلة ، فالمرأة من فطرتها أنّها الرغوبُ في أن لا يُكتفَى معها ببيان لسان الحال عَن علو مكانتها في قلبِ زوجها ، وأنها قرة عينه من النساءِ ، بل هي تريد أن يكون ذلك ممزوجًا أو مَصْحوبًا ببيان لسان المقالِ ، فحقٌّ لها على القوام عليْها ألا يحرمها استطعام اللسانين معًا .

وممَا يُنسبُ للإمام أحمد بن حنبل ـ رضي الله عنه ـ ، وصيته لولده يوم نكاحه : « إنّ النّساء يحببن الدّلال ويحببن التصريح بالحب ، فلا تبخل على زوجتك بذلك ، فإن بخلتَ جعل بيْنك وبيْنها حجابًا من الجَفوة ونقصًا في المودة » .

فَهذه إن صحتْ نسبتها إليه ، فإنها لتحمل رؤيةً حكيمة لحال المرأة ، وما فطرتْ عليهِ ، وما يجبُ على القوّام عليها عامة ، وزوجها خاصة أن يفِيَ

لها بِه في السّراء والضَّراءِ ، والرّضا ، والغضب ، ومن كان مفتقـرًا إلى وسيط لأن يصلح ما بيْنه وما بيْن زوجه لهـو أحـوجُ إلى مـا يمنحـه مهـارة وثقافـة التّآخي والتَّحابب والتَّوادد مع زوجِه ، ولو أنَّه استحضر الإعراب عنها بكلمة « زوج » لعلم أنّـه مفتقرٌ إليْها افتقارها إليْـه ، وإن اختلفـت مناطـاتُ الافتقـار عند كلٍّ .

* * *

إذا ما كان كلٌّ مِن الرَّجلِ والمرأة مناط التّكاليف الشَّرعيةِ ، وكانت هذه التَّكاليفُ لا تجبُ إلا إذا نضج العقلُ ، فهذا آيةٌ بيّنةٌ على أنَّ كلاً يملْكُ عقلاً ناضجًا اقتضَي تكلِيفًا .

لا ريبَ في أنّ ثَمَّ فُروقًا بيْن عقلِ المرأةِ وعقلِ الرّجلِ في جوانبِ مختلفة ، فقد يعلُو العقلُ في جنسِ الرِّجالِ على العقلِ في جِنسِ النّسـاء في بـابٍ مِنْ أبوابِ التّعقل ، وَيعلُو عقلهُنّ في بابٍ من أبوابِ التعقل على العقلِ فِي جنس الرّجالِ ، فليس العقلُ في جنسِ الرّجال في كلّ بابٍ هو الأعلى علـى العقـلِ في جنسِ النّساء ، وكذلك ليس كلُّ عقلٍ لكلّ رجل هو العلىّ على عقل كلّ امرأةٍ ، ذلك يناقضُه الواقعُ ، ومن زعمه فقد كابَر ، كَمْ امرأةٍ هي الأوفرُ عقلاً ، والأثبتُ والأمكنُ ، والأبعدُ رؤيةً من غيرِ قليلٍ من الرّجال ، فقد تكون زوجي أعقلَ مني في بابٍ من أبوابِ الحيـاة ، فأستمع إليهـا وأسترشـد بهـا ، وهـذا حقها ، لا ، بل هذا حقّي على نفسِي .

وكأنّـي بك تقولها : ما بال مـا رَواه البُخـاريّ في كتـاب « الحـيضِ » مـن صَحـيحـه بِسـنـده عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُـدْرِىِّ ـ رَضِـيَ اللهُ عَنـه ـ قَـالَ : خَــرَجَ رَسُـولُ اللَّهِ ـ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ـ فِى أَضْحًى ـ أَوْ فِطْرٍ ـ

إِلَى الْمُصَلَّى ، فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ ، فَقَالَ : « يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ ، فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ » . فَقُلْنَ : وَبِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ » . قُلْنَ : وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ ؟ » . قُلْنَ : بَلَى . قَالَ : « فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا ، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ ؟ » . قُلْنَ : بَلَى . قَالَ : « فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا » .

أليس هذا قاطعًا أن عقل المرأة ناقصٌ ؟ وفوق هذا ما رواه الشيخان البخاريّ في (أحاديث الأنبياء) ومسلم في كتاب (فضائل الصحابة) مِنْ صَحِيحَيْهما بسندهما عَنْ أَبِي مُوسَى ـ رضي الله عنه ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ »

النظر في سياقِ الحديث الأوّل هادٍ إلى أنَّ قوله ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ (نَاقِصَاتِ عَقْلٍ) ، أريد مصدر الفعلِ (عَقَل) أي الذي هو إمساكُ المعرفة وضَبْطُها وحفظُها ، وليس أداة التعقّل ، بدلالة قوله : « أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ » . قُلْنَ : بَلَى . قَالَ : « فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا » . فذلك هادٍ إلى أنّه يُرادُ نقصان حفظها ما تسمعُ ، فتحتاجُ إلى من يعينها على ضبطِ محفوظها ﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ (البقرة:٢٨٢) ، ولو كان القصدُ إلى نقصان أداة الإدراك لما كانت ثَمَّ امرأةٌ مكلفة بالشّرْعِ ، إنَّ شرطُ التَّكليف

نضجُ أداة التَّعقل ، وسلامتها من النَّقصِ والخللِ والغيابِ ، ونقصان إمساك المرأة المعرفة والإخبار ليس جمعيًا يأخذُ بخناق كلِّ واحدةٍ من جنسِها ، بلْ ذلك غالب على مجموعهِنّ لا جميعهنّ ، وكذلك يكونُ أكثرُ ما يكونُ حين يعتَريها ما يعترِي النِّساء مِن عواملَ جَسديّة تؤثّرُ على قدرتِها العقليَّة في إمساكِ المعرفة ، مثلما تؤثرُ على مزاجها النَّفسيّ ، وقواها الجسديّة .

في قوله ﷺ : « تصدقن ... تكفرن العشير » هداية منه ﷺ للنساء أنهن يوجبن على أنفسهن النار بأعمال يسبر عليهن تركها والتطهر منها ، ولكن عقاب هذه الأعمال أليم شديد ، وليس أغفل عن الطريق وأغبن للنفس ممّن يوردها الهلكة بعمل يسير عليها تركها والتطهر منه « يعذبان وما يعذبان في كبير » أيْ في كبير تركه ، والتطهر منه وإن كان كبيرًا خطره وضرره ، فكم من عمل هو اليسير على المرء أن يتركه ، وهو في الوقت نفسه إذا أدمنه كان عليه منه وبالٌ مستطيل مستطير .

أمّا حديث الشيْخيْن (كملَ من الرّجال كثير) ليس القصد به إلى الكمال العقليّ وحده ، بلْ الكمال في كافة المكونات المعنوية للإنسان ، ومنها الكمال العقليّ ، وهو هنا من مكوناته كمالُ الحكمة ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (البقرة:٢٦٩) ، والعلاقة بين المدلولِ الّلغوي للعقلِ وللحكمة جدُّ قويةٍ ، لا تخفَى على من ينطقُ بالعربيةِ ، «الحِكْمَةُ» (بكسر الحاء) تعقلُ المرْءَ عمَّا لا يليقُ به آدميًا ذا رسالةٍ استخلافيّة استعماريّة للكونِ والحياةِ ، و«العَقل» حَكَمَة (بفتح الحاء) لجوارح صاحبه ونفسِه تمنع من إيقاعِ ما لا يليقُ بمثلِه ، فالكمال الذي تحقق لكثير من الرجال ولآسية ومريم ـ عليهما السلام ـ هو الكمال المقارب كمال النبوة وهو ما يعرف بالصديقية .

والقوامة رعاية لعقلِ المرأة يستوجبُ على من هو مكلفٌ بها أن يسعى جاهدًا إلى توفير غذاء هذا العقلِ من صَحيح المعرفة ، ونفيعِ العلمِ لها أولاً ثُمّ لأسرتِها ثانيًا ، ثمّ لأمّتها ثالثا ، وللإنسانية كلها رابعًا ، وأن يكون ذلك متوائمًا مع طبيعتها النَّفسيّة والعقليّة والجسدية ، فليس كلّ علم هو النَّافع للرجل ، وهو في الوقت نفسِه النافع للمرأة ، والقول بأنّ للمرأة أَن تتعلم كلَّ علم ، وأن تحوزَ كلَ معرفةٍ هو من الإسرافِ في المساواة المفسِدة ، فالتَسوية في التعليم مناطها إتاحة ما يناسِبُ كلاً مِنْ العلمِ والمعرفةِ والثقافةِ والإنفاق عليهما ، المساواةُ ليست في نوعِ العلمِ والمعرفةِ والثقافةِ ، بلْ في ألا يُمنع أيٌّ مِن تلقّي ما هو لائقٌ به ، نافعٌ له ، فإنَّ من العلوم والمعارفِ والثقافاتِ ما المرأة هي الأولَى بها من الرجل ، فبذلها لها من دون الرجل هو العدلُ والرّحمة معًا ، وإنَّ من العلوم ما لا يليق بالمرأة نفسًا وعقلاً وجسدًا ، أمِن الإحسان لها أن تدفعَ إلى تلقّي مثل هذه العلوم والمعارفِ والثقافات ، بدعوَى الحرية والمساواة اللتين هما عماد ما يُعرف باللبرالية الاجتماعيّة .

بلْ إنّ في القرآنِ سوراً يجدرُ بالمرأةِ أن تكونَ عنايتُها بفهم ما فيها منْ معاني الهُدى تسبق عنايتها بفهم غيرها ، إذا لم تكن هذه من أهلِ العلم بكتاب الله تعالى ، ألا ترَى سورة « النّساء » ، و« النّور » و« الطّلاق » من أولى السّور أن تحسن المرأة تلاوتها وفقه ما فيها ، قبل كثيرِ غيرها ، وثَمَّ أحاديثُ نبويّة أيضًا تقديم تعليمِها المرأة على غيرِها من الأحاديثِ هُو مِن الإحسانِ في تربيتِها العقليّة والسُّلوكيّة معًا .

أيُّهما أولَى بالمرأة ؟ أنْ تنفِق عمرَها في إتقانِ عِلم الجدل والمناظرة والحوار ، وعلم السياسة الدّوليّة ، وعلم القضاء ، أم أن تتعلم علم التدبير ، والاقتصاد المنزلي ، وصناعة الرِّجالِ فرسانًا والنّساءِ سكينةً وفسطاطًا ؟

إني أذهبُ إلى أنَّ مطابقة البرامج التَّعليميّة للطلاب والطالبات في مراحلِ التّعليمِ المُختلفة هو مِن سوءِ التَّخطيطِ ، فثمّ علومٌ لا تستفيد منها الطالبة استفادةَ الطالبِ ، كما أنّ هنالك علومًا هي أحوجُ ما تكونُ لها ، لا تقدَّم لها في أيّ مرحلة منْ مراحل التعليم ، إلا على سبيل ما يسمّى بالنشاط المدرسيّ الّذي لايكاد يُعنى به في كثير من معاهد التعليمِ ، ممّا يعدُّ جورًا عليْها ، وانتقاصًا من حقّها في الرِّعاية العقليّة والمهاريّة ، إنّ من الإحسان إلى طالبات العلم عامة وفي الأزهر خاصة أن يكون «علم الاقتصاد المنزلي» ، و«علم تربية الأبناء» علمين حاضرين في كلّ فصل دراسيّ في مراحل التعليم ما قبل الجامعي والجامعي ، فذلك أنفع لهنَّ ولأسرهنّ ولمجتمعهنّ كلِّه .

إن تجاهلَ الفروق الوظيفيّة في رسالة المرأة في مراحلِ تعليمها وتربيتها العقليّة والمهارية أقلّ ما يُوسم بِه أنّه تقصِيرٌ في السّياسةَ التعليمية،والتربوية، فإن يكن عن علمٍ وقصدٍ ، فذلك من غشّ ولي الأمر لِمَن يقومُ على ولايتِها ، وهذا ما لا يُطاق عقابُه .

روى الشيخان البُخاريّ في كتاب (الأحكام) ومسلمٌ في كتاب (الإيمان) في صحيحيهما بسندِهما عنْ مَعْقِلَ بْنَ يَسَارِ الْمُزَنِىَّ ـ رضي الله عنه ـ قال : إِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلاَّ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» . (النصّ لمسلم)

إن من حق المرأة على من يتولّى القوامة عليها رعاية عقليّة أن يجتهدَ إلى إنضاج عقلها ، وتحفيزِه وتنظيم حركته ، وتفعيل حضوره ، وقدرته على الضبطِ ، والتفكيرِ ، والاستنتاج والاستثمارِ ثم استصناعِ المعرفةِ ، فليست وظيفةُ العقل أن يحفظَ فحسب ما يملَى عليْه ، بل من وظيفتِه بعد حفظه أن

يفقَه ما فيه ، وأن يقوِّمَ ما فيه مِن عَوج ، وأَن يُستكملَ ما فيه مِن نقصٍ ، وأن يسدّدَ ما فيه من خَللٍ ، وأَن يصطنعَ منه ما هو خيرٌ منه ، وكل ذلك حِملٌ ثقيلٌ ، ومنْ ثَمَّ يكونُ ثمره إن أحسن القيامُ بِه بالغَ النّفعِ مسْتديمه لصانعه ولأمتِهِ على مرّ الأزْمانِ .

روى البخاري في كتاب (الأدب) مِنْ صَحيحه بسنده عَنْ عُروَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ ـ رضيَ الله عنهما ـ أَنَّ عَائِشَةَ ـ رضي الله عنها ـ زَوْجَ النَّبِىِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ حَدَّثَتْهُ ، قَالَتْ : جَاءَتْنِى امْرَأَةٌ مَعَهَا ابْنَتَانِ تَسْأَلُنِى ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِى غَيْرَ تَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَأَعْطَيْتُهَا ، فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا ، ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ ، فَدَخَلَ النَّبِىُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فَحَدَّثْتُهُ فَقَالَ « مَنْ يَلِى مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ شَيْئًا فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ » .

وفي رواية له في كتاب (الزكاة) من صَحيحه بسنده عَنْ عُروَةَ عَنْ عَائِشَةَ ـ رضى الله عنها ـ قَالَتْ : دَخَلَتِ امْرَأَةٌ مَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا تَسْأَلُ ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِى شَيْئًا غَيْرَ تَمْرَةٍ فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهَا ، فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا ، ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ ، فَدَخَلَ النَّبِىُّ ﷺ عَلَيْنَا ، فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ « مَنِ ابْتُلِىَ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَىْءٍ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ »

جاء قوله في الأولَى (يلي) من الولاية بدلا من (ابتلي) ، من الابتلاء ، ورواية الابتلاء في الثانية لا يفهم منها أنّ تربية البنات من قبيل المضار ، كلا ، بل الابتلاء هنا بمعنى الاختبار والسّبر ، وهو يكون بالخير وغيره ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٥) فرواية (يلي) تفسر رواية (ابتلي) ، وليس يَخفَى أنّ في تربية البناتِ شيئًا من ثقل المسؤولية ، لِما أنَّ القيم عليهنَّ يبقَى في رباطٍ لا يفتر عن المُراقبة والمتابعة

والتوجّسِ حتى وإن بلغْن من العمر نصف قرنٍ ، فالمرأةُ تبقَى في عيْن وليّها والدًا ، وأخًا ، وإن صارت أما وجدّة بخلاف الذّكور ، فالأمرُ أيسر ، ولذا كان ثوابُ إحسان رعايتهنَّ كفاءً لِما يكونُ من وليهن لهنّ ، ألا ترى كيف أنّه لما رعاهنّ وحفظهن من السّوء ، وأحسَن إليْهنّ كان جزاؤه أن يكنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ (النبأ:٣٦) وأيّ جزاءٍ أعظمُ ، وأجلُّ من ذلك ؟

ولو فَقِهَ الوالدان ذلِك لتمنيَا أن تكونَ ذريّتهما مِن البناتِ أكثر من البنين ، ولكنَّ أكثرَ النَّاس لا يشْكرون ، ولما كان الاتزانُ النّفسيّ والعقليّ وتعادلهما مطلبًا رئيسًا في رعايةِ الْمرأةِ ، كان الأخذُ بيدِها في مسيرِها إلى الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ أرغب في الوجوبِ ، ذلك أنَّ هذا الاتزانَ النَّفسيّ والعقليّ لا يُؤتِي أكلَه على الوجهِ المُسْتَرْضَى إلا إذا ما كانت المرْأَة حثيثة السّيرِ في سبيل مرضاة خالقها ، ومن ثَمَّ كانت رعاية الجانب القلبي : أعني رعاية البعد الإيمانيّ لدى المرأة علمًا وسلوكًا ممّا تستطعمه المرأة سلوكًا ، واقتداءً من قبل أن تتلقاها وعظًا وإرشَادًا .

* * *

ما نشأت امرأة أو أقيمت في بيْتٍ قوامه الإيمان بما أمر الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ الإيمان بِه في كتابِه الحكيم وسُنّةِ رسُولِه ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ ، إلاوكانت هذه المرأة عونًا لغيرِها على بلوغِ الجنة ، فكانتْ بحقٍّ حفيدة خديجة ـ عليْها رضوان الله تعالى ـ .

الجانب القلبّي لدَى المرأة مع الجانب النّفسيّ والعقليّ لهما عظيم السّلطان على ما تجري فيه إقبالاً وإدبارًا ، بغضًا ورضوانًا ، هذا البعد

الإيمانيّ تخضع الرّعاية فيه إلى ما تتلقاه المرأةُ من بيان لسان الحال ، ولسان المقالِ ممّن حولها ، ولاسِيّما الزّوج من بَعد الوالدين ، فهي لا تتأثر ببيانِ لسانِ الحالِ وحده،بل تفتقر أيضًا إلى أن تذكر بلسان المقال في رفق وتودّد، ورأفةٍ ومصابرة ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ (طه:١٣٢)

التربية القلبيّة للمرأة تفتقر إلى الأمرين معًا ، تربية سلوكيّة تراها بعينها ، وتربية لسانية تتلقاها بأذنها ، وهذا يستوجب إقامتها في مجتمعٍ إيمانيّ حصينٍ ، فهي سريعة التأثر بما يُحيطُ بَها قولاً وفعلاً .

ورعايةُ القلبِ في علاقته بالله ـ تعالى ـ قنوتًا وإخباتًا ومراقبةً ومحاسبةً ، إنّما يعين على تحقيقها الحرصُ على قلة مخالطة من كنًّ من غيرِ طبقتها حسبًا ، فلا يُفسدُ قلبَ المرأةِ في علاقتِهَا بربّها ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ كمثل مخادنة الأتراب اللاتي لم ينبتن في مستزرع الخير والمروءة والحياءِ .

روى الشّيخان البخاري في كتاب (البيوع) و(الذبائح) ومسلم في كتاب (البر والصلة والأدب) منْ صَحيحيهما عَنْ أَبِى بُرْدَةَ عَنْ أَبِى مُوسَى ـ رضي الله عنه ـ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً » . (النّصّ لمسلم)

والمرأة أكثرُ تأثرا بِجليستها من الرّجل بجليسِه ، ومنْ ثَمَّ كانَ تمتعُ المرأة بشيْءٍ مِن العُزلة عنّ أولئك الأتراب اللائى لم ينبتن في رياضِ الحقِّ والخير والحياءِ يمنح قلبها مساحةً مِن التَّواصل مع الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ ولاسيّما أنّ البعد العاطفي لدَى المرأة أقوى مِنه عند الرّجالِ .

والمرأةُ بفطرتِها أطوعُ في التّربية القلبيّة لأداة الأمرِ بالمعروفِ وصناعتِه منها إلى النّهي عن المُنكر ومجانبتِه ، فمِن الحكمةِ في تربية قلبها في علاقتها بربها ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ ، وعلاقتها بزوجها وأهلِها أن تتسعَ الدّعوة إلى صناعة الخير ، ونشرِه ؛ لتحتل مساحة وسيعة من وقتها ، وتسْتنفد طاقة أكبر مِن جهدها ، فلا يبقَى لغيرِه مساحَة من الزَّمن إلاّ قليلاً ، ومِن الجُهدِ إلا نزيرًا ، فتعتادُ تركَ ما ليس بخيرٍ قولاً وسُلوكًا وحالاً ، ذلك أنَّ ترك الْمنكر أعسرُ على المَرْء عامة ، والمرأة خاصّة من إنجاز المعروف ، وهذا شيءٌ كالفطرةِ فِي الإنسانِ ، فمجانَبَة المنكر تفتقر إلى عزمٍ فتيّ وطاقةٍ فحلةٍ .

وإذا ما أضحَى الجانبُ الإيمانيُّ المقرون بالعمل الصالح غالبًا عليْها ، فَإن الجانب الرُّوحيّ لديها ينمو على نحوٍ أسرع منه عند الرَّجلِ ، فالمرأةُ مهيئَةٌ بفطرتِها إلى التَّأثرِ الرُّوحيّ، ولذا كانت الرُّؤى المناميّةِ لَدى النّساء الصالحات أكثر ، لقلة انشغالهن بمجريات الحياةِ خارج بيتها ، فما يتوافد على بصر الرّجل وبصيرته وسمعه وعقله في سعيه خارجَ البيْت له أثر بالغ في طلاقة روحِه ، وفِي صفاء رؤيتها ، ولو أنّا استثمرنا هذا الجانب في المرأة لكان لنا منها خيرٌ وفيرٌ ، وقد عاصرت عجائز في قريتي في أقصَى صعيد مصر كانت إحداهن ترى الرؤيا فتكون كمثل ما رأت أو قريبًا ، وكانت إحداهن تستشعر ما يحدث بعيدا عنها ، فتحدث به ، فيأتي الخبر بمثل ما حدثت ، وهي لا تقرأ ولا تكتبُ،ولكنها كانت ذات صفاءٍ نفسيٍ ومحبة الخيرِ للنّاس. وهذا الجانب كاد يسحق في حياة كثيرٍ من النساء في عصرنا ومصرنا ؛ لِما يُنْفِقْنَهُ مِن أعمارِهنَّ أمامَ وسائلِ الإعلان والتَّوصيل القاذفةِ فِي أسماعِهنَّ وأبصارِهنَّ سيلاً مِن الأكاذيب ، والأضاليلِ ، والحثِّ على التَّمرّدِ على القِيمِ الآدميّة الّتي بُنيت عليها كثير مِن البيوت ، في علاقة النّاسِ بعضِهم ببعضٍ ،

وفِي علاقتِهم بخَالقِهم ـ سُبْحَانَهُ وتَعالَى ـ وهذا ميدان من ميادين العدوان على المجتمع المسلم ، غفل كثيرٌ عن المدافعة والاجتهاد في تحقيقها وحماية المجتمع المسلم ، فما يحاك له من داخله وخارجه والتشاغل عن هذه المدافعة وحماية المجتمع هو من قبيل الفرار من الزَّحف الَّذي هو من الموبقات المبيرات .

* * *

يعدّ الجانبُ الرّوحيُّ في الإنسان ثمرة الجانب الإيماني الّذي هُو أساسُ كلّ عملٍ قَلْبيّ صحيحٍ نَصيحٍ ، وهذا البعدُ الرّوحيّ يُمَثّل السَّيرَ في مقامات القربِ الأقدس ، الّذي رأسه وشرفه بالنسبة لغيرِ الأنبياء هو مقامُ «الإحسان»، **(أن تعبدَ الله تعالى كأنَّك تراه ، فإن لَمْ تكنْ تراه ، فإنّه يراك)** وهو مقامَ الشّهودِ القلبيّ لجلالِ الألوهية وجمالِ الرُّبوبيّة في آياتِ الله الكونيّة ، وآيَاتهِ القرآنيّةِ .

في هذا الجانبِ تنْطلقُ الرّوحُ في سُبحات شُهودِ الجلالِ والجمالِ ، يُرى آثارُهما ومعالمهما قائمين في كلّ ما خلقَ الله ـ سُبْحَانَه وبِحَمْدِهِ ـ .

الرّعاية الرّوحيةِ تحقّق التّوازنَ بيْن النفسِ والعقلِ والقلبِ، والجسدِ ، لأنّ الرّوح هي السُّلطانُ الّذِي يخضعُ له الجسدُ والقُوَى المعنويّة الثلاث الساكنته : النفسُ والعقل والقلب .

وممّا يُعِين على الصَّفاءِ الرّوحيّ الاستغراقُ في الذّكر روى الترمذي في كتاب (الدَّعوات) من جامعه بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ ـ رضى الله عنه ـ أَنَّ رَجُلاً قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلاَمِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَىَّ فَأَخْبِرْنِى بِشَىْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ . قَالَ : «لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ» .

تبصَّر قول الصاحبى : «أتشبث به» إنها كلمة دالة على أنه يسأل عما ينقذه من الغرق فيما لا يرضى الله ـ تعالى ـ ، فهو يطلب ما ينجيه ، هذا الاستشعار من الصحابى أنه على شفا الغرق نحن في عوز بالغ إليه ..

ورطوبةُ اللّسانِ مِن ذكرِ الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ إنّما هي آيةٌ على رُطوبة القلبِ من ذكر الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ ، ورطوبَةُ القلبِ من ذكر الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ لا تتحقق إلا إذا تشرّبَ القلبَ ما يُذكرُ ، وتشرّبه هو ثمرةُ حضورِه ، وفقهِه ما يُذْكَرُ ، وهذا يستوجبُ أنْ يكون القلبُ حاضرًا ، وقادرًا علَى أن يتلقَى هذا الذِّكر ، يتشربُه لتتحقّق رطوبتُه منه ، فيتحقّقُ له كمالُ حياتِه ، وهذا يبيّنُ لك أَنَّ عبارة (لِسانُك رطبًا مِنْ ذكر اللهِ) كلمة من ورائها عملٌ قلبيّ جدّ ثقيلٍ وجلِيلٍ ، وليس مجرَّدَ شَقْشَقةِ لسان ، لا يعلمُ الْقلبَ عنْ هذه الشَّقشقةِ شيئًا ، فكَمْ مِن ذاكِرٍ لسانُه وعينُه مغروسةٌ في ما حرم الله ـ تعالَى ـ ، وعقلُه مُعتقلٌ في ما لا يرْضِي الله ـ جَلّ جَلالُهُ ـ وقلبُه متقلبٌ في ما يُغضب خالقَهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ ، ويدُه تعبثُ في ما حرَّم الله ـ عَزّ وجلّ ـ . . . أمثلُ هذا يكون ذاكرًا فضلاً عَنْ يكون لسانُه رطبًا بذكر الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ ؟ .

ذكرُ اللّسان والقلبُ غَفُولٌ عَنِ الذِّكرِ والمَذكورِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ أشبهُ بالاستهزاءِ بالمذْكورِ جَلّ جَلالُهُ .

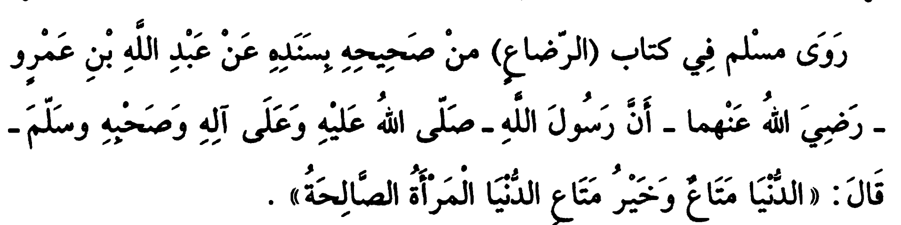
تبيّن لكَ أَنَّ رطوبةَ اللّسان إنّما هِي رطوبةٌ معنويةٌ ، لأن كثرة عملِ اللّسان تحدثُ له جفافًا حسيًا كما لا يخفَى ، ولكنّه حين يكونُ عملُه في ذكر الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ يَكون رطبًا رطُوبَةً معنوية ، ترى آثارُه في نشاطه ، وفِي تمكنه من أداء الذّكر على نحو قويمٍ فَعِيلٍ في السَّمع والقلبِ معًا ، فترى

إِشراقُ نوره من القلبِ علَى الوجهِ ، ولا يبصر هذا إلا أولو البصائرِ النافذة إلَى ما وراء الْمحَسوسِ ، وهو ما يعرف عند أهل البصيرة بـ« الفراسة ».

دَيمومةَ ذكْرِ العبدِ ربه ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ ذكرًا جامعًا بيْن حضورِ القلبِ والعقلِ والنفسِ وحركةِ اللسان ، يجعل صَاحبه في مذكور الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ لــه بالرَّحــمــة والرِّضــوان ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ (البقرة:١٥٢) ورُوحُ ذكرِ الله ـ تعالى ـ حضورُ جلالِه وجمالِه وكمالِه في القلبِ حضوراً لا يغيبُ ، وإنْ كان اللّسان ساكنًا ، وهذا وجهٌ من وجوه معنى قولِه ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ (العنكبوت:٤٥)

في دَيمومة الذّكر النّصوح تهيئةٌ روحيّة ، تقيمُ المرْءَ عامَّة ، والمرأةَ خاصة في سياقٍ لا يكونُ السّلطان فيه للمحسوسِ والمشهودِ على علاقتِه بالكونِ والحياةِ والإنسانِ ، بل ينفذُ بروحِه في جُوانِيِّ الأشياء ، يراها خاضِعَة لِسلطان الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ ، يراها مُسخّرةً له بمقدارِ تسخِيرِه هو نفسِه وعقلِه وقلبِه وروحِه وجسدِه لله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ : « وَمَا يَزَالُ عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إِلَىَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِى يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِى لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِى لأُعِيذَنَّهُ » فيستغني باللهِ ـ جَلّ جَلالُهُ ـ عمَّا عداه ، ولا تكونُ علاقتُهُ بالأسبابِ المخلوقة لله ـ تعالى ـ إلاَّ بمقدار الخضوعِ لأمرِ الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ باتخاذِها وسائلَ ، تكونُ عندها الأقدارُ لا بِها .

مثل هذا إذا ما خَطَتْ فِيه المرأةُ خُطواتٍ كانت بحقٍّ معدِن السَّكينة ، والمودَّةِ والرّحْمةِ ، وكانَتْ بحقٍّ خيرَ متاعِ الدنيا،كما هدتْ إليْه السنة النبويّة..



رَوَى مسْلم فِي كتاب (الرّضاعِ) منْ صَحِيحِهِ بِسَنَدِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهما ـ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ قَالَ: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ».

هذه القوى الأربع مكنونة في هذا الجسد الذي هو بنيان الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ ، والذي جعل الاعتداء عليْه أشد من الاعتداءِ على بناء الكعبةِ ، وتتمثل القيمة العليا في الرّعايّة الحسيّة للمرأة أنّ الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ جعل كل مايُنفقه المرء على من هو مسؤول عنهن إذا احتسبه صدقة فيما رواه البخاري في كتاب (النفقات) من صَحِيحِه بِسَنَدِه عن أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَنْفَقَ الْمُسْلِمُ نَفَقَةً عَلَى أَهْلِهِ وَهْوَ يَحْتَسِبُهَا ، كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً» شريطة أن يكون ما أنفقه عليهم طيبًا ، وأن يكون محتسبًا ، وإلا فلا نصيب له فيه يوم الدين ، بل إن أنفقَ عليها غيرَ طيبٍ كان المعاقب عليه في أخراه ، وربّما في دنياه ، فإنّه قد خان الأمانـة ، وأفسدَ ما وجبَ عليْه أن يُصْلِحَه ، وكلّ امرأة أنفق عليْها من كسبٍ غيرِ طيب فإنّها إلى الإفسادِ في الأرض أقرب . ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ (الأعراف:٥٨)

إن بناء جسد المرأة من طيبِ الكسبِ معين على أداء المرأة رسَالتها في هذه الحياة ، فهو عملٌ عباديّ .

* * *

الضربُ الآخـر : قوامةُ الحِمايةِ :

وإذا ما كانت القوامةُ رعايةً مفتتحَ الأمـر ، فإن هذه الرّعاية تفتقر إلى أن يُمزجُ بِها حمايةً ، وحفظٌ ممّا قد يحدث بالرعاية ضُرًّا ، وكلّ ما وقعتْ عليْه القوامة رعايةً من النّفسِ والعقلِ والقلبِ والروحِ والجسد هو محل القوامة حماية وحفظًا ، وإلا كان حالُ القوَّامِ عليها حينئذٍ كالتي نقضَت غزلها منْ بعد قوةٍ أنكاثًا .

وهذه القوامة تلقَى عند غيرِ قليلٍ من الذين عليهم فريضةُ القوامة على النساءِ كثيرًا مِنْ التقصِير في الوفاءِ بحقها ، بل قد تلقَى إهمالاً وتغافلاً ، فهي أثقلُ على غيرِ قليلٍ من النّفوسِ من القوامة رِعاية ، لأنّ عظم شأنها داخلُ في بابِ النّهي عن المنكر ، وهو أشد من الأمر بالمعروف كلفةً نفسِيّةً ، ونفسُ المرأة فيها ميلٌ إلى مقاربة بعضِ المنكراتِ التي قد لا تراها من المنكرات لشيوعها ، ولا سيّما في أبوابِ الاختلاط والتّزيين لغير الزوج ، والرغبة في الانتشارِ في الطرقاتِ والأسواق ، والمنتديات . . . .(١)

---

(١) ليس الاختلاطُ هو اجتماعَ الرجال والنساء في موطن متفاصلين بحيث يكون كل في جانب بينهما فاصل يمنع الآخر من مخالطة النوع الآخر ، كلا بل هـو تداخلهم فـي ما بينهم بحيث لا تكونُ حواجز بينهم ، كما تراه في وسائل المواصلات العامة والأسواق» فالاجتماع في الصلوات : النساءُ من خلف الرجال أمرٌ كان على عهد سيدنا رسُول الله ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ . وكذلك في مجالس العلمِ بحيث يكون للنساء مدخل ومخرج خاص ، وبحيثُ تكونُ محاجزةٌ حسية ومعنوية بين الثُّلتين ، فهذا ليس باختلاط منهي عَنه ، أمّا ما هو قائم في عصرنا ولاسيما في الجامعاتِ المدنية ، وفي الأسواقِ والمنتديات ، والمواصلات ... فهذا ممّا لا يليقُ بذي مروءة وإن لم يكن مسلِمًا ، فالإسلام لا يؤسس البعد الأخلاقي في بني=

ومثل هذا مدافعتُها عنه حماية لها ممّا قد يوقِع الضُّرَّ بها حسًّا ومعنًى ، ممّا يحتاج الرُّجل فيه إلى قوة نفسٍ ومثابرة ، وحكمةٍ ، وألا يسلك الطريق الأقصر والأخسر « العنف »و « القهر » ، فإنّ الرِّفقَ لايكون في شيءٍ إلا زانه ، ولا ينزع من شيْءٍ إلا شانه كما هدتْ إليْه السُّنة النبوية .

ومن البيّن في كل عقلٍ أنّه لا يكون « الرّفق» من ضَعفٍ وخورٍ حسيّ أو معنويّ ، بل من قوةِ نفسٍ ووعي بمواضِع الدواء على الداء ، فالحكيم عليم متى يرفقُ ومتى يشتدّ فِي رحمةٍ وإشفاق ، وقد قالها الشاعرُ الحكيم :

فقسا ليزدجروا ومن يكُ حازماً فليقسُ أحياناً على من يرحمُ

وقال :

وَوضْع النَّدَى مَوضِع السَّيفِ بالعلا مُضرٌّ كَوضعِ السَّيف فِي مَوْضع الندي

* * *

ومن القوامة حماية ألا يلقِي الرجلُ القوّام حبلها على غاربِها في ما يعرف بوسائل التواصل الاجتماعي الإلكترونيّ ، وكذلك وسائل الإعلام المرئي والمسوع ، فإن كثيراً من الفسادِ آتٍ من تلك الوسائل ، وكم من شرور صبت على رؤوس كثيرٍ من النساء من جرَّاء عدم التَّحفظ من الغفلة عمَّا يتربَصُ بها عبرَ هذه الوسائل ، ولا سيما أنَّها توفّر لهنّ كثيرًا من قتل

= آدم ، بل هو يمكنه ، ويهذبه ، ويحميه ، ويقويه ، ويضبط حركته ، فالبُعد الآدميّ فينا هو المؤسّس لفضيلة الأخلاق ، فلعلَّ ملحدًا قد يكون أكثر تمسكًا بفضيلة الصدق والإتقان من شيخٍ يملأ الأرض بمواعظِه !!!

علينا أن نفرقَ بين التَّدين والأخلاق حضوراً وغيابًا ، وإن كنّا نقرن بينهما قوة وضعفًا ، وصَفاءَ وشوبا .

أوقاتِ الفراغ[1] والتّغلب على ما يُعرف بمرحلة الخرصِ الزّوجي ، وما تعانيه من كثرة أعباء رعاية البيتِ ، كل ذلك يدفع بالمرأة إلى أن تفتح الأبواب لهذه الوسائل ، فلا يتأتّى لها من بعد أن توصِدها ، فيكون شرٌّ مستطير .[2]

من هنا كان لزامًا أن يحرص الرّجل المُكلف بالْقوامة على المرأة على امتلاك المهارات والأدوات الحسية والمعنوية ، التي يُبصر بها الأخطار المحدقة بالمرأة المكلّفِ بالقوامة عليها ، وأن يمتلك الحكمة ، والحزم الرّؤوف في دفع هذه الأخطارِ ، وصرف مَن يتولّى القوامة عليها عَنها ، وهذا يرسم لك عظيم ثقل مسؤولية القوامة على المرأة ، وأن كلَّ جهد يبذل فيها

---

(١) روى البُخاري في كتاب (الرقاق) مِنْ صَحيحِه بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رضى الله عنهما ـ قَالَ قَالَ النَّبِىُّ ﷺ : «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»
بيان النبوة يهدِي إلى أنّ الفراغَ نعمةٌ تستوجب الشّكر العمليّ ، ولكنّا ـ ضلالة ـ نسعَى إلى قتل هذه النّعمة ، وإذا ما كان إهمال النّعمة مجرد إهمال دون استثمارها كفرًا بها فكيف بقتلها . إنَّ هذا لهو البلاء المُبير .
الإعراب هنا بفعل «القتلِ» يكشف لنا قدرًا بالغًا من الحُمقِ الذي اعترى فُهومنا ، ومفاهيمنا ، ممّا يستوجبُ علينا أن نجتهد في إصلاح الفهوم ، والمفاهيم ، والوعي بمدلولات الكلم ، ودلالاتها ، فالرعاية اللغوية تكلمًا وتفهما من مفاتح الإصلاح النفسي والعقلي ، والسلوكي .

(٢) المنهج الأقوم في استثمار وسائل الإعلام المقروء والمسموع والمرئي أنها وسائل تواصل وتثاقف ، ولكن الطغاة في كلّ عصرٍ ومصرٍ اتخذوها وسائل توصيل وتمكين لما يمكّن لهم من نفوس الناس فيسوقونهم سوق «النعاج» لا إلى مراتعها ، بل إلى مجازرها ، ولذا يجرى على لسانِ بعضهم تسميتها بالأذرع الإعلامية ، وهى كلمة بالغة الخطر تجب مساءلة من نفثَها في الآذان ، فهذه الأذرع تمسك بتلابيب النفوس والعقول وتسوقها إلى حظائر الطغاة ، ومن ثمَّ بات غير قليلٍ من الإعلاميين من سحرة إبليس .

لا يستوفى استحقاقات هذه القوامة على الوجه الأكمل الأمثل ؛ ممّا يجعل الرجل في قبضة الشعور بنقصان الوفاء بحق ما عليه من فرائض .

* * *

ومِمّا يجبُ الاعتناء به في هذا حماية المرأة من نفسِها التي بيْن جنبيها ، فإنها أخطرُ عليها مِن كلّ العوامل الخارجية المحيطة بها ، وقد سبق أن أشرت إلى شيْءٍ من معاني الهدى المكنوزة في ما جاء في الهدي النّبويّ فيما رواه الشَّيخانِ : البُخاريّ في كتاب (أحاديث الأنبياء) ، ومسْلِمٌ في كتابِ (الرضاع) مِنْ صَحيحيْهما بِسنَدِهِمَا عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «استَوْصُوا بِالنِّسَاءِ ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَىْءٍ فِى الضِّلَعِ أَعْلاَهُ ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ» .

ورواية مسلم : «إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ فَإِنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَبِهَا عِوَجٌ وَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا وَكَسْرُهَا طَلاَقُهَا» .

حرًى بالرّجل أن يكتسب مهارة الاستمتاع بالمرأة (بمفهومه النبويّ) في تسيير حركة الحياة في الأسرة والمجتمع على ما فطرت عليه من العوج ، ولا يسْعَى إلى كسرِها ، وتلك هي المعضلة لكثير من الرّجال .

إن ابتلاء الرّجال بفريضة القوامة على النّساء هي المختبر الأقسَى لمعدل الرّجولة ، فبمقدار ما يُحقّق من فرائضِ القوامة رعاية وحماية بِمقدار ما يكونُ تحقق «حِليَةِ» الرجولةِ فيه ، وهذا ما يُعينُ على حسن فهم ما رواه الشَّيخانِ : البُخاريّ في كتاب (النكاح) ، ومسْلِمٌ في كتابِ (الرّقاق) مِنْ

صَحيحَيهما بِسنَدِهِمَا عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ـ رضى الله عنهما ـ عَنِ النَّبِىِّ  قَالَ: «مَا تَركْتُ بَعْدِى فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ».

هذا مِن البيانِ النبوي الجليل الّذي يسيءُ غيرَ قليلٍ فهمه، ولا سيّما النّساء، النّظرة العَجلي تتوهّم أنّ هذا في سِياقِ المَذمّة للنّساء، وهذا ما لا يليق الالتفاتُ إليه إذَا ما استحضرنا أن القائله هو سيدنا رسول الله ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ، وهو الذي لا يكون منه مثل ذلك.

البصيرة المتأنية ترى في قوله ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ: (فتنة) معنى القياس لفضيلة الرجولة، فـ«الْفتْنُ»: الاخْتِبَارُ وَالامْتِحَانُ. يقال فَتَنْتُ الذَّهَبَ إِذَا أَدْخَلَتهُ النَّارَ لِتَنْظُرَ مَا جَوْدَتُهُ، وَهذا «دِينَارٌ» مَفْتُونٌ أَيْ معلوم قدر ما فيه من الذهبِ، والعربُ تسمّي الصَّائِغَ «الْفَتَّانَ»، والله ـ سُبْحَانَهُ وتَعالَى ـ يقُول لسيدنا «موسَى» ـ عَليه الصلاةُ والسلام ـ: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾ (طه:٣٩، ٤٠)

ومن وجُوه المعنى في قوله ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ (طه: ٤٠) أخلصناك إخلاصًا، أي جعلناك نقاءً صفاءً، على ما ذهب إليه مجاهد، وسعيد بن جُبْير، وهو وجهٌ عالٍ يتلاحظُ مع قولِهِ ـ جَلّ جَلالُهُ ـ بعدُ: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾[1] (طه: ٤١)

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري) تحقيق أحمد شاكر. مؤسسة الرسالة، ط. الأولى، ١٤٢٠ هـ، ١٨/٣١٠.

فرِعايةُ النّساء في رأفةٍ ورحمةٍ وحمايتهنّ في حزمٍ وقوةٍ من أشدٍّ ما يُبتلَى به الرّجال ، وهو عليْهم أشدّ مِن لقاء العدوّ ، فَالقوامة عليْهن لا بدّ فيها مِن امتزاجِ الرّعاية بالحماية ، والرّأفة بالحزم ، وتكاليفُ تحقيق الوفاء بذلك على الوجه الأمثل جدّ عظيمةٍ ، فإذا ما أضفتَ إلى ذلك ما يكونُ بيْن الرّجلِ ومن ابتلي بالقوامة عليْه رعايةً وحمايةَ من رحمٍ ، وعاطفةٍ فتيّة ، ولا سيّما إذا كان للمرأة في قلبِ من ابتلِي بالقوامةِ عليها مِن المحبّةِ والشغفِ بها امرأة لا أنثَى ، كلُّ ذلك يبيّن لك كَم تكونُ الفتنةُ للرّجال بفريضة القِوامة على النّساء ، وبهذا يتبيّن لك أنَّ هذا البيان النبويّ الرّحيم الحكيم **«مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»** لا يحسنُ فقهُه إلاّ في سياق قولِ اللهِ ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ **﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾** (النساء: ٣٤) (١)

محصّلُ القولِ إنّ على من ابتلي بالقوامة على المرأة أنْ يحرصَ على إقامتِها في مساقاتٍ معرفية وعلميّة وسلوكيةٍ تجعلُها البصيرةَ بأمرِها ، فتكونُ الأرغَبَ فيما يَحميها من نفسِها الّتي بين جنبيها ، وممّا يُحيط بها من شُبهاتٍ وشهواتٍ وظلماتٍ .

* * *

---

(١) يذهب صديق خان إلى أنّ وجه كونهن أضرّ لأن الطباع تميل إِلَيْهِنَّ كثيرا وَتَقَع فِي الْحَرَام لأجلهن وتسعى لِلْقِتَال والعداوة بسببهن وَأَقل ذَلِك أَن ترغبه فِي الدُّنْيَا وإفسادها أضرّ «(حسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة . تأليف : أبي الطيب محمد صديق خان بن حسن بن الحسيني القِنَّوجي (ت : ١٣٠٧هـ) تحقيق : مصطفى الخن ـ ومحيى الدين مستو . ط. الثانية مؤسسة الرسالة ـ بيروت . ١٤٠١هـ ص ٣٦٥

مقومات شخصية الزّوجة الصالحة :

تبدأُ الآيةُ ببيان شأن الرجال في علاقتهم بالنّساء ، فتعطفُ الآيـة عـلى بيان شـأن الرجـال مـعَ النساء بيـانَ شأنِ الصَالحات من النساءِ مع الرجالِ : ﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ هذه « الفاء » لتفريعِ حُكم النّساء على حُكم الرّجال في علاقتهن بالرّجال . وجاء الإعراب عَنْهنَّ بـ« الصّالحات » لفتًا إلى السّمة التي يجبُ تحقيقها في النّساء ، لأنَّ صلاح المرأة فـي نفسِها مثمرٌ لصـلاح مـن ستكـون راعيـة لـه مـن زوجٍ وولـد ، ممًّا يترتبُ عليه صلاح المجتمع .

روى الترمذي في كتاب (تفسيرِ القرآن) من جامعه بسنده عَنْ ثَوْبَـانَ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتِ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ ﴾ (التوبة:٣٤) قَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فِى بَعْضِ أَسْفَارِهِ فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ أُنْزِلَ فِى الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ مَا أُنْزِلَ ، لَوْ عَلِمْنَا أَىُّ الْمَالِ خَيْرٌ فَنَتَّخِذَهُ فَقَالَ : « أَفْضَلُهُ لِسَانٌ ذَاكِرٌ وَقَلْبٌ شَاكِرٌ وَزَوْجَةٌ مُؤْمِنَةٌ تُعِينُهُ عَلَى إِيمَانِهِ » . قَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ ، رواه ابن ماجه ، وأحمد في مسندِهِ (صَحّحه الألباني) .

تبصر أنه جعل ما يتموله المرء صنفين : الأول : أمر من داخله (لسان ذاكر وقلب شاكر) والآخر : من خارجة (زوجة مؤمنة ...) ، وفي الإعراب بقوله (زوجة) ما يهدي إلى حسن اختيار ما تتحقق به الموافقة والمكاملة ، فلن تكون زوجة إلا إذا كانت تكمله في تحقيق رسالته ، وتعينه على إيمانه .

وأخبرَ عن الصّالحات بخبرين كليين : الخبر الأول : خاصّ بشأن المرأة الصالحة وحليتها في حال حضور زوجها معها ، والخبر الثاني : خاص بشأنها في حال غيابه عن مجلسها للقيام بما عليه من السَّعى في استجلاب الرزق الطيب ، أو الدفاع عن دينه ووطنه ، أو قضاء مصالح العباد ... إلخ .

الخبر الكليَ الأول : «قانتات» والقُنوت هنا يحملُ معنى الطَّاعة عن محبةٍ وإجلال ، وهو يتحقّق في علاقتهنّ بالله سبحانَه وتعالى ، وفي علاقتهنّ بالرّجالِ المُكلّفين بالقوامة عليْهنّ ، فالقنوتُ ليس الطاعة الجرداء التي قد تكون عن عجز وقهرٍ ، إنّما هُو طاعةٌ جامعةٌ للخضوعِ النَّفسيّ المنبثق مِن المَحبّة والإجلالِ مع دَيمومةِ هذه الطّاعةِ .

وقنوتُ المرأة لله تعالى ظاهرٌ ، وقنوتها لوليها من الرّجال هو الطاعةُ ، والخضوع للولاية عليها في غير معصيةِ الله تَعالى ، فلا تتمردْ ، ولا تترفعُ ، مهما عظمَ قدرُها اجتماعيًا ، أو علميًا ، أوْ ماليًا ، أو نسَبًا ، أو جمالاً . . . وهذا القنوتُ لولي الأمْر هو لا محالةَ ثمرة قنوتها لله جَلَّ جلالُه ، وقد كانت العربُ تسمِّي الزَّوج «بعلاً» ﴿ **قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ** ﴾ (هود:٧٢) ، وهو ما كانت تطلقه الأمم الأخرُ على آلهتِها ، وكان مِن بيان النبوّة «**لَوْ كُنْتُ آمِراً أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا**» . حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ . (التّرمذيّ في كتاب الرضاع من جامعه . صَححه الألباني)

من الإحسان في تلقّي هذا البيان أن نستحضرَ سياق الإبانة النّبويّة حتى لا يتجرأَ بعضُ النّابتة من الكارهين ما أنزل الله تَعالَى ، وما قالَ سيّدنا رسُوله ـ صَلّى اللهُ عَليْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ ، فيتصايحون بأنَّ نبيّ المسلمين يُهين المرأة ، ويناصرُ الرّجالَ على النّسَاء ، وأن الإسلام دين ذكوريّ ، فيجد المجلس الأعلى للمرأة ضالته في الدّعوة إلى تطهير كتب السّنة من هذا التّحريض الإرهابي للرّجالِ على النساءِ ، فيصنف هذا الدين بأنّه إرهابي ، ويُسْتَصْدَر بذلك قرارٌ عجلٌ مِن محكمة الأمور المستعجلة ، والمحكمة



الإدارية العليا ثم من الأمم المتحدة ، وهي خطوة قادمة لا محالة إِذَا ما بقي المسلمون مستتعجين .

روى ابن ماجه في كتاب (النكاح) من سننه وأحمد في مسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِى أَوْفَى ـ رَضِيَ اللهُ عَنْه ـ قَالَ : لَمَّا قَدِمَ مُعَاذٌ مِنَ الشَّامِ سَجَدَ لِلنَّبِىِّ ﷺ قَالَ : «مَا هَذَا يَا مُعَاذُ ؟» . قَالَ : أَتَيْتُ الشَّامَ ، فَوَافَقْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لأَسَاقِفَتِهِمْ وَبَطَارِقَتِهِمْ ، فَوَدِدْتُ فِى نَفْسِى أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «فَلاَ تَفْعَلُوا فَإِنِّى لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللَّهِ لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ تُؤَدِّى الْمَرْأَةُ حَقَّ رَبِّهَا حَتَّى تُؤَدِّىَ حَقَّ زَوْجِهَا وَلَوْ سَأَلَهَا نَفْسَهَا وَهِىَ عَلَى قَتَبٍ لَمْ تَمْنَعْهُ»[1].

هذا السّياق يهدي إلى أنَّ معنى قوله ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ : « لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللَّهِ لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا »

لو كنت آمرًا أحدًا أن يحيي أحدًا بالسجود كما تريد يامعاذُ لأمرتُ المرأة أن تحيي زوجها بالسجود ، وفي هذا تبيان أنّ ما يسْديه الرّجل لزوجه من الفضلِ ، وما له عليها من التقدير والجلالِ ما لا يكافئه إلا تحيته بالسجود التقديري الترحيبي (لا السجود العبادي) ، كالذي يمارسه الآخرون في تحية من يرون شرف أقدارهم إعلانا عن محبتهم وتقديرهم .

---

(١) أى لم تمنعه وهى قادرة على الوفاء بطلبه عونا له على ألاَّ يفسق ، فتكون سببا في فسوقه متحملة وزره معه ، فهذا هداية للمرأة أن تحمى نفسها من أن تكون سبب فسوق زوجها ، ومثل هذا حق لها إن أشعرته برغبتها في حقها هذا وهو قادرٌ على أن يوفيها ، فواجب عليه ذلك على كماله وإلا كان سببا في فسوقها فيحمل من أوزارها حينذاك .

هو سُجود تحية لايقدح في صَفاء العقيدة على هذا الوجه ، فهو كالذي كان على عهد سيدنا «يوسف» ـ عَلَيْه الصلاة والسّلام ـ ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ (يوسف:٤) . ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (يوسف:١٠٠). السجود كما ترى في الاثنين سجود تحية لا سجود عبادة .

وعلى الرغم من أنه سجود تحية لا يقدح في صَفاء العقيدة ، وإلا لما فكرسيّدنا معاذ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْه فيه ـ ، فإنَّ رسول الله ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ أبَى أن يفعله مسلم لأحد من العباد لأنه يشبه في صورته سجود العبادة ، وحتى يكون ذلك سدًّا لما قد يبالغ فيه ، فيستحيل في شرعة الطغاة من سجود تحية كالإشارة باليد إلى سجود عبادة ، وهذا من كمال رأفة رسُول الله ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ ورحمته بأمته حماية لها من أن يكون منها ما يقاربها مما يهلكها .

وفي هدي سيدنا رسول الله ﷺ كثير مما دعا إليه أو نهي عنه حفاظا على نقاء العقيدة ، وسدًّا لأبواب الفتنة في المعتقد ، فإن الفتنة فيه من المهلكات ، وهذا ما يوجب على كل ولي أمر أن يحرص على حماية العقيدة الإسلامية نقاء صفاء من كل شوب وإن دقَّ .

والخبر الكليَ الآخر : قوله تعالى : ﴿ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ (النساء:٣٤) أي حافظات ما للرجال من عِرض وولد ومالٍ ونحو ذلك في

غيبتهم ، وهذا من الإبلاغ في تحقق الحفظ في حضورهم ، فهو من التّخصيص بالذكر الذي ليس له مفهوم مخالفة ، فمن كانت حافظة لشأنِ ولي أمرِها في مغيبِه هي أَعظمُ حفظًا لشأنه في مَحضرِه ، وهذا لا يكونُ إلاّ ثمرة مِن ثمار القنوت لله ـ تعالى ـ ثم لوليّ أمرها .

وقوله (للغيب) يحتمل أن تكون (أل) في (الغيب) للمعهود أي حافظاتٍ لغيابِ الزّوج ، فالغيب هو ألا يكون الزوج حاضراً ، وهو المشهور المبذول بيانه في أسفار أهل العلم ، ومخرجه ما جاء في سنن أبي داود في كتاب (الزكاة) بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رضيَ الله عنْهما ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «أَلاَ أُخْبِرُكَ بِخَيْرِ مَا يَكْنِزُ الْمَرْءُ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ وَإِذَا أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ وَإِذَا غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ» . (ضعّفه الألباني) (١)

ويحتمل أن يكون (الغيب) مطلقًا أي يحفظن كلّ غيبٍ أيْ لا تفشي سرًّا ، وهذا أعمّ ، يدخل فيه غياب الزوج وغيبه (سره).

وهذا المعنى العامُّ ، وإن كان فيما يظهر ليس هو المسوق له البيان سوقًا أصليًّا ، فإنّه لا يتعاندُ مع ما سِيقَ له البيان بلْ هو مُتضمّنه ويُحيطُ به ، ومِن البيّن أنَّ أهلَ العلمِ لا يدفعون ما يفهم مِن نظم البيان ، ولا يكونُ معاندًا لما سيقَ له البيان سوقًا أصليًّا فكيف بما هو داخل فيه ؟ ، فقالوا بدلالة

(١) إذا ما كان أهل العلم يحكمون على سند هذا الحديث بالضعف فإنَّ هذا الحديث تبيين للآية التى نحن بصدد تدبرها وهذا ما يقوي معناه ، وقوله «يكنزه» معنى جليل نبيل : هو يهديك إلى أنك إن أكرمت بمثلها فالحذار الحذار أن يفرط فيها فهى كنزك الأحق بأن يرعى ويحمى ولا يرغب عنه ، وقوله (إذا نظر إليها سرته) لفت إلى جمال منظرها ، وقوله «إذا أمرها أطاعته» أى أمرها بمعروف ، وليس مطلق الأمر ، فالشرط في الطاعة أن يكون المأمور به مباحًا وفي طاقة المأمور به ، فإذا تخلف أحد الشرطين سقطت الطاعة ، وهذا لفت إلى جمالها السلوكي .

«الإشارة» ، وبدلالة «الإيماءِ والتّنبيه»، وبهذا لا يكونُ سببُ النّزول في البَيان القرآنيّ أو سبب الوُرود في البيان النّبويّ ، ولا ما سيقَ له البيانُ سوقًا أصليا (دلالة العبارة كما يسمّيه أصوليو الحَنفية) حاصرًا ما يُفهم مِن البيان في منطوقِه ، وبذلك تتسعُ الرّؤية المستقبلةِ ، فاتساعُ الرّؤية «فهمًا» عديلٌ اتساعُ الرّؤية «إفهامًا» في البيان البشريّ البليغ ، وهذا منْ الأُصول الكليّةِ المُهمّةِ في باب «الفهم»، ومن لا يحسن هذا يكون رزقه من البيان العالى قليلا .

كان يمكن أن يقال عربية في غيرِ القرآنِ (حافظاتٍ الغيب) ، بيْد أنّ البيانَ القُرآنيّ قال : (حَافِظاتٍ للغيبِ) هذه «اللام» الجارة فيها معنى تقويةِ التعدّي الّذِي في اسم الفاعلِ (حافظات) ، كما تقول : «شكرتُ مُحمّدًا» ، و«شكرتُ لمحمدٍ» «نصحت خالدًا» ، و«نصحتُ لخالدٍ» يستشعر من هذه «اللام» قوةُ وقوع الحدث ، وأنّه لم يكن أمرًا معهودًا ، بلْ فيه مزيد احتشادٍ واعتناءٍ بوقوعِه .

ومن هذا قول الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ (لقمان:١٢) تبصر كيف أنه جعل في مقابل «الشكر» «الكفر» لينفر من ترك «الشكر» على النعمة شكرًا عمليا سلوكيا مقارنا للشكر اللسانىّ الجاهر بتفضل الله بنعمته ـ جلّ جلاله ـ . فتعدية الفعل المعدى بنفسه بحرف جر إما أن يكون لتضمينه معنى فعل يعدى بذلك الحرف ، وهذا فيه اتساع مدلول ورحابة عطاء ، وإما أن يكون هذا تقوية لتمكن الفعل من المفعول ، وأنه محكم فتى كميل في ذاته وصفاته في جميع أحواله ومساقاته ، وهذا عائد بالنفع على الدلالة كما عاد التضمين بالنفع على المدلول .

* * *

كان مقتَضَى الظَّاهرِ أن يأتي قوله ـ جَلّ جَلالُهُ ـ : ﴿ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ (النساء:٣٤) معطوفًا على قوله ـ تَعالى ـ : ﴿ قَـٰنِتَـٰتٌ ﴾ بـ« الواو »، فيقال : وحافظات للغيب ، بيْدَ أنّ الْبيان القرآنيّ عدل عن ذلك ، فجاء به غيرَ معطوفٍ على ما قبله ، لفتًا إلى أنَّ صَلاح المرأة يتحقق بِجمعِها بين النّعتين ، ولَو لم يكن ذلك على درجة الكمالِ ، فـ« الواو » حين تقوم بين نعوتِ العباد يكون في هذا دلالةً على كمالِ الصّفة في المَوصوف ، وكمال المَوصوف في تحقيقِ الصفة ، أنت إذا قلتَ : « محمَّدٌ كريمٌ وشجاعٌ » ، فهذا غاية في الثّناءِ عليْه ، وإذا قلت : « محمّدٌ كريمٌ شجاعٌ »، فهذا لا يُفهم منه الإشارةُ إلى تحقّق كمال الصفتين فِيه ، وإن فهم حضورهما معًا في وقت واحد فهو كريم حال شجاعتِه وشجاع حال كرمِه ، فلحضور « الواو » معنًى ، ولغيابها معنًى ، ولحضور الواو بين النعتين دلاله على كمال كل نعت في المنعوت وعدم توقف كماله فيه على النعت الآخر ، ودلالة على اجتماعهما ولو على سبيل التعاقب ، فالتغاير الذي في الواو تغاير في زمن التحقق ، أى أنهما لم يكونا معًا في زمن واحد وحال واحد ، وعدم حضور الواو في النعتين دال على أنهما لا يفترقان بل هما كالمتمازجين ، فهو كريم في شجاعته وشجاع في كرمه ، وهذا في شأن العباد ، أما في صفات الله ـ تعالى ـ فالأمر على غير هذا ، ومن ثَمَّ لَمْ يأتِ هنا الوصل بـ« الواو » ولو جاء لفهم اشتراط الكمال في كلّ ، وهذا متعذّر ، فالبشرُ عامَّة مفطورون على الخطأِ والنّسيانِ ، والمرأة خاصَّة لها من هذيْن نصيبٌ موفورٌ ، وفي هذا تثقيفٌ نفسيٌ وتهذيبٌ سلوكيٌّ للرّجالِ ألا يطلبوا مِن نسائهم تحقيقُ الكمال في هذين النّعتين ، بل عليهم أن

يقبلوا منهنّ ما اقتدرن عليْه ، وأن يعفو الرجالُ عمًّا لا يكون متعمدًا ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (الأعراف:١٩٩) ﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ (الحجر:٨٥) ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النور:٢٢)

روى مسلم في كتاب (البر والصّلة ، والأدب) من صَحيحه بسنده عَنْ عَائِشَةَ ـ رضِيَ الله عنها ـ زَوْجِ النَّبِيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ : « إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ».

ولو تأملت المرأة هذه المعاني الوافدة عليها من طي (الواو) بيْن الحليتين ﴿ قَٰنِتَٰتٌ ﴾ ﴿ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ (النساء:٣٤) لأدركتْ أن القرآن له مسالك لطيفة وطريفة وفتية أيضًا إلى الإنباء بشأن «المرأة» عند خالقِها ـ عَزَّ وجلَّ ـ فإن من تحت المعنى الظاهر معاني نبيلة وجليلة ووفيرة ، لا يستغني عن حملها واسْتطعامها وتذوقها إلا مغبونٌ مأفون ، وجمهرة الذين لا يكفون عن التهافت في القول الضليل تأويلاً لآيات وأحاديث في شأن المرأة هم لا يملكون مهارات الفهم في بيان الوحى ، ولا الوعى بأصول التلقى لهذا البيان ، إنهم يقدمون على ما ليس لهم العدة على الإقدام عليه ، وهذا من الجراءة التي لا يستمسك بها إلا من لا يعرف قدره أو يبتغى الفتنة والإفساد في الأرض .

* * *

قلت إن في طي (الواو) معنًى تربويًا للرجال ، معنًى يحملهم على الرضا بما تبذله المرأة من هاتين الحليتين قدر طاقتها ، فلا يكلفها ما قد يراه عند غيرها من أترابها ، فإنَّ الأصل الكليّ القويم في معاملة العبدِ إخوانِه في

الآدميّة أن يكونَ له منهم إن قصروا أوْ أساءوا إليه ما يُحبُ أن يكونَ من الله - العليّ العظيم - له إذا ما هو أساءَ معه - جل جلالُه - ، إذا ما استَحْضَرنا هذا الأصلَ في قلوبنا وخادناه استقامتْ حركةُ الحياةِ واستفد العباد جُهدَهم وعُمرَهم في استعمارِ الحياة بما يُحبُّ الله - ذو الجلالِ والإكرام - أن تستَعمرَ بِه .

وقد كان من هدي النبوةِ «أَيَعْجَزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ أَبِى ضَمْضَمٍ» . قَالُوا : وَمَنْ أَبُو ضَمْضَمٍ ؟ قَالَ : «رَجُلٌ فِيمَنْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ قال عِرْضِى لِمَنْ شَتَمَنِى».. (سنن أبي داود : كتاب الأدب) [1].

فكان طيّ «الواو» بين حليتي المرأة الصالحة حاملاً فيضا من عظيم رحمة الله - سُبْحَانَهُ وَتَعالَى - ، فلم يعلق إدخالها في «الصالحات» على كمالها في الحليتين ، وإلاّ لكان هذا من العنت بها ، وهذا ما لايليق نسبته إلى الله - جَلّ جَلالُهُ - ، فطي «الواو» هنا أبلغ من حضورها ، وفيه تربية

---

(١) قوله : «عرضى لمن شتمنى» أيْ وهبت عرضى لمن شتمنى فلا أطلب منه قصاصًا في الدنيا ولا في الآخرة ، فلا هو يرد عليه شتمًا ، ولا يقاضيه عند ولى الأمر ولا يطلب من الله تعالى عقابه ، هذه الرؤية التسامحية منبعثة من نظره إلى من شتمه أنه أساء هو إلى نفسه قبل أن يسيئ إليه هو ، هو لم ير نفسه أهلا لأن تحسن إلى غيرها ، وهذا يكفى شتمًا لها ، ونحن في عوز بالغ إلى هذه الرؤية التسامحية ، ولكن هذا لا يحسن إلا أن يكون قادرًا على الدفع والرد والانتصاف لا أن يقوله عجزًا وخورًا ، لأن هذا يكون فيه عونٌ للظالم على أن يستمرئ العدوان والبغي ، فنعينه بالسكوت على ذلك فنكون له ظالمين ، فهل لمساجدنا ومنتدياتنا ومعاهد العلم ووسائل الإعلام والتثقيف أن تعنى بترسيخ هذه القيم الآدمية في الناس ؟ لعلهم يفعلون .

للرجال ألا يطلبوا من الآخرين الكمال في ما يحبون منهم «خذ العفو» فكما تحب ألا يكلفك الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ بالكمال في ما يُحب منك عامل أنت أخاك، وهذا ماهدَى إليه بيان النبوة.

رَوَى ابن ماجه في كتاب (الزّهد) من سُننِه، والترمذِيّ في جامعه، وأحمد في مسنده، كلٌّ بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْه ـ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا وَأَحْسِنْ جِوَارَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِمًا وَأَقِلَّ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ».

لما كان الإيمان أساسه عمل قلبى لا يطلع عليه أحد سوى الله ـ تعالى ـ جعل محبة الخير للناس آية عليه، والمحبة عمل قلبىّ أيضًا، فكان تشاكل بين الدال (المحبة) والمدلول عليه (الإيمان) وهذا من بليغ البيان.

وكل من «الإيمان» و«المحبة» لا يطلع الناس عليهما إلا من خلال سلوك صاحبهما، ففعلك قولاً وعملا يدل على ما في قلبك من «إيمان» و«محبة للخير».

* * *

والمرأةُ الصالحة القانتة الحافظة للغيبِ بما حفظ الله تَعَالَى جَدُّهُ، هي عديلُ زوجها في كلّ ما يكتسِبُ من الأعمالِ الصَالِحة من غير أن ينقصَ من مثوبته شيءٌ منْ أنّها عونُه على ذلك، فهي بقنوتها، وحفظها الغيب بِما حفظَ الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ، وهي برعاية بيْت زوجها قد أعانته، وهيئته لاكتساب تلك الأعمال الصالحة، وقد جاء في بيان النبوة بسند فيه ضعف أنَّ حُسن

رعاية المرأة زوجَها وبيته يعدِلُ كلَّ ما يكتسبُه الرَّجل من جليل الأعمالِ الصالحة .

روَى البيْهقِيّ فِي «شُعبِ الإيمان» بسنده عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ الأَنْصَارِيَّةِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ ، أَنَّهَا أَتَتِ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَهُوَ بَيْنَ أَصْحَابِهِ ، فَقَالَتْ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، إِنِّي وَافِدَةُ النِّسَاءِ إِلَيْكَ ، وَاعْلَمْ ـ نَفْسِي لَكَ الْفِدَاءُ ـ أَمَا إِنَّهُ مَا مِنِ امْرَأَةٍ كَائِنَةٍ فِي شَرْقٍ وَلاَ غَرْبٍ سَمِعَتْ بِمَخْرَجِي هَذَا أَوْ لَمْ تَسْمَعْ إِلاَّ وَهِيَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِي ، إِنَّ اللهَ بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِلَى الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فَآمَنَّا بِكَ وَبِإِلاَهِكَ الَّذِي أَرْسَلَكَ ، وَإِنَّا مَعْشَرَ النِّسَاءِ مَحْصُورَاتٌ مَقْصُورَاتٌ ، قَوَاعِدُ بُيُوتِكُمْ ، وَمَقْضَى شَهَوَاتِكُمْ ، وَحَامِلاَتُ أَوْلاَدِكُمْ ، وَإِنَّكُمْ مَعَاشِرَ الرِّجَالِ فُضِّلْتُمْ عَلَيْنَا بِالْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَاتِ ، وَعِيَادَةِ الْمَرْضَى ، وَشُهُودِ الْجَنَائِزِ ، وَالْحَجِّ بَعْدَ الْحَجِّ ، وَأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا أُخْرِجَ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا وَمُرَابِطًا حَفِظْنَا لَكُمْ أَمْوَالَكُمْ ، وَغَزَلْنَا لَكُمْ أَثْوَابًا ، وَرَبَّيْنَا لَكُمْ أَوْلاَدَكُمْ ، فَمَا نُشَارِكُكُمْ فِي الأَجْرِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ : فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ إِلَى أَصْحَابِهِ بِوَجْهِهِ كُلِّهِ ، ثُمَّ قَالَ : «هَلْ سَمِعْتُمْ مَقَالَةَ امْرَأَةٍ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْ مَسْأَلَتِهَا فِي أَمْرِ دِينِهَا مِنْ هَذِهِ؟» فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا ظَنَنَّا أَنَّ امْرَأَةً تَهْتَدِي إِلَى مِثْلِ هَذَا ، فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ إِلَيْهَا ، ثُمَّ قَالَ لَهَا : «انْصَرِفِي أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ ، وَأَعْلِمِي مَنْ خَلْفَكِ مِنَ النِّسَاءِ أَنَّ حُسْنَ تَبَعُّلِ إِحْدَاكُنَّ لِزَوْجِهَا ،



وَطَلَبَهَا مَرْضَاتِهِ ، وَاتِّبَاعَهَا موافقتَهُ تَعْدِلُ ذَلِكَ كُلَّهُ» قَالَ : فَأَدبرَتِ الْمَرْأَةُ وَهِيَ تُهَلِّلُ وَتُكَبِّرُ اسْتِبْشَارًا»(حديث رقم : ٨٣٦٩) [(١)]

والإعراب بقوله ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ (تبعل) : «حُسْنَ تَبَعُّلِ إِحْدَاكُنَّ لِزَوْجِهَا ، وَطَلَبَهَا مَرْضَاتِهِ ، وَاتِّبَاعَهَا مُوَافَقَتَهُ تَعْدِلُ ذَلِكَ كُلَّهُ» هادٍ إلى أن المرأة الصالحة المشاركة زوجها في الأجر إنّما تكون خدمتها زوجها ورعاية شؤونه وشؤون بيته وطاعته في غيرِ معصية الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ إنّما هي احتسابٌ لمثوبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ، فإنّ من وجوه معنى «التبعّل» حسن العشرة بيْن الزوجين ، ومن «التباعل» ملاعبة كلّ الآخر ، تودداً وتحبباً ، ومن معانيه حسن التزلّف وديمومته كما يفعل العابد بما يعبد ، وقد كانت بعض العرب تسمّي «الصَّنم» «بعلا» ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

(الصافات:١٢٥،١٢٦)

وإذا ما كان في حديث «خطيبة النّساء» : أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ الأَنْصَارِيَّةِ ضعفٌ في سند رفعه إلى سيدنا رسول الله ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ فإنّ معناه وما هدَى إليه له نظائر في السّنة الصّحيحَة الوثيقة

---

(١) شُعب الإيمان ، تأليف : أبي بكر البيْهقيّ : أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني (ت : ٤٥٨هـ) تحقيق : عبد العلي عبد الحميد حامد ، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند ، ط . الأولى ١٤٢٣ هـ . ١١/١٧٧ ، حديث رقم (٨٣٦٩)

ضعّف الألباني سنده في كتابه : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة . تأليف : أبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين ، ابن الحاج نوح بن نجاتي ابن آدم ، الألباني (ت : ١٤٢٠هـ) دار المعارف ، الرياض ـ ط. الأولى ١٤١٢هـ . ١٢/٥٢٤ ، حديث رقم (٦٢٤٢)

الصَّريحة ، من ذلك ما رواه أبو داود في سننه : (باب الدّال على الخير كفاعله) والترمذيّ في كتاب «العلم» من جامعه ، وأحمد في مسنده والبخاري في «الأدب المفرد» بسندِهم عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ ، قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي أُبْدِعَ بِي فَاحْمِلْنِي ، قَالَ : «لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكَ عَلَيْهِ ، وَلَكِنِ ائْتِ فُلاَنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَحْمِلَكَ» فَأَتَاهُ فَحَمَلَهُ ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»

صحّحه الألباني في صحيح الترمذيّ (حديث : ٢٦٧٠) وفي صَحيح الأدب المفرد . (حديث٢٤٢/١٨١) وفي السلسلة الصحيحة (حديث رقم : ١٦٦٠)

فإذا كان الدّالُّ على الخيرِ كالفاعلِهِ ، فكيفَ بالذي أعان عليْه ؟

قد جاء فيما رواه الشَّيخان : البُخاريّ في كتاب (الجهاد) ، ومسْلِمٌ في كتابِ (الإمارة) مِنْ صَحيحيْهما بِسنَدِهِمَا عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الجهني ـ رضي الله عنه ـ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا ، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا» .

وليس تجهيزُ الغازي بالمنحصِرِ في تجهيزه بأدواتِ الجهاد الحِسيّة من سلاح ومركب ومطعمٍ ومشربٍ ودواءٍ ، بلْ من تجهيزه إعدادُه نفسيًا وعقليًا وقلبيًّا وروحيًّا وجسديًا ، وكلُّ ذلك للمرأة أمًّا ، وزوجًا ، وأختًا ، وبنتًا النّصيبُ الأوفر ، ما عليْها إلا أن تحتسبَ ، وأن تجتهدَ في ذلك ، فعلينا أن نعلمهُنّ أدبَ الاحتساب وصَفاءه ، وأصول الاجتهاد في صناعة الأشياء وإتقانها .

ما مِن مجاهدٍ في سبيل الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ إلا وهو صنيعةُ امـرأةٍ صـالحةٍ قانتةٍ حافظةٍ للغيب بِما حفظَ الله ـ تعالَى ـ ، ومَا من عالمٍ يُجاهـد بعلمِـه في سبيلِ الله ـ جَلّ جَلالُهُ ـ إلا هو صنيعةُ امرأةٍ صالحةٍ قانتةٍ حافظةٍ للغيـب بِمـا حفظَ الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ ، فلكلٍّ مِن المثوبـةِ مـا لـذلك المُجاهـد مـن غـيرِ أن ينقصَ من أجرِه شيءٌ تفضّلا مـن الله ربِّ الْعـالمين سُبْحَانَه وَبِحَمْـدِهِ ، فـإنْ كانتْ مثوبتُه مثوبةَ الشهداءِ فللمرأةِ الّتي أعـدّتـه لهـذِه الشـهادةِ فـي سبيـلِ الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ عديلِ ما له ، ولو اسْتحضرَت كلّ مُسلمةٍ هـذا في وعيهـا لمـا رأيت امرأة إلاّ وهـي المعتكفَة في مِحرابِ صناعةِ الرِّجال فُرسـانًا يَنصـرون الحقّ ، وعلماءَ يصطنعون النّور (العلم) وينشـرونَه ، وعمَّـالاً يُنتجـون الخـيرَ وينشرونَه في النّاسِ كلِّ النَّاس .

* * *

تلك هي المرأةُ الصَّالحةُ القانتةُ الحافِظةُ للغيبِ بِما حفظَ الله ـ تَعالى ـ في هدي بيان الوحي قرآنـًا وسنة ، فهلْ هضَمها الإسلامُ حقًّا ، هل أعلَى شأن الرّجلِ عليها ؟ تلك رسالةُ المرأةِ الصَّالحة في الإسلام : صناعة الرّجال فرسَانًا يَنصرون الحقّ ، ويُؤازرون المظلوم ، ويأخذون على يد الظَّالم ، ويَهدمون صروحَ الفسادِ ، وَيَقْمَعونَ صُنَّاعَه ومُدراءَه ، وصِناعة عُلَماء وعمالاً يصنعون الخيرَ وينشرونه .

فإذا أرادت المرأةُ أن تجعلَ لنفسِها رسالةً هي رسـالـةُ الرّجال ، فكأنَّـها ما رضيتْ اخْتيارَ الله ـ تَعَالَى ـ لها ، وهو الّذي خلقها ، وأعدها للرِّسالةِ الّتي اختارَهَا لَها ، ولم يعدَّها نَفسِيًّا وعَقَلِيًّا وقلبِيًّا وروحِيًّا وجسديًّا لرسالة الرّجل ، وكأنَّـها بما رغبتْ عنه من مختار الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ لها قد ردّته عليْه ، وكأنَّـها تقول له ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ بلسان حالها : أنا أيها الإله أعلمُ بشؤوني

وأمري وصالحي منك ، فدعْني أختار لنفسِي ما أراه أنفع لِي ، لم تفرضُ عليَّ ما لا أريدُ؟

كذلك يؤذّن لسانُ حالِها ـ وإن لم تَعِ ـ حِين تجعلُ لنفسِها اختياراً غير مختارِ الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ لها ، وأهل التّربية الراشدة يقولون لنا : « إذا خيِّرتَ أنْ تختارَ ، فاخترْ ألاَّ تختار» وذلك حين يكونُ مُخيِّرُك أعلمَ بحالِك منك ، كيف يكونُ للعبدِ مع سيِّده وخالقِه العليم الخبير به ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ اختيارٌ مع اختيارِه جَلّ جَلالُهُ ؟

أليس من أذكار الصَّباحِ الّتي يسْتفتحُ بها العبدُ يومَه ، وأذكار المَساء التي يختم بها يومه : « رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا » . ما مَعنى رضيت بالله ربًا ؟

أليسَ من فيضِ معناها الرّضا والطمأنينة بمختارِه ، وبقدَره ، وبقضائه ، وبما شرع من أمرٍ ونهي ، فإن لم يكنْ هذا حاضراً في وَعْي العبد ، وهو يُعلن هذا لله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ في صباحِه ومسائِه ، فإنّما هو يقولُ ما لا يعقل ، والله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ لا يقبلُ ذكرًا ودعاءً من قلبٍ غافلٍ .

روى الترمذي في كتاب الدعوات من صحيحه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاَهٍ» .

قَالَ أَبُو عِيسَى : هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ، سَمِعْتُ عَبَّاسًا الْعَنْبَرِىَّ يَقُولُ : اكْتُبُوا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْجُمَحِىِّ فَإِنَّهُ ثِقَةٌ ، وصَحَّحه الألْبانيّ في سلسلَةِ الأحاديثِ الصّحيحة ، حديث رقم (٥٩٤) وحسّنه في صحيح الجامع الصغير ، حديث رقم (٢٤٥)

ألا يستْشعِر العبدُ عظيم تفضل الله ـ جَلّ جَلالُهُ ـ عليه في ما شرع له أن يذكر الله ـ سُبْحَانَهُ وتَعالَى ـ به قائلا : «رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا».؟

ألا يستشعر العبدُ عظيم محبةِ الله له إذ جعلَ رضاه بالله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ ربًّا ذكرًا يثاب عليْه ، فيذكره ربه ـ عَزَّ وجلَّ ـ في ملأٍ خيرٍ من ملإ العبدِ ؟

روى الشَّيخانِ : البُخاريّ في كتاب (التوحيد) ، ومسْلِمٌ في كتابِ (الذكر والدّعاء والتّوبة) مِنْ صَحيحيْهما بِسنَدِهِمَا عنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ـ رضى الله عنه ـ قَالَ : قَالَ النَّبِىُّ ﷺ : «يَقُولُ اللَّهُ ـ تَعَالَى ـ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِى ، فَإِنْ ذَكَرَنِى فِى نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِى نَفْسِى ، وَإِنْ ذَكَرَنِى فِى مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِى مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَىَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَىَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَانِى يَمْشِى أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»

من يرْضَى بمن ؟!!! أنحنُ العبيدُ على ما بنا من عَوَزٍ نرضَي بالله الأحدِ الصَّمدِ ربّا ، أم هو الذي يرضى بنا عبيدًا ؟!!! أذقتَ جمالَ الجلالِ في قولك (رضيتُ بالله ربًّا . . .)

الأولى أنْ نستجديَ الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ أن يرضَى بنا عبيدًا له ، فذروة الشرف أن تكون لله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ عبدًا وعابدًا ، ومن السنة البيانية للقرآن أن يعربَ عنْ رسُول الله ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ بحلية العبودية في مقام التشريف: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ

لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الإسراء:١) ، بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ (الكهف:١) (١)

إن من جليلِ الحمد إذا سجد العبد في الصلاة أن يحمد الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ أن أذن له أنْ يسجدَ بيْن يديْه؟ إنّها نعمةٌ من أجلّ النِّعم ، ألمْ يقل سيّد الأنبياءِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ـ : « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ» . (رواه مسلم في كتاب الصلاةِ من صحيحه من حديثِ أبي هريرة ـ رَضِيَ اللهُ عَنْه ـ)

إنَّ الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ يكرّمنا ، يتودّد إليْنا ، يتلطّف بنا ، لنقبلَ نحن العبيد عليْه ، وهُو الغنيُّ الحميدُ عن كلّ العالمين أجمعين ، ألا يخجلُ العبدُ من

---

(١) تدبر الاستفتاح بالامتنان بالنعمتين : نعمة الإسراء ، ونعمة إنزال القرآن ، والاستفتاح بالإبانة عن حلية من كانت له هاتان النعمتان (بعبده) (على عبده) فكمال العبودية لله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ هو مفتاح فيوض عطاء الربوبية .

وإذا ما كانت سورة (الإسراء) قد استفتحت بالتسبيح والتنزيه فإنها ختمت بالأمر بالحمد على كمال الوحدانية ، وبتكبيره(تنزيهه) ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ (الإسراء:١١١)

وإذا ما كانت سورة الكهف استهلت بالحمد على نعمة إنزال القرآن على عبده ، فإنها بالأمر بوحدانية الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ (الكهف:١١٠) ومثل هذا يسوق إلى قلبك فيضًا من معاني الهُدَى في كتابه سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ .

ربّه ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ ، وهو يقول له اذكرني بأنّك رضيتَ بي ربًّا ، وبالإسلام الذي اخترتُه لك دينًا ، وبسيد خلقَي وأجلهم عندي لَك نبيًّا .

رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمّد ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ نبيًّا ورسولا ، فارضَ اللهم بنا عبيدًا ، وارضَ عنا واقبلنا وأقبلْ علينا ، بما تقبلُ بِه على عبادك الصالحين الْمُخْلِصِينَ الْمخْلَصِين . .

المـدارسـة الثالثة
العلاقةُ بيْن الرجل والمرأة
في حال المخالفة والمباعدة والمشاقة
أحكام وآداب

لمَّا كان مقتضَى الفطرةِ ، والعلاقة القائمة بين الرجال والنساء أن يقعَ شيءٌ ممّا لا يتوقعُ منهنّ ، ولا سيما اللائي يشعرن بشيْءٍ من التَّميز الحسيّ أوْ المعنويّ ، الوهبيّ أو الكسبيّ ، جاء قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّ ﴾ (النساء: ٣٤) عطفًا على قوله (الصَّالحات)

وفي تقديم الإبانة عن حالِ « الصّالحات» منهنّ على حـال غيرهـن لفـتٌ إلى أنّ الأصلَ أنـهنّ الأكثرُ ، أو ينبغِي أن يكنّ الأكثرَ بعثًا للرّجـال علـى ألاّ يتسلَّل اليأسُ إلى قلوبهم ممّـا قـد يكـونُ مـن حـالِ غـير الصّـالحات ، فهُـنّ خروجٌ عن الأصلِ ، وهذا ممّا يعينُ على استنفار الرّجال إلى أن يُقبلوا علـى علاجِ ما يكون من غيرِ الصَّالحات وفق هدي بيانِ الوحْي بعزمٍ فتيّ ، وحكمة نافذة ، واحتساب صَفِيّ .

وعطفُ حالهنّ على حال الصّالحات فيه أن بيْن البيانين تكاملٌ عن حالَيْن متقابلَيْن للمرأة ، فقد يقعُ من الصّالحة ما يمكنُ أن يُستشعر منه وليُّ أمرِها النّشوزَ (على اتساع مدلولِه وما يندرج فيه) ، فكان هذا من تكامل البيان ، فحرى ألاَّ يتلقاه الرّجال على أنّه انحرافٌ ، وخرقٌ وتمردٌ يقابلُ بحزمٍ وحسمٍ بالغين ، فإنّ تأليفَ القلوبِ منهاج نبوي كريم ، وقد شاع في عصرنا ومصرنا الإصرارُ على تجاهلِه بل إماتتِه ، بل التَّنفيرِ منه ، وتسفيهِ من يستمسِك به .

إنّ على ولاة أمرِ النّساءِ أن يكونُوا على ترقّبٍ أن يقعَ شَيْءٌ من النّشُوز مِن أيّ منهنّ مهما سما نسبُها وحسبُها ، ومَهما حازت من درجاتِ العلمِ والتأديبِ وارتقت عَلِيَّ المناصِبِ ، فما كان من سيّدتنا عائشَة وحفصة ـ رَضِيَ الله عنْهما ـ مع سيّدنا رسُول الله ـ صلّى الله عليْه وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّمَ ـ وكان معه نزول سورة «التّحريم» آيةٌ بيّنة على ذلك .

ومن البيّن أنَّ النّشوزَ مستوياتٌ ، ولكلّ مستوًى ما يُعالجُ بِه ويُساسُ ، وحين يكونُ المرءُ متوقعًا أمرًا فإنّه يعد له نفسَه سكينةً ، وعقله يقظة ، وأدوات علاجه تمكنًا من قبلُ ما يتلقاه ، فيكونُ على معالجته أقدرَ وأحكمَ ، وهذا من عون الله ـ ذِي الجلالِ والإكرامِ ـ للرّجال على أن لا يُصدَم أحدُهم بنشوزٍ من إحدَى نسائه ، فيقابله بِما لا يثمرُ إصلاحًا ، فيكون هو قد شذَّ عن الجادّة ، وفيه أيضًا فيضٌ من رحمة الله الرّؤوف الرَّحيم بهنّ ، إذ هيأ الرّجالَ بهذا البيانِ لحسن تلقّي ما قد يقعُ منهن ، فطرةً أوْ غفلةً أوْ جهالةً ، أوْ ضلالةً فلا يكونُ منهم إلا ما يُصلح شأنهنّ ، وإنّ لَمن نعمةِ الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ

على المريضِ أن يَهدِيَ ويسدّدَ من يتولّى علاجَ مرضِه ، ويوفقَه لحسنِ العلم بالمرضِ وأسبابِه وما يُزيله ، وما يَقِي منه[1].

وفي الإعراب بقوله : (تَخافُون نشوزهن) دون (والناشزات) كما هو مقتضَى الظَّاهر ، مقابلة لقوله : (الصَّالحات) لفتٌ إلى أنّ على الرّجلِ أن يرقبَ أحوالَ نسائِه اللّائِي يتولّى أمرَهن ، فلا يغفُلُ عمّا يجرِي فيهن ومنهن ، بلْ ولا يغفَلُ عمَّا يَحومُ حولهنّ صباحَ مساءَ من إغرائهن بالنشوزِ ، ولا سيّما في عصرِنا ومصرِنا الّذي تنفقُ فيه نساؤنا نصف عمرهن أمامَ وسائلِ الإغراء بالنشوز والتّدريب عليه وتكريم رائداتِه ، فالتخوّفُ لا يكونُ إلا ممَّن يَرقُبُ ويتابعُ ، أمّا ذلك الغافل المغلفُ بشهواته ، فإنّه يجدُ نفسَه أمامَ الأشياءِ وجهًا لوجهٍ ، ممّا قد لا يُعينُه ذلك على حسن السّياسة والرِّعاية ، بل يدفعه إلى التعثر ، فيكبو علَى وجهه ، فيفسد أكثر مما يُصلِحُ ، وقوله : «تخافون» إمَّا أن يكون معناه تخافون وقوعه أو تخافون آثار وقوعه - في الأوَّل إيلاغ في الحثّ على المراقبة لحال المرأة ، حماية لها من أن تزل قدمها في مدبَّات «النّشوز» .

وفي الآخر إعلامٌ بأنَّ النشوز قد لا تعصم منه امرأة ، فكأنَّه جبلة ، والعلاج إنما يكون لما يخشى أثره على السَّلام الاجتماعي ، فمن النساء من

---

(١) من هذا نتعلم أنه ليس الأهم أن يذهب المريض إلى طبيب ، بل الأهم أن يستعين بالله - تعالى - بسبيل الدعاء الصالح أن يوفقه الله - تعالى - لاختيار الطبيب الصالح لهذا ، وأن يسدّد الطبيب لحسن التشخيص وتعيين الدواء ، وكيفية أخذه ، وأن يهيئ الدواء ليفعل في الداء ، كل ذلك على المريض أن يفعل وأن يجتهد فيه ، وكُلّ ذلك بابٌ من أبواب العبادة يتزلف العبد به إلى ربّه - تعالى - ، فيجتمع له بذلك مثوبتان : مثوبة المرض تزكية ومثوبة حسن التوكل تذكية .

لا يمكن أن تتطهر من كلّ صور النّشوز ، فمثل هذه يصبر وليها على مخافة وقوعه منها ، ويبادر عند الخوف من آثاره إن بدا له أن نشوزها لا محالة موقعٌ ضُرًّا لا يطاق .

والنشوز : هو ارتفاع المرأة عمّا ينبغِي أن تكونَ عليْه من القنوتِ لربّها ثم لِوليّ أمرِها ، سواء كان هذا النشُوز (التّرفع) حسيًّا أو معنويًّا ، وليس من النّشوزِ أن تسعَى المرأةُ إلى أن تمسّ شيئًا مِن دين وليّها أو عرضِه أو كرامتِه ، فهذه الثلاثة : « الدّين عقيدةً وشريعةً وأخلاقًا ، والعِرضُ والكرامة » ليس لأحدٍ البتّةَ أنْ يسكتَ عمّن يسعَى إلى أن يحومَ حول حمى شيءٍ منها ، بل عليْه فريضةَ عينٍ أن يُقيمَ الرّهب فِي صدر مَن يفكّرُ مجرّد تفكيرٍ في أن يحومَ حولَ حماها ، مهما كان قدرُ هذا الّذي يسعَى إلى أَنْ يحومَ حولَ الحِمَى ، ومهْما كان فضلُه عليك ، ومهْما كانت قوّته ، هذه الثّلاثة أصُولُ تكريمِ كلّ آدميّ يعتزُّ بانتسابِه لسيدنا آدم عليه السلام ، والطّغاة « أحفاد فرعون موسى » يعلمون ذلك ، ولذا همْ يبالغُون في طِعنِ معارضِيهم في هذه الثلاثة ، وانتهاكها علانيةً ، وهم كثيرًا ما يهدّدون معارضيهم بانتهاكِ أعراضِ نسائهم أمامَهم جهاراً .

ومِن أهل العلمِ من يجعلُ مِن نُشوزِ المرأةِ على وليّ أمرِها أن تَرفعَ صوتَها عليه ، أوْ تشيح بوجهِها وهي تخاطبُه أو يُخاطبها أو تعبس في وجهه ، فكيف بمَن تستحقِر ، أو تستقذر أو ترَى نفسَها أحقّ بأن تكونَ صَاحبةَ الأمرِ والنّهي دونه ، لأنّها ذاتُ نسبٍ أَو حسبٍ أو ذات منزلٍ وظيفِيّ أو علميّ ...؟ لو أنّا أخذنا بقول من يرى رفع المرأة صوتها على وليها من النشوز الذي تتحدث عنه الآية لما نجت امرأة منه ، لذا لا أراه كذلك ، ولاسيما حين

تكون غضبى أو واقعة تحت ضغط نفسي أو مرضيّ ، أما رفعه استهانة وتطاولاً فذلك عين النشوز .

* * *

الموقف التربويّ إزاء النشوز :

لمَّا قال : (تخافُون) قال : (عِظوهنّ) بدأ بالموعظة فالموعظةُ تبدأُ من أول استشعارِه بدلائلِ رغبتها في النّشوزِ ، أو استعدادِها أن تقعَ فيه ، أو عدم تهيّبها مِن الطَّوافِ حولَه ، فهنا يكون الوعظُ ، بلْ يكون من قبلِ ذلك وقايةً .

والوعظُ لا يُؤتِي ثمرَه إلاّ إذا كان مِن نفسٍ تحبُّ الخيرَ للموعوظِ ، وتملكُ قدرةً على تأليفِ القلوبِ ، والرّغبة الفتية في الإصلاح ، وفي اتقائِه ما لا يليقُ .

والوعظُ لا يتحقّق أثرُه إلا بالاستعانةِ بالله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ على القيامِ بذلك ، فإنّ الوعظَ ليس كَلِمًا تلفظُ ، بل هو منهجُ تربيةٍ ، وخطّةٌ مدروسةٌ لبلوغ الغايةِ ، وهذا يحتاجُ مِن الواعظِ أن يمتلك الحِكمةَ والعلمَ والصبرَ الجميلَ ، والحلمَ الرَّصين وفيضًا من التّسامحِ الكريم ، والرّغبة في العفو الصّادق عند استشعاره بوادرَ الإقبالِ والقبولِ ، ويحتاجُ منه دُربة ومهارة في طرائق إنفاذِ ذلك في النّفوسِ ، وكلّ هذا حمل ثقيل ، وهو حقُّ المرأة على الرّجل ، فإذا ما قصّر في هذا ، فحرى به أن يلومَنَّ نفسَه على التّقصير فيه قبل لومها على التّطواف حول حمَى النشوز ، وإذا ما كان للوعظ طرائقه فإنَّ له أيَضًا أوقاتَه الّتي يثمرُ فيها ، فليست النفسُ الإنسانية بالمُهيَّئة للإقبال في كل وقتٍ وسياقٍ على وعظها ، فضلا عن قبولِه ، والنزول على هديِه .

والوعظ ليس علمًا أجرد، هو لا يؤتي ثمرة ولا يستحق أن يعربَ عنه بأنّه «وعظ» إلا إذا مزج العلم بكتاب الله - تَعالى - وبسنة رسوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلَّمَ - بالحكمة والرحمة والمصابرة، فصاحبه أحوج ما يكون إلى ذلك جميعًا، وإلى مهارة مخاطبة الناس على أقدارهم النفسية، والعقلية والإيمانية، ولذا كانت مخاطبة الجماهير (العامة) ولا سيما في المحافل عملاً لا يكفي فيه التميز في العلم، بل لا بدّ من أن يكون مع العلم حكمة وسياسة، وأن يكون إيمان يحمل على صدقِ العمل وإتقانه والإخلاص لله - عَزَّ وجلَّ - فيه، ومهارة لسانية تعرب عن دقيق المعاني ولطيفها، ومهارة فنية في إيصال المعاني إلى القلوبِ وتمكينها فيها، فكم من عالم نحرير في بابٍ من أبواب العلم هو العاجز عن أن يعظ بما يحمل القلوب إلى مرضاة ربّها - جَلّ جَلالُهُ -، لافتقاره إلى الحكمة أو إلى فنّية الخطابِ ...

فإذا لم يكن القيّم على المرأة التي يخاف نشوزها لبدوّ دلائل النشوز بالمقتدر على أن يعظها، فإن بملكه أن يسمعها كلام الأعيان في الوعظ، وقد تيسر في زماننا إسماع فرائد المواعظ عبر وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي الإلكترونية المتنوعة المطهرة من عبث الطاغوت.

وإن من أجل مسالك الوعظِ ما كان بلسان الحال: لا يري الرجل امرأته نشوزَه على ربّه - سُبْحَانَهُ وَتَعالَى -، فإذا ما خاطبه ربه - تعالى - بأمر أو نهي فزع إليه سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فلا تراه إلا نفوراً من النشوز على ربّه - جَلّ جَلالُهُ - لتتأسى به، فتكون نفورة من النشوز على ربّها - سُبْحَانَهُ وَتَعالَى - وعلى بعلها (زوجها).

ومرحلة الوعظ تبدأ ولاتنتهي ، فإذا ما أيقن القيم على المرأة التي يُخاف نشوزها أنّ الاستمرار في الوعظ وحده لن يجدِي ، فإنه يبقَى فيه مضيفًا إليه أداة أخرى هي مرحلة «الهجْرفي المضاجع».

«الهجر» هو هجرُ ما كان منه قبلُ من تودّدِه وملاطفتِه ومداعبتِه ، وملاعبته وبذلِه العطايا ، والثناء الحافز على الحُسنى ، والمناداة عليها بأحب صفاتها ، وألقابها إليها ، والإبلاغ في الإكرام والأنس .... ثم يتصاعد في ضروب الهجرِ إذا لم تفلح هذه الضروبُ ، إلى أن يبلغ الهجرَ في المعاشرة الزّوجية ، ولا يبالغُ في هذا لما قد يدفعها إلى أن تمدنَّ عينيْها أو نفسَها إلى غيرِه[1] ، فإن بلغ النّشوزُ منها مبلغًا لم يثمرْ معه ذلك الهجرُ ، فإنَّ المرحلةَ

---

(١) يقول أبو بكر بن العربي المالكي في كتابه «أحكام القرآن» في تأويل قول الله تعالى : (اهجروهنّ فِي المضاجع) :

«نَظَرْنَا فِي مَوَارِدِ «هـ ج ر» فِي لِسَانِ الْعَرَبِ عَلَى هَذَا النِّظَامِ فَوَجَدْنَاهَا سَبْعَةً : ضِدَّ الْوَصْلِ ـ مَا لاَ يَنْبَغِي مِنْ الْقَوْلِ ـ مُجَانَبَةُ الشَّيْءِ ، وَمِنْهُ الْهِجْرَةُ ـ هَذَيَانُ الْمَرِيضِ ـ انْتِصَافُ النَّهَارِ ـ الشَّابُّ الْحَسَنِ ـ الْحَبْلُ الَّذِي يُشَدُّ فِي حِقْوِ الْبَعِيرِ ثُمَّ يُشَدُّ فِي أَحَدِ رُسْغَيْه .

وَنَظَرْنَا فِي هَذِهِ الْمَوَارِدِ فَأَلْفَيْنَاهَا تَدُورُ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ وَهُوَ (الْبُعْدُ عَنْ الشَّيْءِ) فَالْهَجْرُ قَدْ بَعُدَ عَنْ الْوَصْلِ الَّذِي يَنْبَغِي مِنْ الأُلْفَةِ وَجَمِيلِ الصُّحْبَةِ ، وَمَا لاَ يَنْبَغِي مِنْ الْقَوْلِ قَدْ بَعُدَ عَنْ الصَّوَابِ ، وَمُجَانَبَةُ الشَّيْءِ بُعْدٌ مِنْهُ وَأَخْذٌ فِي جَانِبٍ آخَرَ عَنْهُ ، وَهَذَيَانُ الْمَرِيضِ قَدْ بَعُدَ عَنْ نِظَامِ الْكَلاَمِ ، وَانْتِصَافُ النَّهَارِ قَدْ بَعُدَ عَنْ طَرَفَيْهِ الْمَحْمُودَيْنِ فِي اعْتِدَالِ الْهَوَاءِ وَإِمْكَانِ التَّصَرُّفِ ، وَالشَّابُّ الْحَسَنُ قَدْ بَعُدَ عَنْ الْعَابِ ، وَالْحَبْلُ الَّذِي يُشَدُّ بِهِ الْبَعِيرُ قَدْ أَبْعَدَهُ عَنْ اسْتِرْسَالِهِ فِي تَصَرُّفِهِ وَاسْتِرْسَالِ مَا رُبِطَ عَنْ تَقَلْقُلِه وَتَحَرُّكِهِ . =

= وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا ، وكَانَ مَرْجِعُ الْجَمِيعِ إِلَى الْبُعْدِ فَمَعْنَى الآيَةِ : أَبعِدُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ . فَالَّذِي قَالَ : يُوَلِّيهَا ظَهْرَهُ جَعَلَ الْمَضْجَعَ ظَرْفًا لِلْهَجْرِ ، وَأَخَذَ الْقَوْلَ عَلَى أَظْهَرْ الظَّاهِرِ ، وَهُوَ حَبْرُ الأُمَّةِ ، وَهُوَ حَمَلَ الأَمْرَ عَلَى الأَقَلِّ ، وَهِيَ مَسْأَلَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ الأُصُول .
وَالَّذِي قَالَ يَهْجُرُهَا فِي الْكَلَامِ حَمَلَ الأَمْرَ عَلَى الأَكْثَرِ الْمُوفِي ، فَقَالَ : لاَ يُكَلِّمُهَا وَلاَ يُضَاجِعُهَا ، وَيَكُونُ هَذَا الْقَوْلُ كَمَا يَقُولُ : اهْجُرْهُ فِي اللَّهِ ، وَهَذَا هُوَ أَصْلُ مَالِكٍ .
وَقَدْ رَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ فِي تَفْسِيرِ الآيَةِ : بَلَغَنَا أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ كَانَ لَهُ نِسَاءٌ فَكَانَ يُغَاضِبُ بَعْضَهُنَّ ، فَإِذَا كَانَتْ لَيْلَتُهَا يَفْرِشُ فِي حُجْرَتِهَا وَتَبِيتُ هِيَ فِي بَيْتِهَا
فَقُلْت لِمَالِكٍ : وَذَلِكَ لَهُ وَاسِعٌ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ **وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ** ﴾ (النساء:٣٤)
وَالَّذِي قَالَ : لاَ يُكَلِّمُهَا وَإِنْ وَطِئَهَا فَصَرَفَهُ نَظَرُهُ إِلَى أَنْ جَعَلَ الأَقَلَّ فِي الْكَلَامِ ، وَإِذَا وَقَعَ الْجِمَاعُ فَتَرْكُ الْكَلَامِ سَخَافَةٌ ، هَذَا وَهُوَ الرَّاوِي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ .
وَالَّذِي قَالَ : يُكَلِّمُهَا بِكَلَامٍ فِيهِ غِلَظٌ إِذَا دَعَاهَا إِلَى الْمَضْجَعِ جَعَلَهُ مِنْ بَابِ مَا لاَ يَنْبَغِي مِنْ الْقَوْلِ ، وَهَذَا ضَعِيفٌ مِنْ الْقَوْلِ فِي الرَّأْيِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ رَفَعَ التَّثْرِيبَ عَنْ الأَمَةِ إِذَا زَنَتْ وَهُوَ الْعِقَابُ بِالْقَوْلِ ، فَكَيْفَ يَأْمُرُ مَعَ ذَلِكَ بِالْغِلْظَةِ عَلَى الْحُرَّةِ» (اهـ) .

نقلت مقالةَ أبي بكرٍ بن العربي على ما فيها من بسطٍ لأحمل طالبَ العلم على أن يعتكف في مقالته هذه يتعلم منها منهاجه في النظر ، ففي هذه المقالةِ تطبيقٌ للمنهج العلمي المحكم في البحث والاستنباط والمناظرة ، والمراجعة والمقاربة .

لو أن طالب العلم استطاع أن يستخلص من مقالة ابن العربيّ هذه قواعد منهاج البحث العلمي لكفاه فائدة ، وإذا عجز عن استخراجها ، فعليْه أن ينظر في أهليته لطلبِ العلم ، فإنه بحاجة إلى أن يمتلك أدوات طلب العلم الحسيّة والمعنوية ، ومن استعان بالله ـ تعالى ـ على حسن طاعته والتزلف إليه أعانه ، فاستعن بالله ـ تعالى ـ ، ولا تعجِز .

الأخيرة تُستدعَى على قدر الحاجة، وعلى قدر أحوال قومِ كلّ امرأةٍ وأعرافهم: مرحلة الضّرب المُعرب عن ضيق النفس بِما يكون منها، وليس الضرب المؤلم، أمَّا الضرب المُهين فهذا لا يكونُ البتة لأي آدميّ، فكيف بالزَّوج التي هي أم بنيك ؟

وليس الضّربُ بصالحٍ مع كلّ امرأةٍ، فإنّ بعض النّساء في بعضِ المجتمعات لا تقبلُه البتَّة مهما كان الذي منها، وتقبل أي علاج دُونه ولو كان الطلاق، ومن المُجتمعات من ترَى المرأة فيه الضربَ من وليها ليس عيبًا، فتقبله، ولا ترى فيه ما يخدشها، بل من المجتمعات من ترى ضربَ الحكومة للرّجال مقبولاً، وهذا ذروة الذلّ والهوان، فإذا كان الزوج من مجتمع لا يرى ضرب المرأة كبيرًا، وكانت نساؤه يفضلنه على الطلاق، بلْ على الهجرِ في المخدع، وكانت زوجه من مجتمع يرَى في الضربِ إهانة لا تُقبلُ، ولو كانت بـ« عود أراك » فعلى ولي الزوجِ أن ينزل على معهود قومها هي، لا على معهود قومه هو، كلُّ ما يكون من قبيل الإهانة في مجتمع المرأة لا يُعاقب به ؛ لأن الإهانة لا تكون من عبدٍ لعبدٍ، إنما الإهانة تكون من الله ـ تعالى ـ لمن كفر به، فهذا حقه وحده.

ولم يأتِ أن سَيّدنا رسُولَ الله ـ صلّى الله عليْه وعلَى آلِه وصَحبه وسلّمَ ـ كان ضرب امرأة مهما نشزتْ، وجاء في مارواه الشيخان البخاري ومسلم بسندهما عَنْ عَبْد اللَّهِ بْنِ زَمْعَةَ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِىَّ ﷺ يَخْطُبُ . . . وَذَكَرَ النِّسَاءَ فَقَالَ : « يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ يَجْلِدُ امْرَأَتَه جَلْدَ الْعَبْدِ، فَلَعَلَّهُ يُضَاجِعُهَا مِنْ آخِرِ يَوْمِهِ ».

وممَّا يجبُ فريضة في شأنِ الضَّربِ التأديبيِّ ألا يضربِ الوجهُ مهما كان الأمر ، ولو اقترفت الفاحشة ، فإن الوجه لا يقبل أن يُهان مهما كان .

روى الشيخان : البخاري في كتاب (العتق) من صَحيحه ومسلم في كتاب (البرّ والصّلة والأدب) من صَحيحه بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضِيَ الله عَنه ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» . (النّص لمسلم)

قال ابن حبان في صَحيحه ، بعد روايته ذلك الحديث : « يُرِيدُ بِهِ صُورَةَ الْمَضْرُوبِ ، لأَن الضَّارِبَ إِذَا ضَرَبَ وَجْهَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ ضَرَبَ وَجْهًا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» وكمثله قال أبو بكر البيهقيّ (ت : ٤٥٨ هـ) في « الأسماء والصفات»

تبصر قوله : « إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ» المقاتلة هنا المشاجرة ، وليس القتل المفضِي إلى الموتِ ، وما نزال في ديارنا بصعيد مصر تستعمل نساؤنا في خطابِ صغارِهنَّ القتلَ بمعنى الضربِ التأديبي تصويراً لشدة الضّربِ .

وفي قوله : (أخاه) ما يبعثُه على مُجانبة هذه المقاتلة (المشاجرة) ما استطاعا ، فإن وقعت ، فليكن ثَمَّ ضوابط منها أن يتقي كلٌّ أن يمدَّ يدَه إلى وجهِ أخيه ، مهما بلغت المُغاضبة فورتها ، ففي ذلك مِن الإهانة ما فيه ، وفيه مِن العقوق بالأب الأول : آدمَ ـ عليْه الصلاة والسلام ـ ما فيه ، ولذا قال : « إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» ، ولم يأت البيان فإن الله خلقه على صورة آدم ، بل بالغ فجعل صورة الفرع أصلاً ، إبلاغًا في التحذير والتنفير ، فكأنه ، وهو يَمد يدَهُ إلى وجه أخيه وقد بلغ به الغضبُ ما بلغ ، يمدّ يده إلى وجه أبيه الأعظم : آدمَ ـ عليْه الصلاة والسلام ـ .

من يستحضر ذلك أيُمكن أن تتحرك يده لتمتدّ إلى وجه أخيه.؟!!. لا يكون.
أرأيت إلى مايحمله بيان النبوة الحكيم من التنفير من اقتراف هذه الفعلة التي باتت أيسر الأفعال علينا.

البيان النبوي يصور لك أنك وأنت تمدّ يدك إلى وجه أخيك في الإنسانية كأنك تمدها إلى وجه أبيك آدم ـ عليه السلام ـ أرأيت إلى رأفته ورحمته بنا ﷺ؟

الإهانة في التّعليم أو التّأديب أو المعاقبة أو المُشاجرة، بل والمقاتلة أو أي أمرٍ مِن أمورِ الحياةِ جمعاءَ ليستْ مِن شأنِ المُسلم، بلْ ليْست مِن شأنِ الأحرارِ مسلمين أوْ غيرِ مسلمين، فالفطرة البَشرية السَّويّة تنكرُ ذلك أيّما إنكار.

يقُول الشَّاعرُ الجاهليُّ:

لا ترضَ صَفْعاً ولو من كــفٍّ والـدةٍ	ما قـالَ ربُّـكَ أن يُسـتعبدَ الولـدُ
ما أبعدَ العزَّ عن بيـتٍ وعـن وطـنٍ	بالـذلّ فيـه تـربي الأمُّ مـن تلـدُ
أسمى التعاليمِ ما ترضى العقـولُ بـه	ويطمـئنُّ إليـه الـروحُ والجسـدُ
إذا استمرَّ علـى حمـلِ الأذى أسـدٌ	تنسى الكلابُ وينسـى أنـه الأسـدُ

قولُ الشّاعر: (تنسَى الكلابُ وينسَى أنه الأسدُ) أي تنسَى الكلابُ أنها كلابٌ، فتتجرأ على الأسودِ، وتنسَى الأسودُ أنّها أسودٌ فترهب وترتعدُ من الكلاب.

وهذا حال شعوبِنا العربيّة والإسلامية مع حكامها، من طول ما عاشته في مستنقعات الذّل والإهانة والظلمِ، نسيتْ هذه الشعوب أنّها هي الآمرة النّاهية أو يجب أن تكون كذلك، وينسَى الحكّام أنّهم الخدمُ لشعوبهم وأنهم حكامٌ

بشعوبهم ، وليسوا حكامًا في شعوبهم ، وفرقٌ جد عظيم بيْن الأمرين ، ولذا كان حالنا هذا تفسيرًا لقول سيِّدنا رسُول الله ﷺ في حديث جبريل عليه السلام «أن تلد الأمة ربتها»

ويقول الشاعر :

إِنَّ الهَوانَ حِمارُ القَومِ يَعرِفُهُ ... والحُرُّ يُنكِرُهُ والرَّسلَةُ الأُجُدُ[1]

وَلا يُقيمَ عَلى خَسفٍ يُرادُ بِهِ ... إِلاّ الأَذَلاّنِ عَيرُ الأَهلِ وَالوَتِدُ

هَذا عَلى الخَسفِ مَنقولٌ بِرُمَّتِهِ ... وَذا يُشَجُّ فما يَرقِ لَهُ أَحَدُ

فشأنُ العلاقة بيْن النَّاسِ عامّة ، قائم على حرمة الإهانة ، وإن كان المرءُ قاتلاً عمدًا ، فلا يجوز ألبتة أن يهان أحدٌ بضربٍ أو شتمٍ ولو كان قاتلاً عمدًا ، وإنما يقام عليه الحدّ قصاصًا دون أن ينبس أحد بكلمة واحدة فيها إهانة له ، فكل ما يوقع عليه من تعذيب حسيّ أو معنوي قبل القصاص هو من الظلم له ، وسوف يقتص من ظالمه يوم القيامة كما اقتص منه في الدنيا ، فليحذر القائمون على أمر المتهمين بالجرائم أن يضربوا أو يسبوا أو يصدر منهم ما لم يحكم به القاضي حكمًا باتًا .

روى مسلم في كتاب (الصيد والذبائح) من صَحيحه بسنده عَنْ شَدَّادِ ابْنِ أَوْسٍ قَالَ ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ» .

---

(١) يريدُ الشّاعر أن الذي يقبل هو إنما هو حمار القومِ أما الأحرار ، من الناسِ والأحرار من الأنعامِ الكريمةِ فإنها تأبى الهوان ، وترفضه . فكل حرّ من عالم الأنام ، وعالم الأنعام ينكر الهوان ويرفضه .

وهذا في شأن العلاقة بيْن الرجل ومن يتولى أمرَه عامة ، والنّساءِ خاصّة أوجب وألزم .

ممّا مضى يتبينُ لك أنَّ علاج النّشوزِ عند ما تبدو دلائلُ توقـع وقـوعه أو وقوعه فعلاً على ثلاثِ مراحل : العظة ، الهجر ، والضّرب المؤدِّبُ غيرُ المؤلم ، وهي مراحل عطفت بـ« الواو » وكان مقتضَى الظاهر أنْ تعطفَ بـ« الفاء » أوْ « ثمّ » إنباءً بترتيبها على التّعقيب أو التراخي ، بيْد أنّ البيانَ جاء بِها معطوفة بـ« الواو » للدَّلالة على أن الولي إذا ما اضطر إلى الانتقال من المرحلة الأولى (الوعظ) إلى الثانية يستصحبها معها ، فيجمع بين (الوعظ) و(الهجر) ، ثم يجمعهما مع (الضرب) ، فلا يتخلى عن الأولى مع الثانية ، ولا يتخلى عنهما مع الثالثة ، وفوق هذا فإن « الواو » لا تفيدُ بذاتها ترتيبا ، والسّياق هنا هو الّذي هدَى إلى وجوب التَّرتيب ، وأنّـه ليس للرّجل أن يقدّم الهجر على العـظـة أو يؤخرَه عن الضربِ التَّأديبيّ ، ودلالةُ السياق دلالة لطيفة ، ولذا كانت في شرعة العقلِ البلاغيّ دلالة أعلى عطاءً وَأَوْفَر نوالاً من الدّلالة النصية بعامل لفظيّ ، وإن تكن الدَّلالة اللفظيّة أظهر ، فإنَّ الدَّلالة السياقِيّة أكرمُ عطاءً وأوفر ، والعَقلُ البلاغي العربيّ بها آنس وأعجب ، والدلالة السياقية هى مائدة الكرام فهمًا وإفهامًا ، وأيدى الدهماء محاجزة عن أن تمتد إلى شْيءٍ منها فهي آخذة بهدى النبوة : « لا يأكل طعامك إلاّ تقي ».

ولمّا كانت هذه المراحلِ لعلاج ما قد يكون من نشوزٍ تفسد بِه حركةُ الحياةِ الأسرية ، وكان العلاجُ لا يكونُ إلا عند الضرورة جاءً قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ﴾ (النساء:٣٤) هدَي بقولِه (أطعنكم) إلى أنّـها إذا ثابت إلى طبعها الذي كانتْ عليْه ، فتطهرت من النّشُوز فعليْه أن يكف عن تأديبها ، وأن يكف عن تأنيبها أو تذكيرها بما كان منها ، بل يكون

منه كأن لم يكن منها شيءٌ ، فإن تذكير من تاب عما لا يليق بما كان منه فيه إيلامٌ له لا يليق ، والسياق دال على أن المعنى فإن أطعنكم في المعروف وليس على إطلاقه ، وقوله ـ سُبْحَانَه وبِحَمْدِهِ ـ ﴿ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ﴾ (النساء:٣٤) تحمل من الأدب للرجال ما يجعله يرهب المجاوزة في حق من أنابت ، فكلمة (تبغوا) كلمة مرعبة ، ، فالبغي مرتعه وخيم ، ولا يعجل الله عقوبة شيْءٍ ، كمثل البغي والعقوق .

روى أبو داود في كتاب (الأدب) من سننه بسنده عَنْ أَبِى بَكْرَةَ ـ رضِيَ الله عَنه ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ تَعَالَى لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِى الدُّنْيَا ـ مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِى الآخِرَةِ ـ مِثْلُ الْبَغْىِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ» .

وهذان البغي وقطيعة الرحم هما من أكثر الذنوب انتشاراً فينا على تنوع مستوياتنا الاجتماعية ، مما يستوجب على أهل العلم الاجتهاد من التبين والتحذير وفاء بحق إخراج الناس من الظلمات إلى النور .

وفي هذا أَيَضًا إعرابٌ للمرأة أنّه لم يؤذن لوليها ، بل لم يحمل على استعمالِ هذا الدواء إلا ليتحقق لها هي الشفاء من داء النشوز ، فالأمرُ مرجع نفعه إليها أوّلاً ، وهذا يقيمها في مقام الرّضا حين يستعمل ذلك الدواءُ استعمالاً حكيمًا ، وتدرك أنّها إنّما تُعان على ما هو الأسمى ، والأكرم في شأنها ، فتقبل على الأمر قبول محبة واستئناس على الرّغم ممّا قد يبدو من مرارته في ظاهرِه ، وفي البيان بأداة الشرط (إن) تعليقٌ للجواب على الشّرط دون إنباء بأنه متوقع أن يكونَ أو لا يكون .

أداة الشّرط (إن) ليس فيها حكم على مقدار توقع حدوث الشرط أوْ عدم وقوعه ، على غير ما عليه أداة الشّرط (إذا) : فيها التعليق ممزوجٌ بتوقع وقوع الشّرط ، قولك : « إذا جاء محمدٌ أكرمته » ، فيه دلالة منك على أنـّك تتوقع توقعًا قويًّا أنه سيجيءُ لما تعلمه من حالِه ، وقولك : (إن جاء محمدٌ أكرمته) فهذا ليس فيه سوى تعليق إكرامك على مَجيئه ، دون إنباء بعلو التوقّع على عدمه أو عدمه عليه ، فـ(إن) أمّ أدوات الشّرط ، وأمُّ الأدوات الأصل فيها أن تفيدَ المعنى مجرّدًا دون التفاتٍ إلى شيْءٍ آخر كما تراه في (الواو) أمّ حروفِ العطفِ ، وكما تراه في (الكاف) أمّ أدوات التشبيه ... فالذين يقولون إن الإعراب بأداة الشرط (إن) يفيد الشك في وقوع الشرط ليسوا على الجادة فيما ذهبوا إليْه ، والشك إن فهم حينذاك فهو من القرائن والسياق .

* * *

معاني الهدى في فاصلة الآية الأولى :

وتأتي فاصلة هذه الآية حاملة ما يحاجزُ الرَّجل عن أن يستبدّ به الضّيقُ أو الضّجر فيمدّ تأديبه ، ولا يكفّ عن الهجْر أو الضّربِ تأديبًا من بعدِ أن ثابتْ زوجه وأنابتْ ، فاصطفى لِلفاصلة اسمين يَحْملان فيضًا من جلال الألوهية ورهبُوتِها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ (النساء:٣٤)

جاء الاسمان غيرَ معطوفين ، فهذا هو الشّأنُ في إيرادِ أسماءِ الله ـ تعالى ـ ، هِي مستغنية بما بيْن معانيها من اتصالٍ ذاتي إلى عامل من عوامِل الوصل الخارجية ، وشأن إيرادِ صِفاتِ اللهِ ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ في بيان الوحي اتصالاً ووصلاً غيرُ حال صفاتِ الخلائق اتصالاً ووصْلاً .



ذلك أن صفاتِ الله سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ دالّة على كمالها في نفسِها ، وعلى كمال اتصافِ الله - تعالى - بها ، فلا تفتقرُ إلى ما يدلّ على ذلك ، وهِي في الوقت نفسِه ذاتُ علاقاتٍ وُثُقَى فيما بينها ، هِي صفاتٌ متلازِمةٌ .

صفةُ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعالَى - تدلّ على معناها وعلى ذاتِه - تعالى - بالمطابقة ، وتدل على ذات الله بالتضمن ، وعلى معناها بالتضمن وعلى صفاته الأخر بالالتزام .

فاسمه (العلي) يدل على معناها وعلى الله - سُبْحَانَهُ وَتَعالَى - بالمطابقة ، ويدلّ على الله - تعالى - الموصوف بها وحده بالتضمن وعلى معناه وحده بالتضمن ، وعلى الصّفات الأخرى من نحو الحياة ، والعلم والقدرة والقيومية . . . بالالتزام[1]

ومثل هذا لا يتحقّق جميعه في حال صِفات العباد ، ومن ثَمَّ لم يكن إيراد صِفاتِ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعالَى - بحاجة إلى ما يدلّ على اجتماعها فيه - جلّ جلالُه - ، ولا على كمالِها فيه ، ولا علَى كماله في الاتصافِ بها - عَزّ وعلا - ، فجاءت في بيان الوحي غيْرمعطوفة بعاطف إلا ما كان بيْن معنيْهما تقابلٌ كـ« الأوّل» والآخر «وكـ « الظّاهر » و« الباطن»

و« علو » الله - سُبْحَانَهُ وَتَعالَى - ثابت ببيان الوحي قرآنًا وسنة ، وهو يأتي بعبارات عدة كما في قوله - سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ - ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ

(١) ينظر : القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى ، محمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت : ١٤٢١هـ) الجامعة الإسلامية ، المدينة النبوية . ط . الثالثة ١٤٢١هـ ، ص ١١ وما بعدها .

فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (آل عمران:٥٥) ، ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الأنعام:١٨) ، ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ (الأنعام:١٨) ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ (طه:٥) ، ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (النحل:٥٠) . ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (السجدة:٥) ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ (فاطر:١٠) ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ (الملك:١٦،١٧) ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (المعارج:٤)

روى الشَّيخان في صَحيحيْهما البخاري في (المغَازِي) ومسلم في (الزكاة) بِسندِهما عَنْ عَبْد الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِى نُعْمٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِىَّ يَقُولُ: بَعَثَ عَلِىُّ بْنُ أَبِى طَالِبٍ - رضى الله عنه - إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْيَمَنِ بِذُهَيْبَةٍ فِى أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ لَمْ تُحَصَّلْ مِنْ تُرَابِهَا ، قَالَ : فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ ، وَأَقْرَعَ بْنِ حَابِسٍ ، وَزَيْدِ الْخَيْلِ ، وَالرَّابِعُ إِمَّا عَلْقَمَةُ وَإِمَّا عَامِرُ ابْنُ الطُّفَيْلِ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ : كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلاَءِ ، قَالَ : فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِىَّ ﷺ فَقَالَ : «أَلاَ تَأْمَنُونِى وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِى السَّمَاءِ ، يَأْتِينِى خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً» . . .

وروى مسلم فـي كتاب (المساجد) مِـنْ صَـحيحِهِ بسـنـدِه عَـنْ مُعَاوِيَـةَ ابْنِ الْحكَمِ السُّلَمِيِّ . . . قَالَ : وكَانَتْ لِى جَارِيَةٌ تَرْعَـى غَنَمًـا لِـى قِبَـلَ أُحُـدٍ وَالْجوَّانِيَّةِ فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَـا وَأَنَـا رَجُـلٌ مِنْ بَنِى آدَمَ آسَفُ كَـمَـا يَأْسَفُونَ لَكِنِّى صَكَكْتُهَا صَـكَّـةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّـهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّـهِ أَفَـلاَ أُعْتِقُهَـا قَالَ : « ائْتِنِى بِهَا » . فَأَتَيْتُهُ بِهَا فَقَالَ لَهَا : « أَيْنَ اللَّهُ » . قَالَتْ فِى السَّمَاءِ ، قَالَ : « مَنْ أَنَا » . قَالَتْ : أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ . قَالَ « أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ » .

فهذه الآياتُ والأحاديث جميعًا دالَّةٌ دلالة بيِّنة مُحكمة على علوّه ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ وأنّه فوق خلقِه أجمعين ، وليس شيءٌ مِن خلقِه محيطًا بِه .

فعلّوه ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ علوُّ ذات وعلوُّ صفة ، ومـن قصـره علـى علـوُّ الصّفة فقد أخطأ ، علوُّ الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ بذاته وصـفاته هـو مـن أظهـرِ الأشيـاءِ وأبينِهــا وأحكمِهــا دليلاً ، فلا سبيلَ إلى ذي عقـلٍ إلــى أن ينفيَهـا أو يأولَها أو يتوقفَ فيها ، وهُو ـ سُبْحَـانَهُ وَتَعـالَى ـ منـزّه عَـنْ أن يكــون مختلِطًـا بالخلق أو حالاً في أمكنتهم ، فهو العليّ بذاته وصفاته ، ومـنْ زَعـم أن الله ـ جَلّ جَلالُهُ ـ بذاتِه في كلّ مكانٍ ، فهو مخطِئٌ . بل ـ سبحانه وتعالى ـ في كلّ مكانٍ بعلمه وقدرته وسلطانه ، وهو علـى عرشِـه في السَّماء . « كـل كلمة تستلزم كون الله ـ تعالى ـ في الأرض ، أو اختلاطه بمخلوقاته ، أو نفي علوه ،أو نفي استوائه على عرشه ،أو غير ذلك مما لا يليق به ـ تعالى ـ؛ فإنها كلمة باطلة ، يجب إنكارها على قائلها كائنا من كان ، وبأي لفظ كانت .

وكلُّ كلامٍ يُوهم ولو عندَ بعض النّاسِ ما لا يليقُ بالله ـ تعالى ـ ، فإنّ الواجب تجنبه ، لئلا يظنّ بالله ـ تعالى ـ ظنَّ السَّوء ، لكن ما أثبته الله ـ تعالى ـ

لنفسِه في كتابِه أو على لسانِ رسوله ﷺ فالواجبُ إثباته ، وبيان بطلان وهم من توهم فيه ما لا يليق بالله ـ عز وجل ـ»[1].

وعلوه ومعيته متلازمان ، فعلّوه بذاته وصِفاته ومعيته بصِفاته ، وهي معية لا تقتضي إخلاطه بهم حتى تتنافَى مع صِفة العلوّ ، فهذا يقالُ في حقّ الخلائق ، وهو ـ سبحانَه وتَعالَى ـ قال : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الشورى:١١) ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (الإخلاص:٤)

واسْمه (الكبير) جاء في مواضع عدة وقرن باسـمـه العلـي والمتـعـالـى : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ (الرعد:٩) ، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (الحج:٦٢) ، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (لقمان:٣٠) ، ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ (غافر:١٢)

روى مسلم في كتاب (المساجدِ من صَحيحه بسنده عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : بَيْنَمَا نَحْنُ نُصَلِّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا وَسُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَنِ الْقَائِلُ كَلِمَةَ كَذَا وَكَذَا» . قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : «عَجِبْتُ لَهَا فُتِحَتْ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ».

قَالَ ابْنُ عُمَرَ : فَمَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ ذَلِكَ).

---

(١) القواعد المثلى : ص ٦٤

هو العظيم شأنُه ، الّذي يتصاغرُ كل شيء أمامه ، فهوأكبر من أن تدركه الأبصارُ ، ومن أن تتوهمه البصائر ، ومن أن يحيط به خلقه ، ومن أن يعجزه شيء ، ومن أن يتعاظمه شيءٌ . . كلُّ ما في العالمين من دونِه ؛ لأنّه من خلقِه وتحت قهرِه وعلمه وقدرتِه ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ .

وكان من فيض التربية أن جعل مفتاح الصلاة قولنا « الله أكبر » إيذانًا للعالم كله أن كل ما عداه ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ صغيرٌ لا يستحق أن يشغل به عن الأكبر ـ جَلّ جَلالُهُ ـ ، وبهذا إعلان المتاركة بين المصلى والعالمين أجمعين ، فلا يبقِى منه شيءٌ إلا هو لله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ . هذا المعنى إذا استشعره المصلى واستحضره وأمسك به من أن يتفلت من قبضته كان له من اللذة في صلاته ما يجعله لا يشعر بغير ما هو فيه من نعيم التلذذ بالوقوف بين يدي الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ ومن ثَمَّ جعلت قرة عين سيّدنا رسول الله ـ صلّى الله عليْه وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّمَ ـ في الصلاة .

روى النساني في (عشرة النساء) من سننه بسنله عَنْ أَنَسٍ ـ رضِيَ الله عنه ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِى فِى الصَّلاَةِ ». (صَححه الألباني).

وكان يقول لبلال رضِيَ الله عَنْه : « يَا بِلاَلُ أَقِمِ الصَّلاَةَ أَرِحْنَا بِهَا ». (سنن أبي داود : الأدب)

« فالله ـ سبحانه ـ أكبر من كل شيء ذاتا وقدرا ومعنى وعزة وجلالة ، فهو أكبر من كل شيء في ذاته وصفاته وأفعاله ، كما هو فوق كل شيء وعال

على كل شيء ، وأعظم من كل شيء وأجلّ من كلّ شـيء في ذاتـه وصـفاته وأفعاله »[1]

وجلال الألوهية ظاهر في هذا الاسم ظهـوره في اسمـه (العلـيّ) ، وهـذه الفاصـلة تلفتنـا إلى الفاصـلة الأولى في السـورة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ واستحضار هذين الاسمين : (العليّ الكبير) يصدُّ كـلّ عاقـل عـن أن يَغلـو بسلطانه على الآخرين ، فيتجاوز ما شرعَ له ، ولـو أن كـل ذي سـلطان أقـام هذيْن الاسمين في قلبه ونصب عينه قيام فهمٍ ضابط لظاهرِه وباطنِه في جميع ما يأتي وما يذر لما رأيت في النَّاسِ مَن يطغو ، ويستْبد .

* * *

استْطباب استفحالِ النُّشُوزِ بيْن الزَّوجيْن :

ما مضَى كان بيانًا لحال الرّجلِ مـع مـن نشـزتْ ولم يبلـغ نشـوزُها حـد المشاقةّ ، فاتّخذَ لها في استْطبابها ثلاثَ مراحـل : مرحلـة الـوعظِ ، ومرحلـةُ الهَجر ، ومرحلةُ الضربُ التأديبي غير المؤلمِ على الترتيبِ ، وتبقَى حالة التي نشزت ، وبلغ نشوزها هي وزوجها حـد المشاقة ، فجات آيـةٌ خـاصـة ببيان ما يَجبُ أن يكون ، وإفراد أمرها بآية ، من أنّ المشاقة ، واقعة بينهما ، فهمـا شريكان فيها ، بيْنا التي قبلها كان النشوزُ منها هـي ، وفي الإفـراد بآيـة فـوق هذا هدي إلى التلبث لاستيفاء فهم ما في الآية السّابقَة ، ثم الارتقـاء إلى فهـم لاحقتها ، كما هو الشّأن في فهمِ البيانِ القرآنيّ : الشأن أن نَعِيَ السّياقِ العـام

---

(١) الصواعـق المرسـلـة فـي الرد عـلـى الجهمية والمعطلة ، ابـن قيـم الجوزية : محمد ابن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت : ٧٥١هـ) تحقيق : علي بن محمد الدخيل الله . دار العاصمة ، الرياض ، ط . الأولى ١٤٠٨هـ . ١٣٧٩/٤ .

الذي تجري فيه معاني السّورة وأغراضها المرحلية تحت سلطان الغرضِ المحوريّ (المعنى الأمّ) ، ثم التلبّث لاستيفاء الفهم لكلّ آية في إطار النّجم المحيط بالآية ، وأترابها ، وكذا في إطار الغرض المرحليّ (المعقد : الفصل)، التلبثُ لاستيفاء حقّ فهم الآية السّابقة يُعين على الارتقاءِ في مدرجةِ الفهمِ إلى حسنِ تلقّي اللاحقة ، وهذا فيه دلالة على عظيم الاعتناءِ بشأنِ كلّ آية ، ففي غالبِ الأمر كلّ آية منها عطاء خارج سياقها القريبِ ، وسياقها المديدِ ، ولها عطاءاتها الأوفرُ والأشرفُ وهي في صحبة أترابها .

لما كان النشوز قد أدّى إلى أن يقع الشقاقُ بيْن الزوجيْن كان هذا داءً عضالاً ، لأنّه لا تكون مشاقة أي أن يكونَ كلٌّ في شقٍّ ، أو كلّ منهما يوقعُ المشاقةَ على الآخر لا يطيقها كان هذا ممّا يستوجبُ الحكمةَ والحزم ، فجاء قوله ـ سُبْحَانَه وبِحَمْدِهِ ـ ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ (النساء:٣٥)

عطفه بـ« الواو » على قوله ـ جَلّ جلالُه ـ ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ (النساء:٣٤)

وأهل العلم على أن التّخوّف في هذه الآية هو « العلم » ، وليس « الظّنّ » ، يقول الطبريّ : « يَعْنِي بِقَوْلِهِ ـ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ـ : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ﴾ (النساء:٣٥) : وَإِنْ عَلِمْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ، وَذَلِكَ مُشَاقَّةُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ ، وَهُوَ إِتْيَانُهُ مَا يَشُقُّ عَلَيْهِ مِنَ الأُمُورِ ، فَأَمَّا مِنَ الْمَرْأَةِ فَالنُّشُوزُ ، وَتَرْكُهَا أَدَاءَ حَقِّ اللَّهِ عَلَيْهَا الَّذِي أَلْزَمَهَا اللَّهُ لِزَوْجِهَا ؛ وَأَمَّا مِنَ الزَّوْجِ فَتَرْكُهُ إِمْسَاكَهَا بِالْمَعْرُوفِ ، أَوْ تَسْرِيحَهَا بِإِحْسَانٍ ».

ويقول الرّازي : « قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : خِفْتُمْ أَيْ عَلِمْتُمْ . قَالَ : وَهَـذَا بِخِـلاَفِ قَوْلِهِ : وَاللاَّتِي تَخافُونَ نُشُوزَهُنَّ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَحْمُولٌ عَلَى الظَّنِّ ، وَالْفَرْقُ بَـيْنَ الْمَوْضِعَيْنِ أَنَّ فِي الابْتِدَاءِ يَظْهَـرُ لَـهُ أَمَـارَاتُ النُّشُوزِ ، فَعِنْـدَ ذَلِكَ يَحْصُـلُ الْخَوْفُ ، وَأَمَّا بَعْدَ الْوَعْظِ وَالْهَجْرِ وَالضَّرْبِ لَمَّا أَصرَّتْ عَلَـى النُّشُوزِ ، فَقَـدْ حَصَلَ الْعِلْمُ بِكَوْنِهَا نَاشِزَةً :

فوجب حمل الخوف هاهنا عَلَى الْعِلْمِ . طَعَنَ الزَّجَّاجُ فِيهِ فَقَالَ : خِفْتُمْ هاهنا بِمَعْنَى أَيْقَنْتُمْ خَطَأ ، فَإِنَّا لَوْ عَلِمْنَا الشِّقَاقَ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَمْ نَحْتَجْ إِلَى الْحَكَمَيْنِ .

وَأَجَابَ سَـائِـرُ الْمُفَسِّرِينَ بِأَنَّ وُجُـودَ الشِّقَاقِ وَإِنْ كَانَ مَعْلُومًا ، إِلاَّ أَنَّا لاَ نَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ الشِّقَاقَ صَدَرَ عَنْ هَذَا أَوْ عَنْ ذَاكَ ، فَالْحَاجَةُ إِلَى الْحُكْمَيْنِ لِمَعْرِفَةِ هَذَا الْمَعْنَى ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ : وُجُودُ الشِّقَاقِ فِي الْحَالِ مَعْلُومٌ ، وَمِثْلُ هَذَا لاَ يَحْصُلُ مِنْهُ خَوْفٌ ، إِنَّمَا الْخَوْفُ فِي أَنَّـهُ هَلْ يَبْقَى ذَلِكَ الشِّقَاقُ أَمْ لاَ؟ فَالْفَائِدَةُ فِي بَعْثِ الْحَكَمَيْنِ لَيْسَتْ إِزَالَةَ الشِّقَاقِ الثَّابِتِ فِي الْحَالِ فَإِنَّ ذَلِكَ مُحَالٌ ، بَلِ الْفَائِدَةُ إِزَالَةُ ذَلِكَ الشِّقَاقِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ »

والذي هو الأعلى عندي أنّـه لما كان النّشوزُ أكثـرَ وقوعًـا ، بـل لا تكـادُ تخلو منه امرأة مع زوجِها مهما عظمُ أدبُها وحبُّها له ، كـان علـى الرّجـل أن يتخذَ الوسائل الوقائيّة مِن تطوّره المتمثلة في العظـة ، فبمجـرّد أن تبـدُو لـه أثارةٌ منه مِن نحو رفعِ الصَّوت أو الإهمال في شيْءٍ كانت قبل هي المحتفيـة بـه في طاعتِـه ، عليْـه أن ينفـث في سمعِهـا وقلبِهـا عظـة تتمثـل في صُـور الصالحات مع أزواجهن من الصحابيات والتابعيّات ، ومـا أعد للمـرأة مـن جزاءٍ على حُسن تبعّلِ المرأة زوجَها ، وأن ذلك يعـدلُ ثوابُـه ثـوابَ الرّجـل

فيما يبذله من الأعمال الشَّاقَّة من السَّعي إلى الأرزاق والجهادِ في سبيلِ الله.... ممًّا يجعلها تستشعر الخُسران البالغ إذا وقعَ منها نشوزٌ .

أما المشاقة فهي قليلة الوقوع في المجتمعات التي لم تكن الغلبة لمن كرهوا ما أنزل الله تَعَالَى جَلُّهُ ، ، فلذلك كان حسنًا أن يتأكدَ المرءُ مِن البَدءِ في وقوعِها ، لأن استطبابَها إنّما يكونُ من غيرِ الزَّوج ، من حكمين ، فلكي ما لا يكونُ للآخرين علم بما سيكونُ قبل وقوعِه كان عليهما أن يعالجا الأمرَ بأنفسِهما أوّلا ، قبل استدعاء الحكمين ، لعلَّ الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ يجعل لهما من أمرِهما مخرجا ، والله جَلَّ جلالُه يقول في سورة «الطلاق» : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴾ (الطلاق:٢،٣) ، ويقول : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾ (الطلاق:٤،٥) وإيراد هذا الهدْي المُفرِّج لعتِيِّ الكروبِ في سورة (الطلاق) ذو دلالة بالغة في أنّ أعظمَ المُشكلات في الأسرة المتمثل في الطّلاق علاجها بتقوى الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ ، فلا سبيلَ إلى استطبابِ هذه المشكلة المدمّرة للبيوتِ كمثلِ تقوى الله ـ عزّ وعلا ـ ، ولو أن ولاة الأمر آمنوا بهذا ، وأنفقوا على تهيئة الأزواج وإعانتهم تعليما وتربية على التّمسك بتقوى الله ـ تعالى ـ معشارَ ما ينفقونه من أموالٍ لحلِّ المشكلاتِ الأُسريّة بيْن الأزواجِ ، لكان ذلك أنفعَ وأنجعَ ، ولكنّ الوِلاةِ يخشون على كراسيّهم ومكتسباتِهم المالية مِن أن تشيعَ التَّقوَى في شُعوبِهم ، لأنَّ شيوعها فيهم تجعلهم أهلاً لأن يُدافع الله سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ عنهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ

كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ (الحج:٣٨) فالطّغاة يَحرصُون على أن يُخليّ الله ـ جلّ جلالُه ـ بيْن النَّاسِ وأنفسِهم ، ليتمكّنوا من استْذلالِهمْ .

حركة الضمائر في قولُه ـ تعالى ـ ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ﴾ (النساء:٣٥) تهدي إلى أنَّ ظاهر الخطابِ أنّه لغير الزّوجين الواقعين في الشّقاقِ ، وإلا لقيل : (شقاقَ بيْنكما) ولا أفهم وجهًا للالتفات من الخطاب ﴿ خِفْتُمْ ﴾ إلى الغيبة (بيْنكُما) ومن الجمْعِ إلى التثنية إن قلنا إنَّ الخِطابَ للزَّوجين ، فمن أبصر وجهًا فهو الأولى اتباعًا ، أنا لا أقول إنه لا يوجد وجه للالتفات من الخطاب إلى الغيبة والعدول عن (خافا) إلى ﴿ خِفْتُمْ ﴾ بل أقول إني أنا لا أفهم ، ولا أجد ، حتى لا يكون ذلك تقولاً على كتاب الله ، فمن أدب العلم أن يحكم المرء على نفسه وليس على البيان الأَعْلَى ألاَّ يقال : وليس فيه كذا، بل يقال : ولا أجد فيه كذا ، وهذا ليس شيئا شكليا أو هامشا ، إنه من صميم البحث العلمي وأدبه .

المهمّ أنَّ أهل العلم القائلين بأن الخطابَ لغَيرِ الزَّوجين ، منهمْ منْ ذهبَ إلى أنّ الخطاب لوليّ الأمر (القاضي) ، بدلالة تسميته المبعوثين إلى الزوجينِ من أهلِهما حكمين ، فهما حكمان ماضٍ ما يتنهيان إليْه في شأنِ مشاقةِ الزَّوجين ، ولا يكونُ ذلك إلاَّ إذا ما كان الباعثُهما مالكًا للحكمِ بيْن الزَّوجيْن ، وليس ذلك إلا لولي الأمر (القاضِي) أو من يُنِيبه .

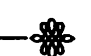
ومنهم منْ ذهبَ إلَى أنَّ ذلك خطابٌ لأهلِ الحكمة وإصلاح ذاتِ البيْنِ ، وهذا ما يُفهم من قول الطّبري في تفسيره الآيةَ : (إنْ عَلِمْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا) فقوله (أيها الناس) هادٍ إلى أمرين :

الأوّل : أنّهم ليسوا وليّ الأمرِ (القاضِي).

والآخر : أنّ (النّاس) ليس عامًّا غيرَ مخصص ، بل من كان ذا حكمةٍ وخبرةٍ فِي إصلاحِ ذاتِ البَيْنِ ، فليس كلٌّ بأهلٍ لذلك ، فالهدي النبويّ هادٍ إلى أنَّ منْ تولّى عملا ، وهو يعلم أنّه ليس له بأهلٍ فَليتبوأ مقعده من النارِ (حسنه الألباني في سلسلة الصحيحة) ، ومثله بدلالة المفهوم من ولّى أحدًا عملاً وهو ليس له بأهلٍ فإنّه لا يجدُ ريح الجنّة ، فإذا ولّى القاضي في مثلِ هذا من ليس بأهل ، أوْ ولّى السّلطان أحدًا في عملٍ عامٍّ وهو يعلم أنّ في الأمّة من هو أكثر علمًا وخبرةً وإتقانًا وأمانةً ، فقد غشّ أمّته ، فليخشَ الذين يولّون أصحاب الولاءات من الأهلين والمقرّبين ، ويدعون أصحاب الكفاءات والمهارات ، فَإنَّ الأمر جدُّ خطيرٍ في الدّنيا والآخِرَةِ .

والذي هو أوفق أن الخطابَ لأهل الزوجين من ذوي الحكمة والمهارةِ في إصلاحِ ذات البيْن ، فذلك أحفظُ لما بيْن الزوجين ، إذا ما تراضيا ذلك ، وهو الّذي عليه النّاسِ في ديارنا بصعيدِ مصر إلى يومنا هذا ، فقلّما يرفع شقاقٌ بيْن زوجين إلى القضاءِ ، ولا سيّما إن كان الزّوجان قَبلِيَّين نسبًا وحسبًا ، فليس حسنًا أن يترافع الزّوجان أمرَهما إلى القضاء ويتواجها ، ولا سِيّما إن كان بيْنهما ذريّةً . ﴿ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (البقرة:٢٣٧).

والإعراب عما بيْن الزوجين بقوله (شقاق) هادٍ إلى طبيعة ما بينهما ، وهو أن ما بينهما من تنازعٍ جعل كلاً في شِقٍ،فاتسعت مساحة التخالفِ والتباعدِ، ويُمكن أن يفهم من البيان بقوله (شقاق) أنّ كلاً يُوقع صَاحبه في المشقةِ ، بحيث لا يتأتّى لهما أن يتلاقيا ، فإمّا أن تنظرَ إلى طبيعةِ الفعل (المشاقة) أوْ إلى ما يترتبُ عليْه أوْ إليْهما معًا ، وهذا يصوّر لك بعضًا من



اتّساع المعنى باصطفاء كلمة «شقاق» وتغيرها من حقلها الدلالى لا يأنس به السياق والمغزي ، والغفلة عن تثوير ذلك غير حميدة .

وكان مقتضى الظّاهر أن يقال فِي غير القرآن شقاقًا بينهما ، ولكنّ البيان أضافَ المصدر إلى الظرف وهو من التّوسع ، (وأنا أفضّلُ هنا مصطلح «الاتساع» على مصطلح «المجاز»)[1] وهو هادٍ إلى اتساع هذا الشّقاق ، واستحواذِه على الظّرفِ كله ، فليس فيما بيْنهما ما لم يستولِ عليه الشّقاق ، ولو قيل (شقاقًا بيْنهما) لما فهم أنه شقاق متمدّدٌ سابغٌ ، فمن دلالات إضافةَ المصدر إلى الظرف زمانا أو مكانًا أن ذلِك الحدثَ مستولٍ على ذلك الظّرفِ ، فهو حدث عميمٌ مديدٌ .

وفي قوله ﴿ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا ﴾ (النساء:٣٥) حذف تقديره خفتُمْ عقبى شقاقٍ بينهما ، وليس حسنا عند من يَذهب إلى تأويل ﴿ خِفۡتُمۡ ﴾ بمعنى (علمتم) أن يكون التقدير وإن حفتم وقوع شقاقٍ بيْنهما ، لأنه إنّما يُتكلم في شقاقٍ واقِع ، إذ لا يعلم إلاَّ ما قد وقع .

وقوله : ﴿ فَٱبۡعَثُواْ ﴾ أمرُ هو على سبيلِ الوجوب ، لا الندب ، لأنّ الداء الذي يراد اسْتطبابُه مستفحلٌ ، ومثل هذا لا يكون الأمرُ فيه على سبيلِ الاستحبابِ .

---

(١) في مصطلح (الاتساع) ما يُفهم أنَّ العبارة تتسع لمعانٍ متآنسةٍ لا تتدافع ، ولا يتخلى عن بعضٍ ، وفي المجاز ما قد يفهم منه أنَّ فيه انتقالاً تخلٍ عن المنتقلِ إليْه ، وليس كل مقام يأنسُ بانتقال التخلي . ومصطلح «الاتساع» أسبق ميلادًا وأجرى في لسان الأعيان من أئمة أهلِ العلمِ بالعربيةِ .

وفي الإعراب بقوله : (ابعثوا) دون «أرسلوا» ما يهدِي إلى أهمية أن يكون ذلك على سبيل الإبلاغِ في السّعي ، والإبلاغِ في الإنفاذ ، فالبعث أدل على عظيم الأهمية من الإرسال ، لأنه لا يكون بعثٌ إلا مع استحثاثٍ .

وجاء قوله ـ تعالى ـ ﴿ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ (النساء:٣٥) دون «فابعثوا حكمين من أهلِهما» حتّى لا يتوهّم أنّه لو بعث حكمين من أهلِ أحدهما دون الآخر جاز ، وهو على غير ذلك ، فكان المقامُ مستوجبًا التفصِيلَ .

واشتراط أن يكون الحكمين من أهليهما تحقيق لمصلحة كل ، فمن كان من أهل الرجل كان أعرفَ بحالِه ، وأعرافِ قومه ، ومن كان مِن أهلِ المرأةِ كان أعرفَ بحالها وأعرافِ قومها .

يقُول الزّمَخشَريّ : «وإنما كان بعث الحكمين من أهلهما ، لأنّ الأقارب أعرف ببواطن الأحوال ، وأطلب للصلاح ، وإنما تسكن إليهم نفوس الزوجين ، ويبرز إليهم ما في ضمائرهما من الحب والبغض وإرادة الصحبة والفرقة ، وموجبات ذلك ومقتضياته وما يَزْوِيَانِهِ عن الأجانبِ ولا يحبَّان أن يَطَّلعُوا عليه»[1]

فإذا لم يتيسّر وجود حكمين من أهليْهما تتحقّق فيهما شروط إنفاذ هذه المُهمّة ، كان بعث من تتحقق فيه شروط تحقيقِ هذه المُهمّةِ أولَى ، فقيدُ (من أهله ، من أهلها) قيد أولوية لا قيد صحةٍ .

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، أبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد ـ الزمخشري (ت : ٥٣٨هـ) دار الكتاب العربي ـ بيروت ، ط . الثالثة ١٤٠٧هـ . ٥٠٨/١

وأهل العلمِ على أنّ مجال عمل الحكمين الإصغاء إلى ما عندَ كلٍّ مما وقعَ عليْه من الآخرِ ، ثم ينظران فيما أصْغيا إليه ، يتبيَّن لهما مَن له الحَقُّ ، ومن عليْه ، ويسعيَان إلى أَنْ يجمعا بيْن الزوجين بما رزق الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ الْحكمين من الحكمة وموهبةِ إِصلاحِ ذاتِ البيْن والخبرة المكتسبة في هذا .

وإذا ما كان الحكمان ـ ولا سيما إن كانا من أهليهما ـ برضوانٍ من الزّوجين وإقرارٍ بأن ينزلا على حكمِهما، فإنَّ ما ينتهيان إليه جمعًا أوْ تفريقًا بيْن الزّوجين هو الماضي في حقّ الزوجين ، ويكون لوليّ الأمر إلزامهما بما انتهَى إليه الحكمان ، وإن أبى أحدُهما النزول أو هما معًا وترافعا إلى القاضي ، فالقاضي ينظرُ في ما انتهى إليْه الحكمان ، فإن كان صوابًا أمضاه وألزمَ الزوجين بذلِكَ ، وإن كان ما انتهَى إليْه الحكمان فيه شيءٌ مِن جورٍ نقض القاضِي ما انتهَى إليه الحكمان ، فالقاضي بالخيارِ إن شاءَ أن يسْتأنف حكمين آخرين من أهليهما إن وجد من تتحقّق فيهما الخصائص المؤهلة أو من غيرِ أهليْهما إن عدما ، وإنْ شاء أن يباشرَ هو الأمرَ بنفسِه ، وفقًا لما يراه من حالِ الزّوجيْن ، فإن رأى فيهما تعنتًا ، فحسنٌ أن يباشرَ الأمرَ بنفسِهِ ليحسِم الأمر .

وجاء البيان ﴿ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ ﴾ (النساء:٣٥) وأهل العلم فريقان في بيان مرجعِ الضَّمير في ﴿ يُرِيدَآ ﴾ أهو الحكمان أمْ الزوجان ، نحن هنا أمام طرائق عدة يُمكن المتدبر أن يسلك كلاً ، وأن يتبصر ما يستجنيه من السير في كل سبيلٍ من هذه السبلِ :

المسلك الأول : سياق حركة الضّمائر في ما سبق هو للحَكَمَين ، والمعنى إن يردِ الحكمان الإصْلاح بيْن الزوجين يوفق الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ الزوجين ، فيكون الضمير في ﴿ بَيْنَهُمَآ ﴾ راجعًا إلى الزّوجين .

والمسلك الثاني : إن يردِ الحكمان الإصْلاح بيْن الزوجين يُوفّق الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ بيْن الحكمين ، فلا يتنازعان ويتعصب كلّ لمن كان من أهلِه ، بل يتفقان على أمرٍ سواءَ .

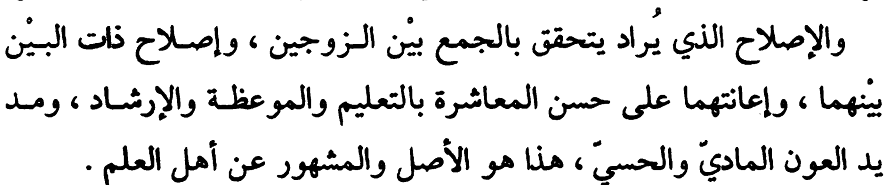
والمسلك الثالث : إن يردِ الزوجان الإصْلاح بينْهما يُوفّق الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ بيْن الحكمين ، ويهديهما إلى ما يحمل الزوجين على ما فيه صلاحهما .

والمسلك الرّابع : إن يردِ الزوجان الإصْلاح بينْهما يُوفّق الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ بينْهما ، فيشرح صدرَ كلٍّ من الزوجين فلا ينسَى الفضل الّذي كان بيْنهما يومًا ، ويتذكر كلٌّ ما كان من الآخر في حقه من الإحسانِ والرّعاية والمودّةِ والسكينة ، والأنسِ ، فيغلب حقّ ذلك على حقّ نفسِه ، ويحتسبَ الأمر عند ربه سُبحانه .

ومن خلال تجربتي في هذا الأمر أن الأعلَى عود الضمير في ﴿ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا ﴾ إلى الزّوجين[١] .

---

(١) لعله مما يستأنس به في هذا ما رواه البخاري في كتاب الطلاق من صَحيحه بسنده عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رضِيَ الله عَنهما ـ أَنَّ زَوْجَ بَرِيرَةَ ـ رضيَ الله عنها ـ كَانَ عَبْدًا يُقَالُ لَهُ مُغِيثٌ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَطُوفُ خَلْفَهَا يَبْكِي ، وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَبَّاسٍ : «يَا عَبَّاسُ ، أَلاَ تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ ، وَمِنْ بُغْضِ =



والإصلاح الذي يُراد يتحقق بالجمع بيْن الزوجين ، وإصلاح ذات البيْن بيْنهما ، وإعانتهما على حسن المعاشرة بالتعليم والموعظة والإرشاد ، ومد يد العون الماديّ والحسيّ ، هذا هو الأصل والمشهور عن أهلِ العلم .

بيْد أنّه قد يتحقق الصلاح بيْن الزوجينِ بالتفريق على هدْي من الكتابِ والسنة ، فكمْ من تفريقٍ كان هُو الصّالحَ لحال الزّوجين

* * *

وجاء البيان مقتصرًا عَلَى إرَادَةِ الإصْلاَحِ ﴿ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ (النساء:٣٥) إعلامًا بأن ذلك هو الذي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مأمَّ كل ، سواءٌ كانا الحكمين على قولٍ أو الزَّوجين على قولٍ ، قصدُ الإصلاحِ واجبٌ من الحكمين ، ومن الزوجين ، فإذا تحقّق ذلك منهما كانَ ذلك سببًا في أن يكونَ الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ للحكَمين في سعيهما ، وللزوجين في إزالةِ المشاقة بيْنهما ، فإنْ تحقّقَتْ إرادة الإصلاح من الحكمين وحدهما ، أوْ من

= بَرِيرَةَ مُغِيثًا». فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «لَوْ رَاجَعْتِهِ». قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، تَأْمُرُنِي؟ قَالَ : « إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ ». قَالَتْ : لاَ حَاجَةَ لِي فِيهِ .

هل لك أن تبْصُرَ ما صنعَ الإسلام بهذه الأمة (بريرة) كانتْ قبلُ تؤمر من سيدها ، فلا سبيلَ لها إلا أن تخضعَ ، فلما جاء الإسلام وتحررتْ كان لها أن تأبى شفاعة سيّد الخلائق ـ صلّى الله عليْه وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّمَ ـ عندها لمن كان زوجها ، ولذا كان من فقهها أن تفرق بين حالها مع النبيّ ـ صلّى الله عليْه وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّمَ ـ آمرًا ، وحاله شافعًا ، إن كان آمرًا فليس لها إلا أن تقولها : سمعنا وأطعنا ، ولما كان شافعًا استعملت حقها في أن تقبلَ وأن ترفضَ ، ولم يقلْ لها رسول الله ـ صلّى الله عليْه وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّمَ ـ : ألا تعلمين من أنا ، أنسيت من كنت ، لم يقلْ شيئًا من ذلك ، ولم يبد لها أو لغيرها امتعاضًا ممّا قالتْ ، وقارن هذا الخلق المحمدي العظيم ، وما يكون من أحدنا حين تردّ شفاعته .

الزّوجيْن وحدهما ، فالغالبُ أنّه لنْ يكونَ وفاقٌ بيْن الحكمين والتقاءٌ على كلمةٍ سواء إذا كان أحدهما لا يريد إصلاحًا ، فكيف إذا ما كانا معًا لا يُريدان إصلاح ذات البيْنِ بَيْن الزّوجين ، وكذلك الأمر في حال الزوجين ، إذا كان أحدهما لا يريدُ إصلاحًا ، فإنّه لن يتحقق الوفاقُ بيْنهما ، فكيف إذا ما كان كلاًّ منهما لا يريدُ إصلاح ذاتِ البيْن بيْنهما ؟ ولا سيما في عصرنا ، فنحن في زمان استزراع البغضاءِ بيْن الناس والتنابذ والتّلاعن ، والتخوين والتجريم على أمور الدّنيا ، ولا تكاد تجد في عصرنا متخاصمين في شأنٍ من شؤون الدّين ، وإن تظاهرا بذلك ، فالتخاصم في شأنٍ من شؤون الدين ، لا سيما إن لم يكن في أصل من أصوله ، وفريضةٍ من فرائضه هو إلى التلاشي أقربُ منه إلى الاستفحال ، فأنت ترى الأكابر يطلقون على خصومهم في شؤون الدنيا مصطلح «أهل الشرّ» ، وهي كلمة لا تكاد تستبقِي سبيلا للتقاربِ بينهما . وكلّ هذا مخططٌ له ومعدٌّ إعدادًا محكمًا ، وكم من كلمة تبثها وسائل «الإعلان والتوصيل» في الآذان فتنبت شجر الحنظل وتضرب للشيطان بين الناس فسطاطا .

ويذهب بعضُ أهل العلم إلى أن البيان القرآني اقتصر على إرادة الإصلاح ؛ لأنَّ هذه هي مهمة الحكمين ، وليس لهما أن يفرقا بيْن الزوجين على الرّغم منهما أو من أحدهما ، فالتفريق للزوجين أو القاضِي ، وليْسَ الحكمان إلا وكيلين عن الزوجين برضاهما واختيارهما ، فأمرهما نافذٌ في حال الجمع والتوفيق بين الزوجين أمّا التّفريق فلا .

كانت فاصِلة هذه الآية قول الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ (النساء:٣٥) وهي فاصلة تجمع بين الاسمين (العليم) و(الخبير) وهما من أكثر أسماء الله ـ تعالى ـ حضوراً واجتماعًا في القرآن .

في اسْمه «العليم» في هـذا السياق إعرابٌ عـن أنّ الّـذِي أَوْحَـى هـذه الأحكامَ ـ جَلّ جَلالُـهُ ـ في هـذه السـورة «سُورة النسـاء» ، المعقـودة لبيـان منهاج إقامة الأسرة المسلمة على العدل والرّحمة ، إنّما كان هذا الذي أوحاه عن واسعِ علمِه وسابغِه ومحيطِه ، فهو العليمُ بذاتِ الصّدور ، وهو العليمُ بما كان ، والعلِيمُ بما سيكون كيف يكون ومتى يكون ، وهُو العليمُ بما لم يكـن كيف يكون لو كان ـ سُبْحانه وتعالى ـ ، ومِن ثَـمّ لا يكـون لغـيرِه أن يُؤخـذ عنه شيْءٌ في هذا الأمرِ ، فكلّ ما عداه ما يعلمُه لا يبلغُ قطـرةً في محـيطِ مـا يَجهلُ .

اصطفاءُ اسمه (العليم) في سياق التّشريعِ هادٍ إلى أنّ ما شرعه هو أثرٌ من آثارِ واسعِ علمِهِ ومحيطِه ، ممّا يُعين النفسَ على أن تنصرفَ عن كلّ ما عداه من التشريعات الأُخر الّتي يصطنعُها النّاسُ لأنفسِهم ، وعلى أن يقبلـوا إقبـالَ يقين ومحبةٍ على ما شرع لهم ، فهو الذي أنبأهم في أول كتابِه بأنه المستحقّ الحمد لذاته ، وهو الذي يربّي العالمين ، وهو الرّحمنُ وهو الـرّحيم ، فكـلّ ما يكونُ منه للعالمين هو من فيضِ ربوبيتِه ورحمانيتِه ورحيميته ، وهو ممّـا يستوجبُ حَمدَه عليْه كما استوجب الحمـدَ لذاتِـه سُبْحَانَه وَبِحَمْـدِهِ ، وهـو مالك يوم الدين ، منْ رضِي بما كان منه ـ عَزّ وعلا ـ له فهـو المحسـن إليْـه الجزاءَ يوم الدّينونة والحسابِ ، ومنْ حاك فـي صـدره شيْءٌ مـن ذلـك فهـو المعاقبُه ـ إن شاءَ جَلّ جلاله ـ يوم الدّينونة والخُضـوع الأعظـم ، والحسـابِ الدّقيقِ والمُحيط .

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟

حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (الكهف:٤٩) ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (النمل:٨٩، ٩٠)

ذلك بعض ما يتوافد على القلبِ حين يرد اسمه (العليم) في سياق الإنباء بما شرعه لعبادِه ، واسمه «الخبير» جاء مقترنا باسمه «العليم» في أربعة مواضع أولها ما في هذه الآية ، وأكثر ما يقرن به في القرآن اسمه «اللطيف» و «الحكيم» .

و«الخبير» أخص من «العليم» فالخبير هو العليم ببواطن الأشياء ، ومن وجوه المعنى في اسمه «الخبير» أنه «فعيل» بمعنى «فاعل» ، أي المخبر بما علم ، وهو أعَلى حين يقرن باسمه «العليم» ، وفي هذا دلالة على كمال قدرته وعزته» ، وفي قرنه بالعليم على معنى المخبر بما علم من التهديد والوعيد ما يجعل من له نصيبٌ من عقل أن يكون على حذر بالغ ، حتى لا يخبر الآخرون في الدنيا والآخرة بدسائسه ومكنون صدره ، وقد قيل : «لو تكاشفتم ما تدافنتم» فمن علم أنه سيكشف سترة كف وارتدع ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (الزلزلة:٦-٨) .

* * *

المُدارسَة الرَّابعة
لِحاق الآيتين مناط التّدبر

إذا ما كنتُ قد افتتحت النَّظر في الآيتين مناط التدبر : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴿٣٤﴾ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ﴾ (النساء: ٣٤،٣٥) بالنظَرِ في سِباقِهما : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴾ (النساء: ٣٢،٣٣) فإنّه من الحسَن أن أختمَ القولَ بالنظرة العَجلى بما هو لِحاق الآيتيْن مناطِ التَّدبر ، لِما لهذا اللّحاقِ مِن العلاقةِ الوثقَى بهما ، فهُو كـ« الفاصلة » لهُما ، لِما فيها مِن خَصيصةِ « الفواصل » : عمومُ المعنى وشموله ، تأكيد المعنى وتقريره ، ولذا غلبَ على فواصلِ الآيات أن تكون لها في نظمِها صفةُ الاستقلالِ ، فكثيرا ما يُعدَلُ عّن الإعرابِ بالضمائر إلى الإعراب بِالأسماءِ الظاهرة .

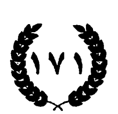
ولحاقُ الآيتَيْن مناطِ التّدبرِ قولُ الله ـ سُبْحَانَه وتَعالَى ـ :

﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾

(النساء:٣٦)

هذه الآيةُ معقودةٌ للحثِّ علَى الترقّي مِن مقامِ العدلِ إلى مقامِ الإحسانِ ، وهذا الإحسانُ مبدؤُه امتزاجُ العدلِ بالرَّحمةِ السّابغة السّامقة ، فحيْن تسكبُ الرّحمةُ الوسيعة في العدلِ يستحِيلُ العدلُ إحسانًا ، وهذا ما أُسّست عليْه السّورة : «سُورةُ النّساءِ» جعلَ سُبْحَانَه وبِحَمْدِهِ مُفتتح المَعنى في الآيةِ الأمرَ بقوله ـ تعالى ـ : **﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ ﴾** (النساء:٣٦) فهذا جماعُ الإحسانِ إلى النّفسِ في عَلاقتها بالله ـ سُبْحَانَهُ وتَعالَى ـ ، فمنطقُ العدلِ مَع نفسِك ألا تجعلَها عبدًا لغيرِ من خلقها ـ جلّ جلالُه ـ ولا عابدة لغيرِه ـ عزَّ وعلا ـ . هذا مَنطقُ العَدلِ معها ، وهِي أوّلُ ما يَجبُ على المرْءِ أن يعدلَ معَه ، فمَن لَم يكنْ عادلاً معَ نفْسِه الّتِي بيْن جَنبيْه ، أفيكونُ عادلاً يومًا ما مَع أحدٍ مِن العالمين ؟ لا يكونُ .

كلُّ منْ ظلم نفسَه بأنْ جَعلها عبدًا لغيرِ خالقِها وربِّها ورازقِها وجابرِها وحافظِها .... إنّما هو الظّلومُ لها ، ولذا كثرَ في البيان القرآنيّ **﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾** (البقرة:٥٧) (الأعراف : ١٧٠) **﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾** (آل عمران:١١٧) (النحل : ٣٣) **﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾** (النحل:١١٨) **﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ**



وَلَكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ (التوبة: ٧٠) (العنكبوت: ٤٠) (الروم: ٩) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ (يونس: ٤٤)

جاء الأمرُ بعبادته ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ معطوفًا عليْه النهي عن الإشراك به شيئًا ، ولا شك أن الإخلاصَ في عِبادة الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ يلزمُه عدمُ الإشراك ، فقوله ـ تعالى ـ ﴿ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا ﴾ (النساء: ٣٦) لازمٌ من لوازم ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ وكان مقتضى الظّاهر ألا يعطفَ عليْه بـ(الواو) كما هو المعهود في مثل هذان ، ولكنّ البيانَ القرآني جاء عاطفًا قوله ﴿ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا ﴾ بـ«الواو» لفتًا إلى ما في النّهي عن الشّرك من معنى زائد على إخلاصِ العبادة لله ربّ العالمين ، الإشراكُ بالله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ قد يقع فيما لا يظن أنّه من بابِ العبادة ، ولا سيّما عند أولئك الذين يَحصرون العبادة في ما هو من قبيل الشعائر المعهودة من صلاة وزكاة وحج وجهادٍ ، ولا يلتفتون إلى أنّ حسن الظن بالله ـ تعالى ـ عبادة ، وأن اليأس من نفع غيرِه عبادة ، وأنه هو وحده النافع الضار ، وأنه لن يكون لك أوعليْك إلا ما قدره لك ، واليقين بأن الأقدار كلها بيده ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ عبادة ، وكل هذا يقع فيه الشرك الخفيّ ، فكان وفاء بحق تمام الدلالة وكمالها وسبوغها أن يأتي قوله ـ تعالى ـ ﴿ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا ﴾ (النساء: ٣٦) معطوفًا بـ(الواو) الدالة على شيْءٍ ما من المغايرة بين سِباقِها ، ولِحاقِها .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ ﴾ (النساء: ٣٦) كالحجرالأساس الذي يبنى عليْه ما بعده ، ولذا أسس عليه الأمر بالإحسان بالوالِدين ، وَبِذِي الْقُرْبَى ، وَالْيَتَامَى ، وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى ، وَالْجَارِ الْجُنُبِ ، وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا مَلَكَتْ الأَيْمَانُ ، وتبصر قوله ﴿ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا ﴾ (البقرة: ٨٣) أعرب عنهما بالوالدين

تغليبًا لنعت الأم فهي الوالدة حقيقة ، والأب سببٌ في الولادة إشارة إلى أنَّ استحقاقهما الإحسان إنما هو بالولادة ، لا بالرعاية والحماية ، ولذا لم يقل : وبالأبوين إحسانًا حتى لا يتوهم أنَّهما يستحقان الإحسان بالتّربية والرّعاية ، كلاً ، إنما يستحقَّانه بمجرد الولادة وإن أهملا الرّعاية ، وفي هذا من تعظيم حقهما ، لا في العدل ، بل حقهما في ما هو الأعلى : «الإحسان» ، مما يجعل كلّ واحد منا مهما قدَّم لهما ، فما وفاهما حقهما عدلاً ، فكيف إحسانًا ؟ إنَّه لحملٌ جدّ ثقيل .

إذا ما بصُرتَ رأيت موقع المرأة (الزّوج) في هذه الآية اللحاق عليًا ، فهي من ذِي الْقُرْبَى وَمن الْجَارِ ومن الصَّاحِبِ ، فنصيبها من الإحسان في هذه الآية جدّ عظيم .

وهذا يؤطّد دعوة بيان الوحي إلى الإحسان إلى النساء عامة ، والأزواج خاصّة رعايةً وحماية ، ولو أنّ ما يسمّى منظمات المجتمع المدني ولا سيما المجلس القومي للمرأة وسيدات مصر ، وغير ذلك ممّا تموج به الساحة ، انطلق من هدي الكتاب والسنة في هذا لكان ذلك أعون لها على النفاذ إلى تحقيق حقوق المرأة ، لأنّ الرّجال الذين يماطلون في إيفائهن تلك الحقوق سيجدون أنفسهم مطالبين بها بلسان الشرع ، وهذا يجعلهم أَقربَ إلى الاستجابة ، لأنهم حينئذ يستجيبون لأحكام الشرع ، لا لغيرِه ، فلا تأخذُهم في ذلك ما يُمكنُ أن يحاجزَهم عن الاستجابة ، أو يتأخر بهم عنها .

الاحتماء بشرع الله ـ تعالى ـ والدّخول في فسْطاطِهِ أعون على نصرة الحق ، ونشر الخير إنْ كنتم حقًّا تريدون للمرأة أن تسْتوفي حقوقها التِي شرعها لها خالقها ، وكلّ ما لم يشرعه لها خالقها في الكتابِ والسّنة فليس لها بحقٍ ، ومن يسعَى لاستلابها لها فإنما هو ظلوم غشوم ، وحرى أن



يؤوب إلى ما جاء به الوحي قرآنا وسنة ، فذلك أكرم موقفًا وأعلى منزلاً ، وأسعد مصيرًا .

وإذا نظرت فيما أوجب الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ الإحسان به لاتجدُ فئة لم تكن مشمولة بذلك ، بدأ بالإحسان إلى الوالدين ، وختم بما ما ملكت الأيمان ، ولا سيما إذا جرينا على أنّ الجار ذا القربى هو المسلم ، والجار الجنب من ليس بمسلم على ما ذهب إليْه جمع من أهل العلم ، وهو الأوفق برسالةِ الإسلام وهديِهِ[1] فهو ـ سُبْحَانَهُ وتَعالَى ـ يأمرنا بأن نقولَ للناسِ كل الناس حسنا ، وأمرنا ألا نقولَ ما لا نفعل :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (البقرة:٨٣)[2]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن . أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي (ت : ٦٧١هـ) تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش . دار الكتب المصرية ـ القاهرة . ط . الثانية ١٣٨٤هـ . ١٨٣/٥ ، ١٨٤ .

تفسير القرآن العظيم ، أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت:٧٧٤هـ) تحقيق : سامي بن محمد سلامة دار طيبة للنشر والتوزيع . ط. الثانية ١٤٢٠هـ . ٢٩٨/٢

(٢) إذا ما كان قوله ـ تَعالى ـ ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (البقرة:٨٣) مخاطبًا به بني إسرائيل ، فالأعيان من أئمة أهل العلم أننا مخاطبون بشرع من سبقنا من اليهود والنصارى ما لم يرد في الكتاب والسنة غيرُه ، والقول للناس حسنا ممّا هو أليق بحالِ أمة رسول الله ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ من حال أهل الكتاب ، فكأنه لما كان أمرهم لهم ، كان هذا أبلغ ـ أكثر مبالغة ـ في أمر أمة رسول الله ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ به ـ ، فما يكون لأمةٍ قبلها من الفضل ليس لأمة رسول الله =

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ (الصف:٢،٣)

وأنا وأنت إذا ما ناظرنا حالنا بما جاء به الأمر بالإحسان إلى ذي القربى ، وما قرن به في الآية ، رأينا عظيم تقصيرنا في الوفاء بحقٍّ ذلك ممًّا يوجب الاستغراق في الاستغفار ، والتّطهر من ذلك التّقصير الّذي يترتَّب عليه كثيرٌ من الفساد الاجتماعيّ ، فمُعظم ما نحن فيه إنّما هو من ذلك التّقصير ، فلو صدق الذين يريدون تحقيق السَّلام الاجتماعيّ لعملوا على تطهير المجتمع من هذا التقصير في الوفاء باستحقاقات الإحسان الوسيع فسطاطه ، الصَّفيّ باعثه ، الفتيّ فعله .

وكلّ ذلك مؤسس على الأمر بعبادته والنهي عن الشرك به شيئًا ، مما يجعل هذا الإحسان ثمرة لتحقيق نقاءِ عبادة الله ، وكمال البراءة من الإشراك به شيئًا ، وحين يكون إحسانك إلى غيرك مؤسسًا على هذه القاعدة المكينة ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔا ﴾ (النساء:٣٦) يكون هذا الإحسان موفور الاعتناء به ، لأنه يمثلُ الزلفَى إلى الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ ، فصانعه لا ينظر في تحقيقه لمن وجب لهم عليه إلى موقفهم منه إحسانًا ، وإساءة ، هو يصنعه على ما يليقُ به هو عبدًا لله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ قانتًا ، ولا يصنعه على ما يليق بحال من هو لهم صانع ، سواء كانوا إليْه محْسنين أم كانوا غيرَ محسنين ، هو يطهر وعيه من الأغيار ، ليس في وعيه وقصده ومأمه ومحجه

ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلَّمَ ـ ما هوأعظم منه ﴿ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلًا سَدِيدًا ﴾ (النساء:٩) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب:٧٠،٧١)

إلا الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ ، وهذا هو كمال التحرر الأمجد ، والاستغراق في مقام العبودية الأحمد ، وهذا ما لايليق بك غيْرُه إنْ كنت مسْتحضراً قيمتك في هذه الحياة .

وإذا ما كان قوله ـ جَلّ جَلالُهُ ـ ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ (النساء:٣٦) مسوقًا سوقًا أصليًا إلى ما يملكه المرء من الإماء والعبيد ، فإنه ليس ثَمَّ ما يحاجز عن دخول كل ما ملكت يمين المرء من الأنعام ، والأشجار والأنهار . . . . إلخ ، وكل ما أقامه الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ في يمينه ، وكلّ من جعله الله ـ تعالى ـ تحت سلطانك وإن لم تكن مالكه ، فكل ذي ولاية يكون جميع من ولّى عليهم داخلين في (ما ملكت أيمانكم) لأنّه يملك تصريف أمره ، فالمرؤوسون جميعًا داخلون في ما ملكت يمين رئيسهم ، عظمت رئاسته أو صغرت ، ولو كان أميراً على اثنين إمارة عارضة ، وتأمل قوله (أيمانكم) الإعراب باليمين فيه إشارة إلى وجوب أن يكون ملك خير وبركة وإحسان وإشفاق ، لا ملك تجبّر ، ومشاقة واعنات ومخادعة ، إنَّ شأن المسلم يحسن إلى كل ما له عليْه ولاية من خلقِ الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ .

* * *

وفي اصطفاء قوله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴾ (النساء:٣٦) إنباء بما يرتعد منه كلّ عاقل ، فالإعراب بقوله ـ تَعالى ـ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ﴾ (النساء:٣٦) هو إعرابٌ عن عظيم البغض والنقمة منه ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ ، فأولو النهي حين يسمعون هَذِه العبارة تكاد تنخلع قلوبهم ، ومنْ ثَمَّ حَسُنَ أن يستجمع المرْء الآيات والأحاديث التي ورد فيها أن الله لا يحب ، أو الأحاديث التي ورد فيها أن الله يبغض ، أو كره أو سخط ، ليقف على ما يوجب عدم محبة الله ـ جَلّ جَلالُهُ ـ للمرء ،

وما يوجب بغضَه ، وكرهه وسخطه ، فيقيم بينه وبينها جدارا منيعًا ، فلا يحوم حول أيّ منها ، تبصّرْ نظم الفاصلة ، تجده قد أسَّس على بناء الفعل المنفي (لا يحبّ) على اسم الجلالة ، فاجتمع عاملان رئيسان من عوامل توكيد نسبة نفي الفعل لاسم الجلالة ، العامل الأول : تقديم المسند إليه (الله) على المسند الفعلي المنفي (لا يحب) ، والعامل الآخر : (إن) فهي لتوكيد نسبة المسند للمسند إليه ، والجمع بين العاملين لفتٌ إلى أهمية أن يكون محمول هذا النبأ متقرّرًا في الأفئدة ؛ لتعلم عظيم خطر ما لا يحبه الله - تعالى - على علاقة المرء بربه - تعالى - أولاً وبالآخرين ثانيًا .

وجاء قوله ﴿ مَن كَانَ ﴾ إشارة إلى المرء قد يمسه شيْء من الاختيال والفخر ، فإذا تحصن من أن يتمكن منه كان له ما يحفظه من استحقاقات قوله : ﴿ لَا يُحِبُّ ﴾ في قوله : ﴿ مَن كَانَ ﴾ إشارة إلى تمكن الوصفين فيمن لا يحبه الله - تعالى - وهذا من عظيم رأفة الله - تعالى - بعباده ورحمته بهم .

وهذه الفاصلة على هذا النظم لم ترد إلا في هذا الموضع ، فهو من فرائد سورة النساء ، وجاء على نحو آخر من النظم في موضعين : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (لقمان:١٨) ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (الحديد:٢٢،٢٣)

أبرز صفة الاختيال في صورة تستوجب لمن تلبس بها عدم حب الله - تَعَالَى جَدُّهُ - له ، ومن كان هذا جزاءه كان الله - تَعَالَى جَدُّهُ - مخليًا بينه وبين نفسِه ، تسوقه إلى ما فيه مزلته ومذلته ، ومن شأن المختال أن يتيه

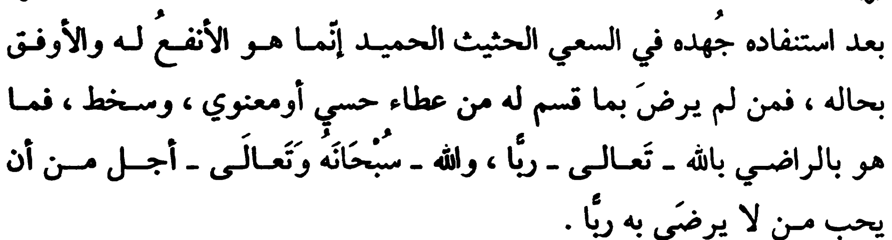


ويتكبر ويترفع على قومه وذوي رحمه وعلى الناس ، وكأنَّه يرى نفسَه ليست منهم ، وليسوا منها ، فهذا شطر الكبر (غمط الناس) ، وأكثر ما يظهر الاختيال في علاقة المرء بمن له عليهم سلطان ، ومن ثَمَّ تفهم العلاقة بين قوله ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ (النساء:٣٦) وهذه الفاصلة ، فكل من لم يُحسن إلى ما ملكت يمينه له نصيب من الاختيال ، فإنه ما ترك الإحسان إليه إلا لأنه استشعر أنه أعلى منه وأعظم ، فتاه عليه ، فحمله تيهه وترفعه على أن يتردى في التكبر والتجبر .

والفخور عصب أمره ادعاء ما ليس له ، فمن افتخر بنسبه فأي فضل له في ذلك ، نسبك ليس لك فيه يد ، كما أن من كان غير نسيبٍ ليس عليْه تبعة من ذلك ، فالذين يفتخرون بأنسابهم فقد افتخروا بما لا يُفتخرُ بِه ، بل ربما كان معرة أن يكون المرء نسيبًا غير حسيب .

والتفاخُرُ بما ليس للمرء يُسميه العرب «التنفّج» ، وهذا لا يكون من المرْءِ إلا من اليقين بأن الذي له ، والذي فيه غير كاف لأن يفتخر به ، وأنه العاجز عن أن يصطنع من الخير والشرف ما يجعله صدوقًا في فخره ، وإذا ما كان افتخار المرء بما له وما فيه قمينًا في شرعة الرجال فكيف بالذي هو يفتخر بما ليس له ، وليس فيه ، إنه آية بلوغه العَوز (الفقر مع العجز) ومثل هذا ليس له مقام في الرجولة .

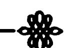
الصفتان (الاختيال) و(الافتخار) يحاجزان من تلطخ بهما أو بأحدهما عن أن يُحسن إلى أحد ، بدءًا من الوالدين إلى ما ملكت اليمين من إنسان وما دونه ، وهو بالضرورة لن يكون محسنًا عبادة الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ ، والنقاء من الإشراك به شيئا ، لأنه لمَّا لمْ يستغن بما في يده ، وادعى لها ما ليس فيها كأنّه لم يرض بالله ربًّا ، لو أنه رضي ـ بالله تَعالَى ـ ربا لعلم أن الّذي في يده



بعد استنفاده جُهده في السعي الحثيث الحميد إنّما هو الأنفعُ له والأوفق بحاله ، فمن لم يرضَ بما قسم له من عطاء حسي أومعنوي ، وسخط ، فما هو بالراضي بالله - تَعالى - ربًا ، والله - سُبْحَانَهُ وتَعالَى - أجل من أن يحب من لا يرضَى به ربًا .

إذا ما كان من أذكار المسلم صباحًا ومساءً « رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً » ، فإن في هذا إعلان من العبد أن كل ما يأتيه أمرًا ونهيًا ومنحًا ومنعًا من الله - تعالى - إنما هو تربية له وتزكية ، وأنه مؤمن بذلك راض به رضًا مبعثه الفهم النفسي والعقلي والقلبي ، وإعلان أنه لن يرضى بغير الإسلام دينا ، فكل ما عداه من الملل والعقائد باطل مردود ومنبوذ ، وإعلان أنه لن يتلقى عن أحد من الخلق شيئًا من نبأ دينه عقيدة وشريعة إلا من نبي الله - تعالى - ورسوله ﷺ ، فإذا أعلن ذلك صباحًا ومساء، ووقع منه ما خالفه ، ولم يتب منه فهو الكذاب الأشر في إعلانه صباحًا ومساء ، فليحذر من يعلن ذلك بلسان مقاله ولسان حاله يناقضه مما قد يدخله حظيرة الفسوق بل النفاق ، إنَّ غير قليلٍ ممًا يعتري النَّاس ممَّا يُسَمَّى بالأمراض النفسية سببه عدم الرِّضا بالله ربًا ، فمن رضى به ربًا أيقن أن كل ما يأتيه من الله - تعالى - إنما هو تربية له تربية تزكية وتذكية ، قد لا تدركها بعض البصائر، إنها في شأن المؤمن حقيقة ، يرى كل قدر الله - تعالى - خيرًا له ، سواء سُرَّت به النفس أو لم تسرّ ، وهذا ما هدى إليه بيان النبوة الحكيم ، روى مسلم في كتاب « الزُّهد والرقائق » من صحيحه بسنده عن صهيبٍ - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « عجبًا لأمر المؤمن ، إنَّ أمره كلَّه خيرٌ ، وليس ذلك لأحد إلاَّ للمؤمن : إنْ أصابته سرَّاء شكر ، فكان خيرًا له ، وإنْ أصابته ضرَّاء صبر ، فكان خيرًا له » .

* * *



المدارسة الخامسة
هَدي القرآن في معالجة الخوفِ من نشوز الزّوج أو إعراضِه

وإذا ما كانت الآيات الآنفة قد أبانت عن العلاج الناجع إذا ما خاف الزوج نشوز زوجه ، وإذا ما بلغ الأمْر المشاقة ، وكان النّشوزُ والإعراض قد يقع من الرّجل ، وتخافَه المرأة ، فإنَّ السُّورة نفسِها بعد قرابة مئة آية أبانت عن معالجة هذا الأمر ، فجاء قول الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ :

﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ (النساء:١٢٨-١٣٠).

في نشُوز الرّجل وإعراضه جاء الإعراب عن الزوج باسم «البعل» : ﴿ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا ﴾ (النساء:١٢٨) لفتًا إلى أنّ هذه المرأة الَّتِي تَخافُ مِن بعلِها نشوزًا أو إعراضًا ليستْ سببًا في صدور النشوز أو الإعراضِ منه عنها ، لأنها تمارس معه علاقة فيها شيءٌ مِن الاحترام والإجلالِ والطاعةِ في

غيرِ معصيةِ اللهِ ـ جَلَّ جَلالُـهُ ـ ، فـهـي تتقربُ إلى الله ـ عَـزَّ وجـلَّ ـ بطاعةِ هـذا الزَّوج فيـما لا يغضبُ الله ـ تَعَالَى ـ ، وإن لَمْ يكنْ ما تطيعُه فيه على هَوى نفسِها ، فهي تُقدِّمُ مراداتِه على مراداتِها ، فهي من اللاتي قيـل فيهن قبـلُ : ﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ (النساء:٣٤)

وبهذا يُنحِّي البيان أيَّ حسبان أن يكون لهذه المرأة الَّتِي تَخَافُ مِن بعلِها نشوزًا أو إِعراضًا أي باعثٍ عليْه ، فالبواعثُ من خارج فعلها ، وهذا من حُسن الدّلالةِ وتمامِها ، وتبرجها (إحكامها) في صورة هي أبهى وأزين ، وآنق وأعجب . . .

وفي نشوز المرأة جاء البيانُ ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ (النساء:٣٤) ولم يقل (وإن رجل خاف من زوجه نشوزًا أو إعـراضـًا) ، ولم يقـل هـنا (والـذيـن تخـافـنّ نشـوزهـم أو إعراضَهم . . .)

وكأنّ في ما جاء عليْه البيانُ هنا ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾ (النساء:١٢٨) أدلُّ على أنّ نشوز الرجل ـ الذي هو رجلٌ حقًّا ـ وإعراضه عمنْ كان عندها بعلاً أقل ، وهذه الأقلية لم تُفهم من البيان بـ(إن) الشرطية دون (إذا) ، ذلك أنَّ (إن) الشَّرطيّةَ موضوعةٌ في لسان العرب للدَّلالة على تعلُّق وقوع الجَواب على وقوعِ الشَّرط ، من غير التفاتٍ إلى حالِ الشَّرط أمشكوكٌ في وقوعِه أمْ متيقن وقوعه ، فأداة الشرط (إن) هي أم البابِ ، وأمّ كلِّ بابٍ موضوعةٌ للمعنى مجردًا عَنْ أيِّ حكمٍ ، وإنما فهمتُ القلة من تنكير (امرأة) ، ولو قال : والّتي تخاف من بعلها نشوزًا أو إعراضًا ، لما تأتى لي فهم قلة وقوع هذا التخوفِ ، ففي التنكير « امرأة » معنى « التعليل » لا « التعظيم » و« الشيوع » لا « التعيين » ،

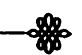
وفي الإعراب بكلمة «امرأة» لفت إلى معنى المروءة من جهة ، وإلى أن معنى الزوجية فيها قد ضعف ؛ لأنَّ خوفَ النشوز ذو أثر في كمال الزوجية والتكامل.

وهذا الأمرُ هو المعهودُ في زمان كان فيه الأزواج رجالاً بكلّ ما تحمله كلمة رجال من القيم الآدمية العلية ، أما إذا انحرفت حركة الحياة في زمان أو مصرٍ كمثل زماننا ومصرنا ، فإن الأمر خارجٌ عمَّا جاءت الآية مصورة له في زمانِ استواء حركة الحياةِ واحتفاظ النّساء بخصائصهن واحتفاظِ الرجالِ بخصائصهم الأخلاقية .

حين تكون سياقات الحياة نقاءً من رجسِ الإنسانية مبنية على أصول القيم «الآدمية»، فإنك قلما تجد امرأة صَالحة تخاف من بعلها نشوزًا أو إعراضًا .

من هذا فهمت أنّ العدول في قوله : ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾ (النساء:١٢٨) عما كان عليه قبل في نشوز المرأة ، إنما هو علول مصورٌ لما هو المعهود في سياق حركة الحياة السّوية .

وفي الإعراب بالتخوف ﴿ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ﴾ (النساء:١٢٨) إشارة إلى أنّ على المرأة أن ترقب حال زوجها معها ، فإذا ما بدا لها منه دلائل على توقع النشوز أو الإعراض فإنّ لها أن تبادر في علاجها قبل أن تقع ، فهو مسلك وقائي ، ومثل هذه المبادرة كثيرًا ما تقيم الرَّجل المستحضر معنى الرُّجولة مقام حرجٍ ، فيكبحُ ما قد بدت دلائله منه ، فالشأنُ في الرّجالِ الّذين هُم رجال ألا يحملَ مَن كان ضعيفًا أوْ ذا حاجةٍ إليْه أن يسعَى إلى أن يتقِيَ بوائقه ، فالرّجولة معنًى يقوم في الرّجل يمنعه من أن يقترفَ ما لا يليقُ ، ولا أعرف رجلاً استشعرت منه زوجه تخوفًا



إلا سعى إلى أن يترع قلبها منه اطمئنانًا صدوقًا ، فأسُ الرجولة الحماية والوقاية مما يُستخشَى . .

روى مسلم في كتاب (الإيمان) من صَحيحِهِ بسندِهِ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ » .

وفي رواية لأحمد فِي مسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ قَالَ : « وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ » . قَالَهَا ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، قَالُوا : وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « الْجَارُ لاَ يَأْمَنُ الْجَارُ بَوَائِقَهُ » . قَالُوا : وَمَا بَوَائِقُهُ قَالَ : « شَرُّهُ » .

فإذا كان هذا حال المرء مع جاره ، وإنْ كان غير مسلمٍ ، فكيف يكون حين تكون صَاحبته التي أفضَى إليها ، وأفضت إليْه ؟

وتأمل كيف أن النبي ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلَّمَ ـ علق الأمر على عدم الأمن ، ولم يعلقه على الوقوع ، فمن كان حاله حالاً يدخل في قلب الجار توقع أن يصيبه منه شرّ ، فذلك الذي أقسم سيدنا رسولُ الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلَّمَ ـ ثلاثًا أنه لن يدخل الجنة ، أي لن يدخلها مع أول الداخلين ، وإن دخلها من بعد أن يطهّر كما يطهر « الذهب » بالنار . فلن يدخل أحدٌ الجنة إلا إذا طهر إما بالمغفرة والعفو ، وإما بالمكث في النار حتى يصفو ، فيكون أهلا لأن يدخُل الجنة ، كيما لا يتأذى به أهلُ الجنة إنْ لمْ يطهر من آثامه بالعفو أو بالنار .

الآية هنا ذكرت شيئين (النشوز) و(الإعراض) .

النشوز وقد مضى بيانه ، وهو من الزوج حين يرى في نفسه ما يرفعه عليها ، لتغيرٍ جرى فيه من نحو درجة وظيفية عليا أو درجة علمية أو مال جرى في يده وقلبه ، أو نحو ذلك ، فيدخل فيه شعورٌ بأنه أعلى قدرًا من



هذه التي تزوجها قبلُ . فيمارس أفاعيل يحمل بها امرأته على أن تنفر منه ، فيتعلل بذلك ليكون له مسوغ الهجر أو الاستبدال ، ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ ، مثل هذا لا يفعلُه إلا أشباه الرجال .

والإعراض هو ما يبدو من الزوج من عدم رغبةٍ فيها لكبرِ سنٍّ ونحوه ، فلا يرى فيها حينذاك ما يدفع عنه استحقاقاته الجسدية ، فيعرض إلى من توفي له هذه الاستحقاقات .

في النشوز إيذاء صريح ، وفي الإعراض إيذاء خفي ، لأن من الإعراض إهمالها ، فلا يعنى بما هي صَانعة إن خيرًا ، وإن شرًا ، فكأنها غير حاضرة في وعيه وقلبه ، ولا يؤذي المرأة الحرة كمثل شعورها بأنها الطريدة عن نفسِ زوجها وعقلِه وقلبه ، هي دائمًا تريد أن تكون المستعمرة هذه العوالم الثلاثة ، استعمارًا يملأُ عليه حياته .

يقول الرازي في تأويله الآية : « وَالْمُرَادُ مِنَ الإِعْرَاضِ السُّكُوتُ عَنِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالْمُدَاعَاةِ وَالإِيذَاءِ ، وَذَلِكَ لأَنَّ مِثْلَ هَذَا الإِعْرَاضِ يَدُلُّ دَلالَةً قَوِيَّةً عَلَى النَّفْرَةِ وَالْكَرَاهَةِ ».

ومن صور الإعراض أن يكفّ دون سبب منها عما كان يبذله له طواعية ، من نحو كلمة طيبة ، أو ابتسامة أو ثناء يملأ نفسها رضًا ، أو غفران لما قد يكون منها أو غياب عن البيت لغير ما عذر .... كلّ ذلك من دلائل الإعراض ، ويأتي جواب الشرط ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ﴾ (النساء:١٢٨) مبينًا عمّا هو حق للمرأة التي خافتْ من بعلها نشوزًا أو خافت إعراضًا ، فأبان أن لها الحق في أن تسلك سبيلاً إلى ما يصلح ما بيْنهما ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾ (النساء:١٢٨) قوله : (لا جناح) أيفهم من ظاهره أنه إن لم يكن خوف من نشوزه أو إعراضه ، فليس ذلك

بحق لها ، فإذا ما كان الإصلاح متمثلاً في تنازلها عن بعض حقها ليستبقيها في ولايته ـ كما تهدي إليْه أسبابُ النزول ، فلا يكون لها أن تفعل؟ أيفهم هذا من نظم الآية .

يقُول الطاهر بن عاشور في تأويل الآية : «وَصِيغَةُ فَلا جُنَاحَ مِنْ صِيَغِ الإِبَاحَةِ ظَاهِرًا ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى الإِذْنِ لِلزَّوْجَيْنِ فِي صُلْحٍ يَقَعُ بَيْنَهُمَا ، وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ الإِبَاحَةَ لاَ تُذْكَرُ إِلاَّ حَيْثُ يُظَنُّ الْمَنْعُ ، فَالْمَقْصُودُ الإِذْنُ فِي صُلْحٍ يَكُونُ بِخُلْعٍ : أَيْ عِوَضٍ مَالِيٍّ تُعْطِيهِ الْمَرْأَةُ ، أَوْ تَنَازُلٍ عَنْ بَعْضِ حُقُوقِهَا ...

وَيُحْتَمَلُ أَنْ تكون صِيغَة فَلا جُنَاحَ مُسْتَعْمَلَةً فِي التَّحْرِيضِ عَلَى الصُّلْحِ ، أَيْ إِصْلاَحِ أَمْرِهِمَا بِالصُّلْحِ وَحُسْنِ الْمُعَاشَرَةِ ، فَنَفْيُ الْجُنَاحِ مِنَ الاسْتِعَارَةِ التَّمْلِيحِيَّةِ ، شَبَّهَ حَالَ مَنْ تَرَكَ الصُّلْحَ وَاسْتَمَرَّ عَلَى النُّشُوزِ وَالإِعْرَاضِ بِحَالِ مَنْ تَرَكَ الصُّلْحَ عَنْ عَمْدٍ لِظَنِّهِ أَنَّ فِي الصُّلْحِ جُنَاحًا ، فَالْمُرَادُ الصُّلْحُ بِمَعْنَى إِصْلاَحِ ذَاتِ الْبَيْنِ ، وَالأَشْهَرُ فِيهِ أَنْ يُقَالَ الإِصْلاَحُ .

وَالْمَقْصُودُ الأَمْرُ بِأَسْبَابِ الصُّلْحِ ، وَهِيَ : الإِغْضَاءُ عَنِ الْهَفَوَاتِ ، وَمُقَابَلَةُ الْغِلْظَةِ بِاللِّينِ ، وَهَذَا أَنْسَبُ وَأَلْيَقُ بِمَا يَرِدُ بَعْدَهُ مِنْ قَوْلِهِ : وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ».

هذا الذي فصله الشيخ الطاهرُ يهدي إلى أن نفي الجناح قد لا يراد منه أنّ الجناح قائمٌ قبل وقوع الشرط (خوف النشوز أو الإعراض) ، وإنما يراد التحريض على السعي إلى المصالحة ، وقد لاتكونُ المصالحة بأن تسقط المرأة بعضَ حقوقها ، بل قد تكون من قبيل الموعظة والتذكير بالحق والرّحمة والإحسان . . . فيكون الإصلاحُ هنا إصلاح ذات البين ، أَو إصلاح ما يَحيك فِي النّفوسِ ، ونحو ذاك وهو الأوسع دلالةً .

وجاء البيان بكليَّة تجمعُ في فُسطاطها كلّ الأحوال والمواقف (والصُّلحُ خيْر) فهذا عامّ غير مقيّد بما كان السّياق له ، وإن كان ما السّياق له هو الأوْلى أن يؤخذَ بهذه الكليّة فيه ، ومن أهل العلم من يذهب إلى أنه لا يُفهم منْ قولِه(خيْر) أنّ في عدم الصّلح شيءٌ مِن الخيْر على أنَّ كلمة (خيْر) صِيغة تفضيل ، بلْ هذه مِن صِيغ الصّفة المشبهة كما يقول الطّاهربن عاشور .

ومنهم من ذَهب إلى ربطها في هـذا المقـام بالسياق دون أن يـأبى عمـوم معناها ، فيرى في قوله (خـير) دلالـة علـى المفاضـلة أي الصـلح خـير مـن المشاقة أو المفارقة . يقول البقاعيّ : ولما كان التقدير : ولا حناح عليهما أن يتفارقا على وجه العدل ، عطف عليه قولـه (والصـلح) أي بـترك كـل منهمـا حقه أو بعض حقه (خير) ، أي المفارقة التي أشارت إليهـا الجملـة المطويـة لأن الصلح مبناه الإحسان الكامل بالرضى مـن الجـانبين ، والمفارقـة مبناهـا العدل الذي يلزمه في الأغلب غيظ أحـدهما وإن كانـت مشـاركة للصـلح في الخير ، لكنها مفضولة ، وتخصيصُ المفارقة بـالطيّ لأن مبنـى السـورة علـى المواصلة[1] .

ورؤية البقاعي أغور وأوسع وأحرص على استبقاء الصيغة (خـير) علـى فطرتها وعصمة لها من أن تجرد مما فطرت عليه دلالة ، وهذا منهج يحسـن رصده وتنويره وتفعيله في تلقى البيان لأنـه أمكـن وأثمـن . وممـا يجـب أن نكون على ذكر منه أنه لا يكون الصلح خيراً إذا اشتمل على ما لا يرضاه الله ـ تعالى ـ ، وعن ذلك الصلح على ما فيه جورٌ على أحـد الطـرفين وإن قبلـه مضطرًا أو مكرهًا أو نحو ذلك ، فذلك الصلح لا يكـون خـيرًا ، ولا تترتـب

---

(١) نظـم الـدرر فـي تناسب الآيـات والسـور ، بـرهـان الدين البقاعي : إبراهيم بـن عمـر ابن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر (ت : ٨٨٥هـ) دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة . ٤٢٢/٥ .

عليه حقوق ، فليس كلّ ما يرتضيه الطرفان هو الجائز والمباح ، فقد يتراضيا على معصية .

تأتي الآية من بعد هذه الكلية لافتةً إلى ما فطرتْ عليْه النّفسُ الإنسانية ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ (النساء:١٢٨) فهذه النّفس مطبوعة على ذلك ما لم يُهذبها هدْيُ السّماءِ .

و« الشّح » وإن كان العُرف على أنّه الضّنّ بالمال ، إلا أنّ الأوْلى أن يُتسع فيه لِيشمل الضّنّ بكلّ ما هو نفيسٌ ، أيْ كلّ ما للنّفسِ به تعلّق وتطلّع ، فهو ما سمّي نفيسًا إلا لتعلّق النّفسِ به وتطلعها واستشرافها وتشوفها إليه ، وما كلّ نفيسٍ هو في نفسِه شريفٌ ، فالنّفاسة صفة كاشفة عن موقع الموصُوف بِها في النّفس ، وهذا أمرٌ غيرُ موضوعيّ ، ومِنْ ثَمّ هُوغيرُ منضبِط ، فما هو عِند هذا نفيس قد يكون عند آخر ليس كذلك .

قوله ـ جَلّ جَلالـه ـ : ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ إِنباءٌ بما جُبلتْ عليْه النّفسُ البشرية ليتعامل المرء معها بما يروضها ، لا بما يقسرها ، فمنهج الإسلام في التعامل مع ما جبلت عليْه النفسُ البشرية أن يُروضها في رفقٍ ، للتخلص ممّا هو متلبسٌ بها ، فالشّح جبلة ، لاسبيلَ إلى اتقاءِ شرّه إلا بترويض النّفسِ وتثقيفها ، وإغرائها بما هو الأعلَى ، والنّفس مفطورةٌ على أن تحوزَ الأعلَى إذا ما أيقنتْ أنّه الأعلَى ، فالسبيل إذَنْ هو حملها بالحسنَى إلى أن ترَى النفسُ الحسنَ فيما يراد لها ، وبها ، فإذا ما رأتْ أقبلت ، ولا تجد نفسًا عَنودًا تنفرُ من الأعلَى إلاّ مِن أنّها لم ترَه الأعلَى ، إمَّا لأمرٍ راجعٍ إليْها ، وإمَّا لأمرٍ راجعٍ إلى مَن يسعَى إلى أنْ يُريَها ، وإِذا ما عُلِم « الدّاء » وسببَه ، كان السبيلُ إلى علاجه أيسرَ .

وفي بناء الفعل (أحْضر) لغير الفاعل إشارة إلى قوّة الحدث ، فهو كائن أيًا كان الفاعل قوة أو ضعفًا ، وكأن حال الفاعل أو شأنه ليس هو العاملَ الرئيس في وقوع الفعل ، فإذا ما قلت « فُهِمَ الدرسُ » فهذا إنباءٌ منك أنّ فهمه واقع أيًا كان حال المُفِهم ، وأيًّا كان حال المُفْهَم ، مردُّ الأمر إلى شأن المفعول/ نائب الفاعل) أي هو أهل لأن يفهم أيًا كان حال المُفْهِم ، أو المفهَم ، ومثل هذا تقوله في ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ جعل العامل الرئيس لوقوع الفعل هو حال النفسِ ، فهي مهيئة لذلك ، فإحالة « المفعول به » نائبَ فاعلٍ فيه إنباءٌ بشأنه ، من جهةٍ وبشأن الفعل من أخرى ، وهذا غالبٌ على العدول عن بناء الفعل للفاعل حين يكون معلومًا إلى بنائه لغير الفاعل .[1] كما تراه في قول الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾ (البقرة:١٧٨)

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ (آل عمران:١٤)

---

(١) بعض طلاب العلم يعبر عن الفعل المبني لغيرِ الفاعل بالفعل المبني للمجهول ، وهذا غير حميد ، فالأفعال التي لاتكون إلا من فاعل متعين ثم يعدل بها إلى بناء صِيغتها إلى غير الفاعل كيف يقال إنها مبنية للمجهول ، هذا المصطلح (المبني للمجهول) لا تعرفه مدونة العلم عندنا ، إنّما أقحم في لسان طلبة العلم من قبل المترجمات .
والغزو اللغوي لا يقل خطراً عن الغزو الفكري والأخلاقي ، وقد يجتمعان كما في الإعراب عن سيدنا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ بأنه « الإمام علي » هذا غزو لغوي وعقدي ، هذا معتقد رافضي ، وأهل السنة والجماعة لا يقولون بالإمامة التي يقول بها الرافضة الصفوية ، فاحذر وأنت الطالب علمًا صفيا نفيعًا أن يجرى على لسانك كلمٌ هو قذائف باطل على قلبك لتكون من الضالين ، لا تفتحن أذنيك لكل ناعق ناهق ناغق .

وحـال المـرأة أقـوى في المشـاحة لأنـّها لا تسـمح بمـا لهـا في علاقتهـا بزوجها إلا إذا كانت محمولة على ذلك حملا ، وهذا مما يحمل مـن كانـت الرجولة فيه فتيةً نقيـة ألا يحملـها إلى أن تتنـازلَ عـن حقّهـا ، وقـد صـحبته أعوامًا ، يستبقِيها على علاتها ، تلك أخلاق الرجولة النقاء .

يقول الزمخشري : « ومعنى إحضار الأنفس الشح ، أن الشح جعل حاضرا لها لا يغيب عنها أبداً ولا تنفك عنه ، يعنى أنها مطبوعة عليه ، والغـرض أن المرأة لا تكاد تسمح بقسمتها وبغير قسمتها ، والرجل لا تكاد نفسـه تسـمح بـأن يقسـم لهـا وأن يمسـكها إذا رغـب عنهـا وأحـب غيرهـا ، وَإِنْ تُحْسِـنُوا بالإقامة على نسائكم وإن كرهتموهن وأحببتم غيرهن ، وتصبروا على ذلـك مراعـاة لحـق الصـحبة وَتَتَّقُـوا النشـوز والإعـراض ومـا يـؤدى إلى الأذى والخصومة ، فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِمـا تَعْمَلُـونَ مـن الإحسـان والتقـوى خَبِيراً وهـو يثيبكم عليه » [1].

ولمّا كان الشحّ جبلة في النّفس البشرية ، وكان السبيلُ إلى اتقاءِ ضُرِّه هو التَّثقيف والتّرويض ، والحمل إلى الحُسْنَى جاء قوله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ : ﴿ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (النساء:١٢٨) في هذا إغراءٌ بالانتقال ممّا جبلت عليْه ، وهو لها مفسد إلى ما هو الأعلى والأولى ، إلى الإحسان ، بكلّ ما تحملُه الكلمة من معانٍ تبتهج بها ولها النفسُ السوية ، دعوة إلى الإحسان إلى النّفسِ التي جبلتْ على الشح بأن نأخذ بيدها في رفق وحزمٍ إلى الحسنَى ، ودعوة إلى الإحسان إلى كلّ من عداها ، وأول ذلك الصَّاحبة التي أفضَى إليْها وأفضتْ إليْه ، وهذا يلفتنا إلى

---

(١) الكشاف عن حقائق غـوامض التنزيـل ، جـار الله الزمخشري : محمـود بـن عمـرو ابن أحمد ، (ت:٥٣٨هـ) ، ط . الثالثة ، دار الكتاب العربي ـ بيروت ، ١٤٠٧هـ . (٥٧١/١)



قوله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ : ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (البقرة:٢٣٧)

لنجعله عامًّا في علاقتنا بالإنسانِ كلّ الإنسان ، ولا نقيده بما جاء في سِياقِه[1] ، فهو من الكلياتِ القرآنية التي لا تنحصر فيما وردت فيه من السياقاتِ الإفهامية ، بل يُمكن أن تحمل إلى سِياقاتٍ أخر لما فيها من اتساع في معانِي الهدَى ، وهذا لا يعدّ من القراءة العِضين بل هو من قبيل تفعيل المحمول الكليّ الّذي يتسع فسطاطه إلى كثيرٍ من السّياقات والأحوال ، السياق هنا لا يحقق حصرًا للمعنى وتضييقًا ؛ هو هنا يحقق تثويرًا وتنويرًا وبسطا لفسطاط المعنى وتنوعه ، فمعنى المنطوق غير مأمور بما ورد فيه ، بل هو الآتي بسياقات أخر ، فهو مما يستزرع في كثير من أنواع الأرض ويستسقى بكثير من أنواع الماء ، ويمكنك أن تستقرئ كثيرًا من الجمل القرآنية التي يمكن زرعها في سياقات عديدة ، فتزهر وتثمر في كل سياق وفيرًا نضيرًا ، فاحرص وأنت الطالب علما أن يكون لك هذه المهارة في التلقي مهما .

وقد يبدو للنظرِ العَجلِ أن الأولَى أن يقدّم الحثّ على التقوى على الحثّ على الإحسان فيقال : « وَإِنْ تَتَّقُوا وتُحْسِنُوا» لِما أنّ « الاتقاء» يسبق

---

(١) جاءتْ هذه الكليّة القرآنية في سياقِ استحقاق الصداق لمن طلقت من قبلِ الدخول بِها ، وقد فرض لها صداق ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (البقرة:٢٣٧) فحسنٌ ألا تقصر هَذِهِ الكلية على هذا السّياق ، ففي هذا تعطيل لفاعليتها في الحياة ، وهذا التعطيل صورة منْ صُور الصّدّ عنْ سبيلِ الله سُبْحَانَهُ وتَعالَى .

«الإحسان» ، فهو في مدرج يسبق مدرج «الإحسان» الَّذي هو أعلَى مدارج الزّلفَى إِلى الله ـ سُبْحَانَهُ وتَعالَى ـ .

هذا الذي قد يتسارع إليه النَّظر العَجِل غير قويم ، التَّقوى الَّتي يحثُّ عليها هنا هو اتقاء التخلّي عن هذا الإحسانِ المغْرَى بِه ، فهو يحثُّ على الإحسان ثم يَحثّ على اتقاء ما يُمكن أن يشغل من ولج هذا المقام الأسنى والأسمى ، فيتنقصَ منه أو يتخلى عنه ، والمعنى وإن تحسنوا وتقيموا فيه متَّقين التخلي عنه أو عما ينقصه فيكم ، فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ، وهذا وجه من وجوه المعنى ، ولجمعٍ منْ أهل العلم مدخلُ آخر إليْه[1].

---

(١) يقول الطبري : «وأما قوله ﴿ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾ ، فإنه يعني : وإن تحسنوا ، أيها الرجال ، في أفعالكم إلى نسائكم ، إذا كرهتم منهن دَمامة أو خُلُقًا أو بعضَ ما تكرهون منهن بالصبر عليهن ، وإيفائهن حقوقهن وعشرتهن بالمعروف «وتتقوا» يقول : وتتقوا الله فيهن بترك الجَوْر منكم عليهن فيما يجب لمن كرهتموه منهن عليكم ، من القسمة له ، والنفقة ، والعشرة بالمعروف «فإن الله كان بما تعملون خبيرًا»، يقول : فإن الله كان بما تعلمون في أمور نسائكم ، أيها الرجال ، من الإحسان إليهن والعشرة بالمعروف ، والجور عليهن فيما يلزمكم لهنّ ويجب «خبيرًا»، يعني : عالمًا خابرًا ، لا يخفي عليه منه شيء ، بل هو به عالم ، وله محصٍ عليكم ، حتى يوفِّيكم جزاءَ ذلك : المحسنَ منكم بإحسانه ، والمسيء بإساءته «(جامع البيان في تأويل القرآن . أبو جعفر الطبري تحقيق : أحمد شاكر ٢٨٣/٩. ط : الرسالة .)
راجع معه إن أحببت «مفاتيح الغيب للرازي . ٢٣٧/١١، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز . أبي محمد بن عطية الأندلسي (ت : ٥٤٢هـ) تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد . دار الكتب العلمية ـ بيروت . ط . الأولى ١٤٢٢هـ ، ١٢٠/٢ تفسير القرآن العظيم ، أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت : ٧٧٤هـ) تحقيق : سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع . ط. الثانية : ١٤٢٠هـ ، ٤٣٠/٢ تفسير المنار ، السيد رشيد رضا . ٣٦٥/٥

في قوله تعالَى : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (النساء:١٢٨) ترغيب في أن يقيم الرجلُ في مقام الإحسان إلى صَاحبته ، فلا يكفحها بالنشوز أو الإعراض ، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعالَى خبير بما يعمله ، وهو أيضا مخبر به كاشفه إن لم يتب من سيئه .

وتقرير شمول علمه فيه تقرير عظيم مثوبته على الفضل ، كما أن فيه ترهيبًا من أن يرغب أحدهما عن الإحسان إلى الآخر ، فإنّه يلزم إحاطة العلم بما يعملان ، كمال قدرته على المعاقبة على ذلك ، فأولو الألباب يبتهجون في سياق صِناعة الخير بمثل قوله هذا مثلما يرتَعدون في سياق اجتراح ما لايُسْترضى بمثل هذا القول ، فهو من قبيل الإنباء عن اللازم بالملزوم .

يقول البيضاوي في تأويل الآية : «أقام كونه عالماً بأعمالهم مقام إثابته إياهم عليها الذي هو في الحقيقة جواب الشرط إقامة للسبب مقام المسبب»[(١)].

وفي هذا إبلاغٍ في تحقيقِ وقوعِ المسبب ، فإنّ مجرّد تحقّق السّبب لا يكون ثمَّ ما يمنعٍ من وقوعِ المُسبّب،وفي هذا تصوير لقوة فاعلية السّبب، وهو ملحوظٌ في عِظم مواقع إِقامة السّبب مقام المُسبّب ، فمن علم بالسّبب كفاه ذلك عن أن يخبرَ بالمسبّبِ ، وفي هذا من تعليم الأمّة أن تأخذَ بالأسباب المخلوقة لله ـ تَعالى ـ المشروع اتخاذها طاعة للأمر باتخاذها ، لا اعتمادًا عليْها ، فإنّها ليست بالفاعلة بذاتها ، وإلاّ لما تخلّف تحقّق المسبّب عند تحقق السببّ ، وكم منْ أسبابٍ كانَتْ الحاضرة الفتيّة ، ولم يترتَّب عليْها

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، القاضي البيضاوي : عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت : ٦٨٥هـ) تحقيق : محمد عبد الرحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت . ط . الأولى ١٤١٨ هـ . ٢/١٠١ .

شيءٌ من المُسبّبات ليَبْقى العبدُ معقودًا قلبُه بخالقِ الأسباب الآمر باتخاذها اتخاذا أجردَ مِن الاعتمادِ عليها مِن دون الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ .

ومِمّا يحسُن بطالبِ العلم ببلاغة بيان الوحي قرآنًا وسنة أن يعنى بالالتفاتِ إلى البعد التثقِيفيّ التَّرْبويّ في اصطفاء هذا البيان العدول عما هو متوقع أو معهود الإبَانة به إلى وجهٍ آخر ، فالعدولُ عن ذكر المسبّبِ إلى السببِ مثلا ، أو العدول عن البناء للفاعلِ إلى البناء إلى غير الفاعل أو العدول عن التذكير إلى التأنيث وعكسه .... كل هذا إنّما هو سبلٌ إلى تحقيق تثقيفِ النفوسِ وتربيتها ، والأخذ بِمن يُحسن التلقّي عن بيان الوحي إلى ما هو الأجمل والأكمل ، أما الاشتغال فقط بالأبعاد الأسلوبية الفنية الصرفة وما في ذلك من إمتاعٍ نفسيّ ، فذلك ليس منْ حِلية طالبِ العلمِ ببيان الوحي ، فالله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ أجلّ من أن يجعلَ مصطَفاه من أساليب الإبانة خلاءَ من التّثقيف والتّربية والتزكية النّفسية والروحية. يقول الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ:

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴾ (الصافات:٦،٧) ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (فصلت:١٢) أرأيت كيف لفتك إلَى الجمْع بين أمرين : (الزينة ، والحفظ/ المتعة والمنفعة) تصاعد بك من الزينةِ إلى المنفعة ، ليحملَك إلى أن تستخرج من زينة الله منفعة ، ولتستخرج من عمل الدنيا نفعك في الآخرة ، ولتسْتخرج من حظ نفسِك وشهواتك حظ عقلك وقلبِك وروحك ، من لم يفعل فقد غبَن نفسه .

روى مسلم في كتاب (الزكاة) من صَحيحِه بسندِه : عَنْ أَبِى ذَرٍّ أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِىِّ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِىِّ ﷺ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ

بِالأُجُورِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّى وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ . قَالَ : «أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ وَنَهْىٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ وَفِى بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ» . قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَيَأْتِى أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ ؟ قَالَ : «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِى حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِى الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ».

ليست هنالك في بيان الوحي متعة خلاء من منفعةٍ ، وفي كلّ منفعة فيضٌ من المتعة لأولي الألباب ، واستحصاد ذلك هو مشغلةُ العقلِ البلاغيّ العربي النافر من فرية «الفن للفن» و«العلم للعلم» و«العبادة للعبادة» . . . ليس هنالك شيءٍ لنفسِه ، كلّ شيءٍ هو لغايةٍ هِي الأجلّ .

* * *

ولمّا كان شأنُ الرجل مهما بلغ به الحذر والورع في شأن العلاقة بأزواجه العجزَ عن تحقيق العدل المطلق ، أبان الله ـ سُبْحانَهُ وتَعالَى ـ عن إعذارهم ، لفتًا لأزواجه عن وجوبِ إعذاره لأن ذلك خرج عن طوقِه ، ولا يكلف الله ـ تعالَى ـ نفسًا إلا وسعها ، وإلا ماآتاهها فقال ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء:١٢٩)

في هذا البيان ما يَحمل الرّجال على أنْ يستجيروا بالله ـ تعالَى ـ ممّا يقيمهم في مقامِ العجز عمّا هو الفضِيلة مع الضعفاء ، ولا يأخذُ بالرّجل الحقّ شيءٌ كمثل شعورِه بالعجزِ عن أن يمتطيَ فضيلةً من الفضائل ، هنالك يشعرُ الرّجل بشديدٍ من الأسَى مِن عجزه .

أقامه الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ في هذا المقام ليربطَه بالاستعانةِ بحوله ـ تَعَالَى ـ وبِقوتِه ، فيعلم الرّجلُ أنّه حين جعل قوامًا ، فما هُوَ بالمقتدر بنفسِه على كلّ شيءٍ ، فلا يتسربُ إلى نفسِه شعورٌ بالفوقية .

ومِن ثَمّ صدّر البيان بهذا الحرف الفتيّ صوتًا القاطع دَلالة (لن) ولم يدخله على فعل العدل : لم يقل : «لن تعدلوا» ، بل قال : ﴿ لَن تَسْتَطِيعُوٓاْ ﴾ نفى الاستطاعة ، وكأنَّ هنالك محاولاتٍ جادةً لتحقيقِ العدالة المطلقة ، فهذه العدالةُ المطلقةُ لا يُمكنُ لغير الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ أن تكونَ منه ، وجاء بمعمول الفِعل المنفيّ (تسْتطيعوا) مصدرًا مؤولاً ﴿ أَن تَعْدِلُواْ ﴾ لمْ يقلْ : لنْ تستطيعوا العدالة ، بل قال : (أن تعدلوا) ليبرزَ عُنصر التّجدد ، والتنوع وفق السياقاتِ والقدرات ، فالفِعلُ : ﴿ أَن تَعْدِلُواْ ﴾ يحمل إنباءً بالتّحديثِ والتَّجدّد والاستمراريّة ، وكأنّه ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ يقولُ لنا مهما استفرغْتم جُهدكم ، في إيجاد مناهجَ وأدواتٍ ، واتخاذ إجراءاتٍ متميزةً لتحقيق هذا العدلِ المُطلق لا بيْن العباد جميعًا ، بل بيْن أزواجكم اللائي لا يتجاوز عددهُنَّ للواحد أربعًا ، فلن تسْتطيعُوا .

من عجز عن أن يحقق العدل المطلق بيْن أربعٍ ، فكيف يستطيع أن يحققه بيْن غيرهن إِذًا ما كثرن . ؟

إنه ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ يقِيم الرّجال مقام «العجز» ليستبقِيَهم في مقام العبوديةِ له ـ جَلّ جَلالُهُ ـ ، يطعمُهم هذا الغِذاء ، (غذاء العبودية النقاء) ويسقيهم هذا الشّفاء ، نَعَم الشفاء ، وليس الدّواء ، فصفاء العبودية غذاء ليس كمثله غذاء ، وشفاءٌ من كل داءٍ ليس كمثلِه شفاء . .

وقد كان أكرم خلقِ الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ يعدل بيْن نسائه على نحو لا يكونُ لغيره ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ روى أبو داود في كتاب (النكاح) في سُننه بسنده عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا ابْنَ أُخْتِى ، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لاَ يُفَضِّلُ بَعْضَنَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْقَسْمِ مِنْ مُكْثِهِ عِنْدَنَا وَكَانَ قَلَّ يَوْمٌ إِلاَّ وَهُوَ يَطُوفُ عَلَيْنَا جَمِيعًا ، فَيَدْنُو مِنْ كُلِّ امْرَأَةٍ مِنْ غَيْرِ مَسِيسٍ حَتَّى يَبْلُغَ إِلَى الَّتِى هُوَ يَوْمُهَا فَيَبِيتُ عِنْدَهَا وَلَقَدْ قَالَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ حِينَ أَسَنَّتْ وَفَرِقَتْ أَنْ يُفَارِقَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، يَوْمِى لِعَائِشَةَ ، فَقَبِلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا قَالَتْ نَقُولُ فِى ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ ـ تَعَالَى ـ وَفِى أَشْبَاهِهَا أُرَاهُ قَالَ: ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا ﴾ .

ومن أهلِ العلمِ من ذهبَ إلى أنــه ـ صَلّى اللهُ عَلَيْـهِ وَعَلَى آلِـهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ كان يقعُ منه بعضُ المَيل النفسيّ الفطريّ لسيدتنا أمّ المؤمنين عائشة ـ رَضِيَ اللهُ عَنْها ـ ، الذي لا أثر له في الوفاء بحقّ كلٍّ من أزواجــه ـ رَضِــيَ اللهُ عَنْهنَّ ـ ، وما ذلك إلا نزولاً على فطرته البشرية «المُحمدية»

روى الأربعة في سننهم ، وأحمد في مسنده ، والدارمي في سننه بسندهم عَنْ أم المؤمنين عائشة ـ رَضِيَ اللهُ عَنْها ـ أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ كَانَ يَقْسِمُ بَيْنَ نِسَائِهِ ، فَيَعْدِلُ ، وَيَقُولُ : «اللَّهُمَّ هَذِهِ قِسْمَتِى فِيمَا أَمْلِكُ فَلاَ تَلُمْنِى فِيمَا تَمْلِكُ وَلاَ أَمْلِكُ» . (النّصّ للترمذيّ في جامعه ، وضعفه في الأربعةِ الألباني) واستصوب أهل العلم أنـه مرسلٌ)[1]

---

(١) يقول شعيب الأرنؤوط : «هذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة ـ وعبد الله بن يزيد ـ وهو رضيع عائشة ـ فمن رجال مسلم ، وأخرج البخاري =

يقول أبو جعفر الطحاوي : «فَتَأَمَّلْنَا مَا فِي هَـذَا الْحَـدِيثِ ، وَمَـا الْمَعْنَـى الَّذِي قَصَدَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ بِقَوْلِهِ : «اللهُمَّ هَذِهِ قِسْمَتِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلاَ تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلاَ أَمْلِكُ» ، وَهُوَ غَيْـرُ مَلُـومٍ فِـي ذَلِـكَ إِذْ كَانَ ذَلِكَ مِمَّا لاَ فِعْلَ لَهُ فِيهِ ، فَكَانَ مَعْنَى ذَلِـكَ عِنْـدَنَا ، ـ وَاللهُ أَعْلَـمُ ـ عَلَـى الإِشْفَاقِ وَالرَّحْمَةِ مِنْهُ ـ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ـ مِنَ اللهِ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَلِمَ مِنْهُ فِي قِسْمَتِهِ بَيْنَهُنَّ ، وَإِنْ كَانَ لَمْ يَخْرُجْ فِيهَا عَنِ الْعَدْلِ مَيْلاً مِنْ قَلْبِهِ إِلَى بَعْضِهِنَّ بِمَـا لَـمْ يَمِلْ بِمِثْلِهِ إِلَى بَقِيَّتِهِنَّ ، وَذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ وَمِمَّا الْعِبَادُ فِيهِ سَوَاءٌ كَمَا قَدْ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فِي التَّحْذِيرِ مِنْ مِثْلِ ذَلِـكَ . . . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ـ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ـ : «مَنْ كَانَتْ لَـهُ زَوْجَتَـانِ فَكَانَ يَمِيلُ مَعَ إِحْدَاهُمَا عَنِ الأُخْرَى جَـاءَ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَحَـدُ شِـقَّيْهِ مَائِـلٌ ، أَوْ قَالَ : سَاقِطٌ»(١)

=لحماد تعليقاً ، وقد أخطأ حماد بن سلمة في وصله ، والصواب أنه مرسل ....»(هامش مسند أحمد بتحقيق شعيب الأرنؤوط مسند الإمام أحمد بن حنبل . إشراف : دكتور عبد الله ابن عبد المحسن التركي . مؤسسة الرسالة . ط. الأولى عام : ١٤٢١هـ (حديث رقم : ٢٥١١١)

(١) رواه ابن ماجه في كتاب (النكاح) من سُننه . صححه الألباني في إرواء الغليل (رقم ٢٠١٧) ، وفي التعليقات الحسان (رقم : ٤١٩٤) وصحيح أبي داود (١٨٥٠) وصحيح الجامع الصغير (رقم : ٦٥١٥)

قوله : «فكان يميل مع إحداهما عن الأخرى» إنما يراد به الميل غير النفسى أى الميل العملى قولاً أو فعلا ، كأن يكلم هذه بصوت خفيض أنيس وهذه بصوت مرتفع وحيش أو يكلم هذه ناظراً في وجهها وأخرى غير ناظر .

وَقَدْ رُوِيَ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِ اللهِ ـ تَعَالَى ـ : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ (النساء:١٢٩) . أَنَّ ذَلِكَ أُرِيدَ بِهِ مَا يَقَعُ فِي قُلُوبِكُمْ لِبَعْضِهِنَّ دُونَ بَعْضٍ ، وَذَلِكَ مَعْفُوٌّ لَهُمْ عَنْهُ إِذْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ دَفْعَهُ عَنْ قُلُوبِهِمْ ، غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ مَا يَجْتَلِبُوهُ إِلَى قُلُوبِهِمْ ، فَكَانَ الَّذِي كَانَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ـ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ـ مِمَّا أَرَادَهُ مِنْ رَبِّهِ عَلَى الإِشْفَاقِ وَعَلَى الرَّهْبَةِ مِمَّا يَسْبِقُ إِلَى قَلْبِهِ مِمَّا قَدْ يَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْهُ مَعَ قُرْبِهِ مِنْ غَلَبَتِهِ عَلَيْهِ .

وَهَذَا عِنْدَنَا ـ وَاللهُ أَعْلَمُ ـ مِثْلُ الَّذِي فِي حَدِيثِ حُصَيْنٍ الْخُزَاعِيِّ مِمَّا قَدْ عَلَّمَهُ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ إِيَّاهُ أَنْ يَدْعُوَ بِهِ رَبَّهُ ـ تَعَالَى ـ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ مَا أَخْطَأَ ، وَمَا تَعَمَّدَ ، وَمَا أَخْطَأَهُ فَهُوَ غَيْرُ مَأْخُوذٍ بِهِ لَمَّا خَافَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ تَقَرُّبُهُ مِمَّا تَعَمَّدَهُ»[1].

قلت إنّه ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ حين ينبئ بأنّ الرّجال عاجزون عن أن يعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ عدلا كاملاً ، وَلَوْ حَرَصوا ، فإنّه بذلك لا يمنحُهم رخصة في أن يتزرَّعوا بهذا في اقترافهمْ عدمَ العدل بيْن أزواجهم ، فمن يَسحبُ العجز عن العدْل على كلّ أنحاء العلاقة وأنواعها بين الزّوجين ، ويقول إن الله ـ تَعَالَى جَلُّهُ ـ أخبَر أنّا لا نستطيع أن نعدل بين أزواجنا ، فإنَّ ذلك منه تدليسٌ مقيت ، وتحريف للقول عن مواضِعِهِ .

نفي استطاعة العدل المطلق بين النساء (الأزواج) هو خاص بما لاطاقة للعبد على أن يتحكم فيه : الموقف الشعوري فحسبُ ، دون الإخلاد إلى

(١) شرح مشكل الآثار . أبي جعفر الطحاوي : أحمد بن محمد بن سلامة ابن عبد الملك بن سلمة الأزدي المصري : (٣٢١هـ) تحقيق : شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة . ط. الأولى ١٤١٥هـ ١/٢١٦ .

ذلك من دون مقاومةٍ ، فالذي يبتلَى بالميل النفسيّ - النفسيّ وحده - إلى إحدى أزواجه ، عليْه ألا يستسلم لذلك ، عليْه أن يتحاجز عن كلّ ما يعزّز ذلك ويذكيه ويثوّره إلى ما يُزكيه ويطهّره ، ومِن ذلك الاستجارة بالله - تَعَالَى جَدُّهُ - . من أن يقيم في ذلك مقامًا مكينًا ، ومن ذلك أنْ يحرصَ على استحضار الفضائل الأخر التي تحملها تلك التي لا تميل إليها نفسُه ، كمثل ميله إلى الأُخرى ، فيراها في أجلّ وأجمل مواقفها معه ، فإذا ناظر ذلك بما عند التي تميل إليها نفسه ميلا أقوى من الأخرى ألفاها مفتقرة إلى غيرِ قليلٍ من الفضائل المتكاثرة عند الأخرى ، حينذاك يقلل من قوة الشعور بالميل عن تلك الّتي لا تميل إليها نفسُه ميلاً فتيًا .

وهذا يقيه من أن يتطور الميل النفسي المعفو عنه بعجز إتقانه إلى أن يحوم حول حمى الميل قولاً وفعلا فيقع فيه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، فتكون التي لا تحمد عقبى .

روى الإمامُ مسلمٌ فِي كتابِ «الرّضاع» منْ صَحيحِه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - : «لاَ يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِىَ مِنْهَا آخَرَ» . فليس هنالك زوج هي الخلاء من كل فضيلة ، وليس هنالك زوجٌ هوالكمال في الفضائل ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ (الإسراء: ٢٠، ٢١)

تأمل قوله : «إن كره منها خلقًا ... إلخ» هديه إلى أن يقوم الروح مقام العدل في الرؤية ، فلا يغفل عن ما يكون حاضرًا في الأخرى ، فإنه إن غفل

عن ذلك كان هذا من الميل العملي ، لأن يذكر محاسن وفضائل واحدة ، والغفلة عن تذكر محاسن وفضائل الثانية إنما هو من الجور التي لا يليق به رجلاً ، فكيف بمن كان مسلمًا وجهه في جميع أمره لا يكون منه قول أو فعل إلا وهو ناظرٌ إلى ربه ـ تعالى ـ .

ليس من الرّجولة النقاء أن يستسلم الرّجل للبواعث النّفسية المائلة بِه إلى إحداهنّ ، بدعوَى أنّ ذلك ليس في يده ، فيوقع ذلك في شيءٍ من ظلمها ، فيجوز من دائرة المعفو عنه ، فيتردّي في هاوية ما حرّم الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ .

في يدك ـ أيّها الرّجل ـ إن أردت أن تحدّث تعديلا في قوة هذا الميل ، وذلك باللّجوء إلى الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ أن يقيمك على الجادّة ، وباستحضار محاسن الأخريات وفضائلهنّ ، ولا سيما تلك التي لا تتوفّر عند الّتي إِليها مالت النفسُ ، المهمّ ألا يستكين الرّجل متسترًا بأن الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ قال : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ (النساء:١٢٩) فإن عليْه أن يغرسَ بصيرته في قوله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ بعد ذلك ﴿ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ (النساء:١٢٩) ، ففي هذا دعوة إلى أن يتخذَ الرّجال عدّتهم وعتداهم في الاتقاء من هذا الميلِ المنهِيّ عَنْه ، فإذا لم يفعل على الوجه الذي ذكر أو نحوه أو أفضل منه ، فإنّه الذِي أخلد إلى مالا يليقُ به رجلاً ، فَليس من حليته رجلاً عَدم الإحسان إلى من أفضت إليْه وأفضى إليها .

إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرَّحمن يقلبُها كيف يشاء ، روى التّرمذِيَ في كتاب (القدر) من جامِعِه بسَنَدِه عَنْ أَنَسٍ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ : « يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِى عَلَى دِينِكَ » .

فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا قَالَ : « نَعَمْ إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ ».

فاسْتَجْدِ اللهَ ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ أن يقيم قلبَك على الجادَّة مع الناسِ عامّة ، ومع أزواجك خاصّة . في قوله : « إن القلوب ... » تحذير بالغ من أن يطمئن العبد إلى ما قد يكون منه من اجتهاد في العبادة فيظن ضمان حسن الخاتمة ، وبذلك يهديه سيدنا رسول الله ﷺ إلى أن يتبرأ من الحول والقوة ورؤية العمل ، وأن يكون العائذ بالله ـ تعالى ـ من رؤية عمله فيعتمد عليه فيطرحه ويرديه في بئس الميعاد .

وفي قوله تعالَى : ﴿ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ (النساء:١٢٩) إنباء بأنّ المنهِيّ عنْه الإغراق فِي الميلِ النفسيّ إلى واحدة دونَ الأخرى والاستسلام له ، واستلذاذه الانتصارَ للنفسِ ونحو ذلك ، فإنّ الميلَ كلَّ الميل أو عُظمَه إنما يكون عن سابقة تعمّد وتربّص ، وترصّدٍ وتخطيطٍ ، واتخاذ عدَّة ، ومن فعل فَقَدْ فَقَدَ من رجولتِه ما لا يكونُ عودُهُ إلَيْه ميسورًا ، إن لم يكن قد خسرَ الرجولة الصّفاء جميعَها ، وليس في قوله : ﴿ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾ تشريع لبعض الميل ، بل هو تصوير لما جبل عليه المرء من العجز عن تحقيق كمال العدل في الجوانب كلها ، مما يجعله دائمًا مستشعرًا التقصير في ذلك ، مما يحمله على ديمومية المراقبة والاستغفار واليقين بأن ثمَّ تبعات عليه ، وأن يبقى دائمًا في مقام الخوف ، فترسخ قدمه في مقام العبودية الصفاء .

لا أعرف رجلاً ذاق طعم الرّجولة النقيةِ يُمكن أن تحدثه نفسُه الأمارة بالسوء أن يتربصَ بزوجه ليوقع عليْها ضُرًّا مهما كان منها . ﴿ فَإِمْسَاكٌۢ

بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ (البقرة:٢٢٩) فالسّعي إلى أن يقيم الرّجل زوجَه كالمعلقة إن كان له مسكة من عقل ، لعلم أنّه إنّما يُعاقب نفسه قبل أن يعاقبها ، فهو بهذا ينتهك رجولته ، بل إنّ انتهاكه لرجولته لأشدّ ممًّا يقعُ عليها ، ولعلم أنها ستكون حينئذ مظلومةً مفتّحة لدعائها أبوابُ السّماء ، هو يفقد من رجولته أولاً ، ويقيم نفسَه في مقامِ الظلوم الغشوم ثانيًا ، وتلك الّتي لا يشتريها عاقلٌ بملءْ الدّنيا مَتَاعًا ، كان قومى في صعيد مصر يوم كان الصعيد صعيدًا طيبا لا صعيدًا زلقا يستنكف الرجل من أن يقتصَّ أو ينتقم من امرأة مهما فعلت ، وإن قتلت عمدًا ، إنما يفعل ذلك مع وليها لأنه يراها أضعف من أن يقتص منها أو ينتقم ، وهو رُجُولةً لا يقتصّ إلا من الأقوياء كذلك كانوا ، أما اليوم فقد بات ذلك خبرًا يروى ويتأسف عليه لما صنعته فيهم وسائل الإعلان والتوصيل أو الأذرع الإعلانية الممتدة بزرع الشر في الصدور ووأد مقومات الرجولة ، كيما يتمكن الطغاة من القبض على الرقاب ، والإعراب بقوله ﴿ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ (النساء:١٢٩) يصور لك عظيم الضرّ الذي يقع على الزوج من الميل عنها ، وقوله (تذروها) دون تدعوها أو تتركوها ، فيه إشارة إلى غرابة الفعل وأثره ، فهو فعل غريب في الاستعمال ، وفي تشبيهها بالمعلقة تصوير لحرمانها مما هو حق لها ومنع لها ، مما يجب لها ، فالتعليق فوق ما فيه من محاجزة فيه من الإهانة ما لا يليق برجل أن يوقعها على امرأة ، فكيف بمن أفضت إليه وأفضى إليها ، وبينهما ميثاق غليظ .

وجاء بختام كمثلِ ختام السّابقة في نظمها وبعض كلمها ﴿ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء:١٢٩) مصطفيًا الدّعوة إلى

الإصلاح والتَّقوَى ، ذلك أنّ سباق الفاصلة هنا حديث عن عجز عن الوفاء بِكمالِ العدل بيْن الأزواج ، فناسبه الدعوة إلى الإصلاح : إصلاح ما بينهنّ من جهة ، وما بين الرجلِ وبيْنهنّ من ثانية ، وإصلاح حال الرّجل مع نفسِه المائلةِ إلى إحداهنّ من ثالثةٍ . . . ونسابه الدّعوة إلى التّقوى : التّقوى في عمومها ، والتّقوى فيما له السّياق من الإصلاح الذي أشرتُ إليْه قبلُ بأن يتّقَى النكوصَ عنه أو التقصير فيه أو الاستهتار في الميل ، أوترك مدافعته ما استطاعَ إلى ذلك سبيلا .

وكان جزاء الشرط قوله : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء:١٢٩) ليمتلئ قلب الرجل بالرّجاء في أن ينجو منْ تبعة ما حملته عليْه نفسُه من الميل المعتدل المطاق إلى إحداهن ميلاً شعوريًّا ، لا قبل له بضبطه ، لا ميلاً سلوكيًّا يملك ضبطه .

ولمّا كان الميل عنها إلى أن يجعلها كالمعلقة ممًّا لا يليق به رجلاً قوامًا ، ولا يليقُ بها صاحبة أفضت إليْه بما لم تفض به إلى أبيها ، وأخيها ، أشار إلى أن يسلكا ما هو الأعلى من ذلك إنْ كانا لا يملكان صفاء المعايشة : أن يسلكا سبيل المفارقة بالحسنَى ، وأن سلوكهم ذلك السبيلَ قد يكون أيسرَ وأجودَ بالفضل من المشاقّة في الصُحْبةِ ، فقال ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ : ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ١٣٠) في الإنباء بـ (إنْ) دلالة على تعليق الجواب على وقوع الشرط ، وليس فيه إشارة إلى حكم بقلة الوقوع أو كثرته أو الشك فيه أو تحققه ، لا تعدو دلالة (إنْ) الشرطية ربط الجواب بالشرط على سبيل الترتيب في الوقوع ، فهي أداة ربط وتعليق ليس إلا .

وفي الإعراب بقوله : ﴿ يَتَفَرَّقَا ﴾ مادة وصيغة دلالة على أنهما كانا قبلُ مجتمعين ، وكان بمقدورهما تحقيق ذلك ، فطرأ ما أصاب هذا الاجتماع ، فحسُن البحثُ عمَّا طرأ ، ففرق لمحوه وبقاء الاجتماع على ما كان ، فهو الأصل ، ونسب الفعل إليهما ﴿ يَتَفَرَّقَا ﴾ إشارة إلى أن ذلك لابدّ أن يكون صادرًا منهما لا مكرهًا أحدهما عليه ، فدلَّ بذلك على ما يسْتبقي ما بينهما ، وفي هذا من التّأديب والتَّربية والتّثقيف ألا يمضي الزَّوجان في المُشاقة ، إذا لم يكن سبيلٌ إلى حُسن المعاشرة ، والتّأدب بقول الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾(النساء:١٩) فالمفارقة بالحُسنى خيرٌ من البقاءِ مع المشاقة، وهذا من جليل التّيسير على العباد ، أمَّا أن يبقيا على المُشاقة في الصُحبةِ ولا يركبا سبيلَ المفارقة بالحُسنى ، ففيه من التمزّق الاجتماعي ما فيه ، وكمْ من زوجين تفارقا بالمعروف ، ويبقي كلٌّ يذكرُ صَاحبه لأبنائهما وأهليهما بخيرٍ ، بيْنا غيرهما بقيا معا على المشاقة والمناكدة ، فلم تسْتقم لهما الحياة .

إن تشريع المفارقة (الطلاق) بالحسْنَى بيْن الزوجين لهو نعمةٌ من نعم الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ تستوجبث الشكر ، هو من سبلِ الإصلاح الاجتماعي القويمة التي لا يتأتى لمجتمعٍ يريدُ سلامه الاجتماعي أن يعرض عنها عند الضّرورة القصْوى ، وعجيبٌ أن يكون من المشروع عندهم بتر أجزاء من جزء المريض لتسلم بقيته ولو سلامة لا يتحقق معها سوى البقاء حيًّا يتردّد الهواء في صدره ، ولا يرون هذا في المفارقة بالحسنى بين الزوجين لتبقَى الأسرة في سلامها الاجْتماعِي والنفسيّ ، وكأنّهم لا يعارضون المفارقة بالحُسنى بيْن الزّوجين إلا منْ أنّها شرع الله ـ تعالَى ـ .

وتبصر قوله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ : ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ١٣٠) كيف أنّه وعدَ جَلّ جَلالُهُ بإغناء كلّ من سعتِه ، فأدخل في قلب كلٍّ أنَّ هذا الذي ركباه من المفارقة بالحُسْنَى ضرورة ، لن يكون من ارتكابه ما لا يطاق ، لأنّهما ما تفارقًا إلا دفعًا لمضرة أعظم من المُصاحبة على المشاقة ، وفيه أيضًا إقامة للطمأنينَة في قلبِ كلٍّ ، ولا سيّما المرأة أن المصاحبة ليستْ هي السبب الرّئيس في حسن الكفاية والغناء ، فذلك له ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ ، فهو المقتدِر على أنْ يُغنِي كلاً منْ فضلِه إذا ما التزم بتأديبه ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ ، ولمّا قال جَلّ جَلالُهُ ﴿ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ بعث فيضًا من الطمأنينَةِ في القلوب ، وصرفَها إلى التعلّقِ به ـ جَلّ جَلالُهُ ـ ، فقطع عن القلوبِ تعلّقها بالأسباب على أنّها الفاعلةَ ، تطهيرًا لنعمة « العبودية » لله ربّ العالمين .

وحين يُجرّد العبدُ قلبَه من ملاحظة الأسبابِ ، ومِن الظنّ أنّها هي المُوجِدة للمسبَّباتِ بذاتِها ، يكونُ له من ذلك ما يجعلُه مقيمًا في مِحرابِ العبوديّة الصَّفاء ورياضِها الغنّاء . .

وفي ختم الآية بهذه الفاصلة ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ١٣٠) تقريرٌ لهذا في القلُوب ، وفي الإعراب بالفعلِ (كان) تأكيدُ العلمِ بهذه الصِّفات علمًا يُثمِر يقينًا شُعوريًا يُفعم القلبَ ، فلا ينشغلُ إلا بما أمرَ الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ الانشغالَ به ، من حضور جلال ألوهيته ، وجمال ربوبيّته ، وكمال صفاتِه ، وتنزهه عن كل نقصٍ ، حضورًا متحققًا في جميع ظاهرنا وباطِنِنا وجميع أمرنا ، حضورًا يضبطُ حركَتنا في مسيرنا إليْه ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ .

وفي الجمعِ بيْن الاسمين (واسع) و(حكيم) هداية إلى أنّه لا يمْنحُ من فضلِه على قدرِ وسعه ، وإنّما هُو يمنحُ على قدر ما ينفعُ مَن أرادَ به خيرًا ؛ لأنّه أراد أن يكونَ لله ـ تعَالى ـ عبدًا قانتًا ، فما عليَّ إذا ما أردْتُ أن يفيضَ الله الواسعُ عليَّ من وُسعه ما يَنفَعُنِي فِي مسيرِي وَمصِيري إلا أن أكون عبدًا له ـ تعالَى ـ قانتًا مُحتسِبًا ، ونظم هذه الفاصلة من فرائد القرآن ، لم يرد في موضع آخر ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ١٣٠) جامعًا بين « واسعًا » و« حكيمًا » والإعراب بـ « كان » ورد اسمه « واسع » في سبعة مواضع مقرونًا باسمه « العليم » وفي هذا الفرق بين اسمه « الواسع » و« الحكيم » في هذا الموضع ، اقترانه بالعليم هادٍ إلى أنه ـ تعالى ـ إنما يجود بواسع فضله عن كمال علمه بالمستحقه ، واقترانه بالعليم هنا هادٍ إلى كمال حكمته في جوده بذلك الفضل الوسيع ، فهو يجود بما يصلح لا بما لا يصلح ، وفي هذا تثقيف لكلٍّ أنه إن جاد على أحدهما بما هو دون ما جاد به على الآخر بعد تفرقهما ، فإنما ذلك عن حكمة اقتضت ما هو صالح لكل ، فلا ينفس أحدهما على الآخر ، ولا يشمت به .

وكَم هُو جوادٌ بالتثقيف والتَّحفيز إردافُ هذه الأحكامِ بقوله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ

فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾

(النساء: ١٣١-١٣٦)

وما أنت بحاجة إلا أن تتلبث وأنت تتلو هَـٰذِهِ الآيات وتردّدها في سمعك وقلبِك ، لترى ببصيرتُك ما فيها من توطين معنَى اليقين بما عند الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ لك إنْ أَنت كنت له ولم تكن لغيرِه .

هو إنّما يريدُك في جميع أمرِك وشأنك أنْ تكون له وحده ، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ (الذاريات: ٥٦-٥٨) ليكون لك كلُّ شيْءٍ هو لك نفيعٌ ، فإنْ فعلتَ سخَّر لك ما في العالمين تسخيرَ تهيئة ، وتسخير استجابة وطاعةٍ لِمرادك الذي يرضاه الله ـ تعالَى ـ .

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن

تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ (النحل:١٠-١٩)

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية:١٢،١٣)

وإذا ما كان قد كثر امتنان الله ـ تعالى ـ بتسخيره ما خلق لنا في مواضع عدة من كتابه ، وكان هذا التسخير نعمة منه فحق هذه النعمة أن يشكر المنعم بها علينا شكرًا عمليا بحسن استثمارها في ما يرضيه ـ تعالى ـ ، وأن يرى أثر هذه النعمة فينا وعلينا ، وهذا يستوجب علينا الاجتهاد في تحقيق الأسباب والأدوات التي تفعّل بها ذلك التسخير في حياتنا ، وأن نجتهد في تحقيق المنهج العلمي والعملي الأمثل ، وفي تهديم عوائق حسن هذا الاستثمار وديموميته شموله ، وهذا وحده علم جليل وحمل ثقيل وعطاء نبيل ، ولهذا قال ـ تعالى ـ في آيات التسخير : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(الرعد:٣)، ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة:١٦٤)، ﴿ لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (النحل:١٣) ، وقال : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة:٥٢) فأوجب التحلي بمهارة التفكر والتعقل والتذكر ، وكلها مهاراتٌ علمية وعملية من قصر في تحقيق كمالها وتمكنها فيه ، وتمكنه هو منها وفيها فقد أوقع نفسه بنفسه في العجز عن القيام بفريضة الوفاء بحق الشكر العَملى لهذه النعمة الجليلة في ذاتها وفي أثرها فينا .

* * *

فاصلة
تحرير المرأة المسْلِمة

لقيتْ الدّعوةُ إلى تحريرِ المرأة عناية وافية من كثيرٍ من أهلِ النَّظر ، ومنْ دعاةِ الإصلاح الاجتماعيّ .

وكلُّ دعوةٍ إلى تحريرِ الإنسان إنّما هي دعوةٌ تحتاجُ إلى تَبْيين مفهوم « التحرير » ، وبيان ما يرادُ التحرّرُ منه وبيان المَرمَى مِن وراءِ التحرّر ، ثمَّ كيفية تحقِيقِ ذلك التّحرّر ، فهذه دعوة لا تردُّ ردًّا مطلقًا ، كَمَا لاتقبلُ قبولاً مطلقًا ، بل لابدّ من تبْيين ما يقبلُ ، وما يردّ ، ومقتضِيات القبولِ ومقتضِياتِ الرّدّ ، كيما لا يَقْفُ المرْءُ ما ليْسَ له به علمٌ محقَّق موثّق معلومٌ مخرجُه ومدخلُه ، ومبصَرٌ منتهى السَّعيِ إليه .

والّذي هو محطّ النّظرِ في سياق القولِ في هذا الجزْء (الرّسالة) الذي عقدتُه لبيان علاقة الرَّجلِ بالمرأة قوّامًا عليها رعايةً وحماية ، كما هدَى إليْه بيانُ الوحي قرآنًا وبيّنه بيان الوحي سُنةً ، إنّما هو تحريرُ المرأة المُسلمة ، أمّا ما عداها ، فالقول في أمرها إنما هُو لِمنْ هم أعلم بحالِها .

والإعرابُ هنا عنها بـ« المُسلمة » لا أريدُ به الّتي تنتمي إلى « الإسلام » وراثةً عن أبويْن مسْلمين ، ولا أريدُ بها التي وُثّق انتِسابها إلى « الإسلام » في أوراقها الثبوتيّة ، ووثائقها التعريفية لدى القائمين عليْها . ولولا ذلك لما كانتْ كذلك ، فتلك ماهي بجديرة بحِلية « المُسلمة » بل هي المرأة الإسلامية ، وفرقٌ جد بيّنٍ ووسيع وعميقٍ بين أن يكون الإسلام نعتًا لي وحليتي الرئيسة

الفسْطاط لكل الحُلَى التي أتحلّى به في ظاهرِي وباطني ، وأن أكـون مُنتسـبًا إلى الاسلام ، مدلولاً على ذلك بياء النسب ، فالأشياءُ تنسبُ إلى بعضِها بأدنى ملابسَة ، فكمْ من رجلٍ هو إسلاميّ ، ليس بمسلم ، وكلُّ مسلمٍ هو بالضّرورة إسلاميّ مكين .

وأريد بـ« المسلمة » تلك المرأة التي أسلمتْ أمرَها كلَّه ظاهرَه وباطنَه لله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ ، إسلام محبة ورغبة ورهبة ، وَخضعتْ لمرادِه القدريّ خضوعَ محبةٍ وإجلالٍ ورضوانٍ ، وأطاعتْ مرادَه الشرعيّ أمرًا ونهيًا في كتابِه وسنّة رسُولِه ـ صَلّى اللهُ عَليْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ فهي الوقافة عند كتاب اللهِ تعالَى ، وسنة رسوله ـ صَلّى اللهُ عَليْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ ، لا تجعلُ لعقلِها وعاداتِ قومها ، وأعرافِهم وثقافاتِهم سلطانَ قَبول وردٍّ لِما جاء من أمْرٍ ونهي في بيان الوحي قرآنا وسنة ، هي التي إذا ما سمعتْ قول الله ـ تَعالَى ـ أوْ قولَ رسِوله ـ صَلّى اللهُ عَليْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ هتفَ كلُّ شيءٍ فيـها ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة:٢٨٥،٢٨٦)

ولا سبيلَ لها إزاء ما يريدُ ربّها ـ جَلّ جَلالُهُ ـ بها ولَها إلا أن يَصدعَ لسانُ حالها ومقالها بـ« رَضِينَا بِاللّهِ رَبًّا ، وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ ـ صلى الله عليـه وسلم ـ نَبِيًّا » كلٌّ مِن عند ربنا .

تلك هي التي أريد تحريرَها ، وهذا يعربُ لك عن ما أريد تحريرَها منه: أريد تحريرَها من كلّ ما يُكبلها به الآخرون من عندِ أنفسِهم ، وليس في بيان الوحي قرآنًا وسنة أثارةٌ منه .

إنّ منْ حقّ المرأة المسلمة أن تتحرّر من كلّ ما يأتي مقيدًا لها من غيرِ وحيِ ربّها ـ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ـ، فهو وحده في كتابِه وسنة رسُوله ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ الذي له الحق في أن يأمرها ، وينهاها ، ويأذن لها ، أو يمنعها ، فإذا ما استمسكتْ بكمال التقيّد بما جاء به الوحيُ قرآنًا وسنة نبوية صَحيحةَ النسبة لرسُول الله ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ ، حسنة الدلالة محكمتها ، كان لها أن تتحرر من كلّ ما عدا ذلك .

هي لا تتحرّرُ ممّا جاء به الوحي ، بلْ تتحرر ممّا أسقطَ الفهمُ العوجُ ، والنظر الكليل الوبيل على بيان الوحي ، وهو منه براءٌ .

لها بل عليْها ألا تقيم فهوم الناسِ لكتابِ الله ـ تَعَالَى ـ وسنة رسولِه ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ مقامهما تسليمًا مطلقًا يؤخذُ جميعه ، لا يرد منه شيءٌ ، كلاّ إن هي إلا فهومٌ منها ما استولد من رحم بيان الوحي ، ومنها ما ليس له به نسب وثيق .

تلك الفهومُ خضعت لعوامل ذاتية لأصحابها وخارجية أحاطت بهم ، فكانت تلك الفهوم خاضعة لعوامل عدة ، وتلك العوامل تتغير وَتتبدّل ، ولا يستقيمُ البتة أن يكون كلّ الفهوم التي وردت عن أهل العلم في أعصارهم وأمصارهم جارية بحروفها وحدودها في أعْصارنا وأمصارنا ، فإنّ لهذه الأعصار والأمصار التي تقوم فيها تأثير لا ينكره منصفٌ في الفهم من بيان الوحي فهْم استيلاد واستنباط لا إسقاط ولا تحريف للقول عن مواضِعه ، ولو أنّ الأعيان من علماءِ الأمة في العصور الخوالي ، والأمصار المتنوعة

جاءوا إلى عصرنا ومصرنا لكان لهم فهمٌ آخر يتآخَى ويتناغَى مع الواقع الجديد الذي قاموا فيه ، ليست فاعلية الواقع وتغير الزمان والمكان في تبديل معانى النص المنزّل ، كلا فمعانى بيان الوحى مكنوزة فيه لا تتغير قط إلى أن تقوم الساعة ، ملاحظة العالم الواقع والتغير الزماني والمكاني هى عامل استخراج بعض ما هو مكفور في البيان الوحى ، لم يكن الواقع السابق والزمان والمكان السابقين أداة ستخرجه ، ففي بيان الوحي من معاني الهدى ما يصلح كل واقع وزمان ومكان .

إن من أكبرِ الخذلان الّذي يقعُ فيه بعضُ أهل العلم في عصرنا ومصرنا أن يكتفوا بنقل ما جاءهم عن الأعيان من سابقيهم ، ثم لا ينظرون واقع حالهم في ضوء بيانِ الوحي ، ولا يجعلون لواقع عصرهم ومصرهم أثرًا في فهم بيان الوحي على نحو يجعل واقعهم أدخل في مقام الطاعة لله ربّ العالمين . يشهدُ تاريخ الأعيان من الأئمة في ما قبلنا أنّ لبعضهم أكثر من رأي في المسألة الواحدة ، وفق عوامل متعددة ، ولعل أكثر ما يعرف طلاب العلم حال الإمامِ الشافعي حين كان في العراق ، وحاله حين جاء إلى مصر ، وكذلك يقرأ طلابُ العلم أن للإمام أحمد في مسألة ما رأيين . . . وهما - رَضِيَ اللهُ عَنْهما - ما فارقا بيان الوحي في الحالين ، بل كانا متجاوبين في كل حال مع العوامل المحيطة بهما في فهم بيانِ الوحي ، واستنباط ما فيه ، فإن لمدخل العالم إلى النص من بيان الوحي أثرًا في الفهم ، فأنتَ إنْ نظرت فيه من جهةٍ كان لك ما لك غيره إن نظرت إليْه من جهةٍ أُخرَى .

ومما يؤثر عن الإمام مالك - رَضِيَ اللهُ عَنْه - أنـه كان يمتنع عن إفتاء أهل المغرب في النوازل التي كانت في بلادهم ، ولَم تكن في المدينة النبوية ، كان يُحيلهم إلى علماء أمصارهم ، وتلك هي حكمة العلماء وسياسة العلم .

فأولئك الذين يسقطون كلّ ما جاء به علماء العراق مثلاً في شَأن الحياةِ عندهم ، وعلاقاتهم الاجتماعية فيما بينهم من جهة ، وبينهم وولاة أمرهم من أخرى على أبناء السودان أو الباكستان أو اليونان من المسلمين مثلا حرفًا حرفًا ، إنما أولئك الذين ليسوا على هدًى في علمهم ، وهم إلى الحكمة ، وسياسة العلم أحوج ، وخيرٌ لهم أن يتعلموا الحكمة كما تعلموا دقائق العلم وشوارده وأوابده ، فاستجماع الدقائق واللطائف والشوارد والأوابد من المسائل وحده وخلاؤه من الحكمة وسياسة العلم مضرٌّ مضرة الجهل ، بل إن علاج الجهول حينئذٍ أيسر ، وأنجع من علاجهم .

إني لأذهب إلى أن استغناءَ الأعيان من أهل العلمِ ببيان الوحي في زماننا بما جاء عن الأعيان من العلماء السَّابقين عديلَ الرغبة المطلقة عمّا جاء عنهم في فهم بيان الوحي .

انحصار الرَّغبة في ما جاء به السابقون من أهل العلم ، وكمال الرّغبة عنه هما من الخطيئة .

* * *

وإني أريد أيضًا بتحرير المرأة المسلِمة تحريرَها عقلاً ، وشعوراً ، وسلوكًا من التأثر بما يحيطُ بها منْ دعاوى أنّ المرأة في دين الإسلامِ مكبّلةُ الطاقاتِ ، مُهدرةٌ ملكاتُها ، معطّلة قدراتها ومهارتها ، مأسورةٌ في بيْتها ، لا تعدُو رسالتها إلا تحقيقِ رغباتِ زوجِها ، وخدمته وخدمةِ بَنيه ، فهي أسِيرة عند زوجِها ، لا تسْتأمرُ ، ولا تسْتشارِ ، ولا حضور لها خارج بيْتها ، بلْ هي في بيْتها والخادم الأجير سواء ، بل إنّ منهن من ترى ـ تأثرًا بهذا الركس ـ أنّ البيت سجنها ، فإذا لم تخرج ليراها الناسُ وتراهم ، فإنما هي

السجينةُ سجنًا مؤبّدًا ، وعلى المجلس القومي لحقوق الإنسان أن يسْتنقذها من جبروت الطاغية زوجها .

تلك دعاوى ينقّون بها حينًا ، ويغِقون بها أخرى ، فيملؤون بها آذان النّساءِ ، فيحسبْن أن الأمرَ جدٌّ ، وأنّه إنما يراد بهنّ الُحسْنى .

حين تكون القضية بيْن المرأة وما جاء بِه الرِّجال من عند أنفسِهم لا من عند بيان الوحيِ كتابًا وسنّة ، حقّ لها أن تستمسِك بتحريرِها ممّا جاء بِه أولئك الرّجالُ من عندِ أنفسِهم ، وحقّ علينا أن نناصرها ، بل أن نتولى الدفع عنها حسبة لله ـ تعَالى ـ بكلّ ما هو مشْروع الدّفع والدّفاع به في الكتابِ والسّنة .

وحين تَكونُ القضية بيْن المرأة وما جاء بِه الوحي من ضبط لحركَةِ حياتها ، وتبيان لرسالتها ، ومسؤوليتها ، فإنّ الأمر حينئذٍ لا خيرة فيه لأحدٍ البتَّة ، وحق عليْها أن تسلم وجهها لله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ ، وأنْ تصمّ أذنيْها وفؤادها عن كل ما يغريها بالتمرّد على مرادِ الله الشرعيّ أمرًا ونهيًا ، وحق علينا أن نجتهد في التعليم والتثقيفِ والأخذ باليد بالحسنَى إلى التي هي أقوم ، في رفقٍ وحزمٍ رؤوفٍ ، وفي الوقت نفسِه حقٌّ عليْنا الأخذ على أيدي ربائب أم جميلٍ في وسائل الإعلامِ المفسِد في الأرض ، فإنَّ الاكتفاء بالأخذ بيد من يعتدَى على سَمعه وقلبه من النساء وحده لا يكفِي ، لا بدَّ من الأخذ على يدِ من يدفع بهنّ في الهاوية عمدًا .

وإذا ما كانت نظم الحكم المعاصرة تقيم ما يسمى محامي الشعب العام (النائب العام) ليدفع عن الشعب كلٍّ الشّعب ما يلحق به ضررًا حسيا أو معنويا في اقتصاده وأمنه الحسيّ والمعنويّ والفكريّ والأخلاقيّ ، فإنّ من

الفرائض المغفول عنها عند عظم من يتولّى النائب العام في ديار المسْلِمين عامة والعرب خاصة ، ترك حماية عقول أبناء الشعب وقلوبهم مما تقذف به من الضلال المبين في آذانهم وأفئدتهم ، وتحريضهم على عصيان الله والتمرد عليه والمجاهرة بالمعاصى تحت دعوى «الحرية الشخصية» ، وكأن هذه الحرية الشخصية لا مجال لتطبيقها إلا في باب الأخلاق ، إنَّ كلَّ نائب عام في أى دولة مسلمة إذا لم يقم بحماية أخلاق الشعب وآدابه مما يسلط عليها من أسلحه الدمار الشامل عَبْر ما يسمى بوسائل الإعلام «الإعلان والتوصيل»، وعبر ما يسمى بالفنون ، إنه إذا لم يقم قيامًا فتيًّا لحماية الناس من هذا الوبال فإنه بذلك يكون مقصراً في القيام برسالته ، وتلك هى الهالكة .

* * *

علينا أن نجتهدَ في بيان ما هو من قبيل بيان الوحي الذي لا يمكن لأحدٍ أن يتحرّر منه ، بل لا بدَّ أن يتحررَ به من كلّ ماعداه ، فتلك مسؤولية أهلِ العلمِ وطلابِه .

عليْهم تحقيقُ ذلك وتحريرُه ثم تقريبه ، وتمكينه في قلوب الناسِ كافة ، وفي قلبِ المرأة المسلمة خاصّة .

وأهل العلمِ من النساء ، ولا سيما في جامعة الأزهر عليهن مسؤولية بالغة في تحقيقِ ذلك ، وكذلك طالبات العلمِ ، وإني لأدهش من امرأة من أهلِ العلم ببيان الوحي في هذه الجامعة وما شاكهها من الجامعات تشغل نفسَها وتشغلنا بما ليس له علاقة بشأن المرأة ، وكأنّها تريد من غيرها أن يعملَ لها ، وأن يبحث في شأنها ، كثير منهن مشغولة بقضايا أدبية ونقدية ولغوية جوفاء خواء من أي قيمة علمية ، وأيّ قيمة مجتمعية ، ولا شأن لها بالمرأة ،

وكأنَّ الأمرَ كلّه عندها أن تحوزَ درجة علمية تقتات بها فتات موائد رجال «الأموال» وبطانة السّلطان ، من تفعل فإنّها التي وضعت في عنقها ربقة الاستعباد ، ثم تتصايح مطالبة بتحريرها ، حرّري نفسك أولاً من استعباد الدنيا بذهبها وحريرها ولَعلَها ، ثم طالبي بتحريرك ثانيًا من الفهوم الخاطئة أو القاصرة التي يتورثها الناس كأنها هي الشريعة التي لا تحول ولا تزول ، وليست فقهًا للشريعة يؤخذ منه صالحه ويردّ بالحسنى غيره .

الأمر جدّ جليلٍ والتقصير فيه خيانة للمرأة وللأسرة وللأمة وللعلم .

لا يحسن العلم والعمل بما به تتحرر المرأة المسلمة وفقًا لكتابِ الله ـ تَعَالَى جَدُّهُ ـ وسنة رسوله صَلّى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ ـ كمثل المرأة المشتغلة ببيان الوحي قرآنًا وسنة ، فحقٌّ عليهن ألا يتسامحن في التقصير في الوفاء به فضلا عن التشاغلِ والتغافل

إنّ عليْهنّ أنْ ينصرفن بكلّ ما ملكهنّ الله ـ سُبْحَانَه وَبِحَمْدِهِ ـ من حسن الفقه والبيان إلى القيام بما يُحقق للمرأة المسلمة تحررها بالكتابِ والسنة من مواثيق العلمانيين واللبراليّين التي يراد بظاهرها التحرير ، وهي في حقيقتها معاول تدمير للمرأة المسلمة .

إنى لأدعو إلى تأسيس اتحاد العالمات ببيان الوحي في الأزهر الشريف ، ليقوم هذا الاتحاد بتحقيق كل ما يحرر المرأة المسلمة من القيود المخالفة لما جاء به بيان الوحي ، والدفاع عن المرأة المسلمة وحمايتها من كل تسلط عليها من قبل وليها بغير سند صريح من بيان الوحي قرآنا وسنة ، وبتحقيق تعليم المرأة المسلمة وتثقيفها بحقوقها التي كفلها الوحي قرآنا وسنة ، وبواجباتها التي ألزمها بها الشرع قرآنا وسنة بنتًا ، وأمًّا ، ، وزوجا ، وأختًا ،



وطالبة علم ، وعالمة ، ومواطنة صالحة ، وتدريبهن على ذلك ، فكل ذلك مما يحقق حصانة المرأة المسلمة من أن تظلم من وليها ، ومن أن تظلم هى قومها ووطنها ، إنّه لا يحسن بيان حقوق المرأة وواجباتها في الإسلام والدفاع عن تلك الحقوق والإلزام بالواجبات إلا أولئك العالمات الفاهمات عن الله ـ تعالى ـ وعن رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . والتقصير في هذا ممّا لا يطاق ضرُّه .

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴾ (الإنسان:٢٩-٣١)

سبحانك اللهم وبحمدِك أشهد ألا إله إلا أنت أسْتغفرك وأتوب إليك وصَلّى اللهُ عَلى سيّدنا مُحمّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلّمَ والْحَمْدُ للهِ ربِّ العالَمين .

وكتبَه

مَحْمُود توفِيق مُحمّد سَعد

almasry٤١١@gmail.com

ثبت أهم المصادر والمراجع

١- أحكام القرآن محمد بن إدريس الشافعي (ت : ٢٠٤هـ) ـ جمع أبي بكر البيهقي : أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني (ت : ٤٥٨هـ) كتب هوامشه : عبد الغني عبد الخالق مكتبة الخانجي ـ القاهرة . ط. الثانية ١٤١٤هـ .

٢- أحكام القرآن : أحمد الرازي الجصاص . (ت: ٣٧٠هـ) مراجعة : صدقي جميل . دار الفكر . بيروت ط. ١٤٢١هـ .

٣- أحكام القرآن : محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري المالكي (ت : ٥٤٣هـ) تعليق : محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط. الثالثة ١٤٢٤ هـ .

٤- أنوار التنزيل وأسرار التأويل : تأليف : للقاضي البيضاوي : عبد الله ابن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت : ٦٨٥هـ) تحقيق : محمد عبد الرحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت . ط. الأولى ١٤١٨ هـ .

٥- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» . محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر ابن عاشور التونسي (ت : ١٣٩٣هـ) الدار التونسية للنشر ـ تونس ـ ١٩٨٤هـ .

٦- تفسير القرآن العظيم : إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت : ٧٧٤هـ) تحقيق : سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط. الثانية ١٤٢٠هـ .

٧- تفسير المنار ، لمحمد رشيد رضا (ت : ١٣٥٤هـ) الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٩٠ م

٨- جامع البيان في تأويل القرآن . لابن جرير الطبري : محمد بن جرير ابن يزيد بن الآملي (ت : ٣١٠هـ) تحقيق : أحمد محمد شاكر . مؤسسة الرسالة . ط. الأولى ١٤٢٠ هـ .

٩- الجامع لأحكام القرآن ، لأبى عبد الله القرطبي : محمد بن أحمد ابن أبي بكر بن فرح الأنصاري (ت : ٦٧١هـ) تَحقيق : أحمد البردوني ، وإبراهيم أطفيش . دار الكتب المصرية ـ القاهرة . ط. الثانية ١٣٨٤هـ

١٠- حسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة . لأبي الطيب محمد صديق خان بن حسن بن الحسيني القِنَّوجي (ت : ١٣٠٧هـ) تحقيق : مصطفى الخن ، محيى الدين مستو . ط. الثانية مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠١هـ .



١١- شرح مشكل الآثار . لأبي جعفر الطحاوي : أحمد بن محمد بن سلامة ابن عبد الملك بن سلمة الأزدي المصري (ت : ٣٢١هـ) تحقيق : شعيب الأرنؤوط . مؤسسة الرّسالة . ط. الأولى ١٤١٥ هـ

١٢- شُعب الإيمان ، لأبي بكر البيْهقيّ : أحمد بن الحسين بن علي ابن موسى الخراساني (ت : ٤٥٨هـ) تحقيق : عبد العلي عبد الحميد حامد ، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية بيومباي بالهند ، ط. الأولى ١٤٢٣ هـ

١٣- الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة ، لابن قيم الجوزية : محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت :٧٥١هـ) تحقيق : علي ابن محمد الدخيل الله . دار العاصمة ، الرياض ، ط. الأولى ١٤٠٨هـ

١٤- في ظلال القرآن . سيد قطب إبراهيم (ت : ١٣٨٥هـ) دار الشروق - بيروت - القاهرة . ط. السابعة عشرة ١٤١٢ هـ .

١٥- القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى ، محمد بن صالح ابن محمد العثيمين (ت :١٤٢١هـ) الجامعة الإسلامية ، المدينة النبوية. ط. الثالثة ١٤٢١هـ

١٦- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، أبو القاسم محمود بن عمرو ابن أحمد ، الزمخشري (ت : ٥٣٨هـ) دار الكتاب العربي - بيروت ، ط. الثالثة ١٤٠٧هـ .

١٧- المرأة في القرآن : عباس محمود العقاد . مكتبة الأسرة ٢٠٠٠ عن نهضة مصر بالفجالة .

١٨- المرأة في القرآن : محمد متولي الشعراوي . أخبار اليوم . القاهرة ، ١٩٩٠م

١٩- مفاتيح الغيب (تفسير الرازي) الفخر الرازي : محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين الرازي (ت : ٦٠٦هـ) دار إحياء التراث العربي - بيروت . ط. الثالثة ١٤٢٠هـ

٢٠- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل . أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي (ت :٧٠٨هـ) تعليق : عبد الغني محمد علي الفاسي . دار الكتب العلمية ، بيروت

٢١- نداء للجنسِ اللطيف في حقوقِ النساء في الإسلام وحظهنّ من الإصلاح المحمدي العام ، السيد محمد رشيد رضا . ط. الثانية دار المنار بالقاهرة ١٣٦٧هـ .

٢٢- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور . برهان الدين البقاعي : إبراهيم ابن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت:٨٨٥هـ) . دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة

كتب وبحوث محكمة للمؤلف

١- دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين ، دراسة منهجية تأويلية ناقدة ، مكتبة وهبة ـ القاهرة .

٢- سبل استنباط المعاني من الكتاب والسنة ، دراسة منهجية تأويلية ناقدة ، مكتبة وهبة ـ القاهرة .

٣- صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم ـ دراسة في البلاغة القرآنية ، مكتبة وهبة ـ القاهرة .

٤- الإمام البقاعي ، جهاده ومنهاج تأويله بلاغة القرآن الكريم ، مكتبة وهبة ـ القاهرة .

٥- أسرار البلاغة القرآنية في سورة تبت يدا ـ مكتبة وهبة ـ القاهـرة .

٦- الإمام أبو حنيفة بليغًا ، قراءة في المنهج والبيان ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة .

٧- الرجال قوامون على النساء مدارسات إيمانية أخلاقية في ضوء علم البلاغة العربي ، مكتبة وهبة ـ القاهرة .

٨- إشكالية الجمع بين الحقيقة والمجاز في البيان القرآني،مكتبة وهبةـ القاهرة .

٩- مسالك العطف بين الإنشاء والخبر في القرآن الكريم ، مكتبة وهبة ـ القاهرة .

١٠- تغييب الإسلام الحق ، دحض افتراءات دعاة التنوير على القرآن الكريم، مكتبة وهبة ـ القاهرة .

١١- فقه بيان النبوة منهجًا وحركة : دراسة في البلاغة النبوية ، مكتبة وهبة ـ القاهرة .

١٢- الكلمة نور محاورات منهجية في كتاب شرح أحاديث من صحيح مسلم لشيخنا محمد أبي موسى ، مكتبة وهبة ـ القاهرة .

١٣- فقه تغيير المنكر (كتاب الأمة ـ وزارة الأوقاف بدولة قطر)

١٤- نقد العقل البلاغي . بحث محكّم قدّم إلى المؤتمر العلمي الدولي في جامعة الأزهر ـ كلية اللغة العربية (شبين الكوم) تحت عنوان : العقل وعلوم العربية ، والمنشور في كتاب المؤتمر .

١٥- في نقد العقل البلاغي . نشر مشيخة الأزهر الشريف مجلس حكماء المسلمين ـ من عيون التراث الأزهري الحديث سلسلة اللغة والأدب رقم (١) عام ١٤٤٠هـ

١٦- قضايا نقدية في مقدمة طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي .

١٧- نسق بناء القصيدة في عيار الشعر لابن طباطبا ـ دراسة نقدية .

١٨- قراءة في المثل السائر لابن الأثير .

١٩- التفكير البلاغي في بيان الوحي . بحث محكم مقدم إلى المؤتمر العلميّ الدولي في البلاغة المنعقد في جامعة أم القرى بمكة المكرمة . ومنشور في كتاب المؤتمر .

٢٠- فِي بَلاغةِ التَّناسُبِ القُرآنيِّ : مقاربات منهجية في تأصِيله وأصُوله . بحثٌ محكم مقدّمٌ إلى المؤتمرالعلمي الدولي في «مناهجِ البحث فِي بلاغةِ القرآن الكريم» المنعقد في كلية اللغةِ العربية جامعةِ الإمامِ محمّد بن سعود الإسلامية بالرياض ونشر في كتاب «المؤتمر».

٢١- الإغريض في الفرق بين الكناية والتعريض ـ لتقي الدين السبكي ـ تحقيق ودراسة . بحث محكّم منشور في مجلة كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ـ المنوفية .

٢٢- نظرية النّظم الجرجانية وقِراءة الشعر . بحث محكّم منشور في مجلة كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ـ المنوفية .

٢٣- نقد مذهب التقي السبكي في دلالة التقديم على التخصيص . بحث محكم منشور في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض .

٢٤- مراجعات ناقدة في أسلوبِ الفصل والوصل . بحث محكّم منشور في مجلة جذور حولية النادي الأدبي الثقافي بجدة .

٢٥- الاستفهام القرآني دقائق ورقائق بيانية . بحث محكّم منشور في مجلة كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ـ المنوفية .

٢٦- فقه التعبيرالقرآني في ضوء مقامات القرب . بحث محكّم منشور في مجلة كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ـ المنوفية .

٢٧- مستويات بناء صُورة المعنى في العقل البلاغي . بحث محكّم منشور في مجلة جذور حولية النادي الأدبي الثقافي بجدة .

* * *

بيان الموضوعات ومواضِعها

المــوضـــوع **الصفحة**

المدارسة الثّالثة

العلاقة بيْن الزوجين حال المخالفة والمباعدة والمشاقة : أحكامٌ وآدابٌ

(١٣٦-١٦٩)

مفهوم النشوز ومستوياته ـ الموقف التربويّ إزاء النشوز ـ معالم الهدى في قوله تعالى(تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ) ـ مفهوم الوعظ والضرب والهجر في المضاجع وآداب كلّ ـ معاني الهدى في فاصلة الآية(إنّ اللهَ كانَ عليًا كبيرًا) المراد بعلو الله تعالى في الآية ـ استطباب استفحال النشوز ـ مفهوم التخوف في قوله : (وَإِنْ خِفتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا) ـ حركة الضمائر فيه ـ وجه الإعراب عما بينهما بالشقاقِ ـ وجه الإعراب بقوله : (فَابْعَثُوا) دون «أرسلوا» مرجع الضميرفي قوله تعالى : (إِنْ يُرِيدَا إِصْلاَحًا) ـ وجه اقتصار البيان على إرادة الإصلاح في(إِنْ يُرِيدَا إِصْلاَحًا) ـ وجه تذييل الآية بقوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا)

المدارسة الرّابعة

فقه المعنى في لحاق الآيتين مناط التدبّر

(١٧٠-١٧٩)

أهمّية النظر في لحاق الآيتين الواقعِ موقع الفاصلة منهما ـ وجه استهلال اللّحاق بقولِه تعالى : (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) ـ موقع المرأة زوجًا ممّن أمر الله تعالى بالإحسانِ إليهم ـ وجه تذييل الآية بقوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا) ـ مسؤولية المتدبر مِما يفيضُ به قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ) وما في من تهديد وترغيبٌ تنحلع له قلوب الفاقهين ـ التنفير من الاختيال والفخر ، وعلاقتهما بالكبر المحاجز صاحبه عن دخول الجنّة .

المدارسة الخامسة

هدي القرآن في معالجةِ الخوفِ من نشوز الزوج أوإعراضِه

(١٨٠-٢٨٠)

خوف المرأة من نشوز الزوج ـ مفهوم نشوز الزوج ـ وجه الإعراب عن الزوج في الآية بـ«البعل» ـ مناظرة بين قوله تعالى (وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ....) وقوله تعالى